أمثال المسيح

الدكتور القس منيس عبد النور

الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة بالقاهرة

اهداءات ٢٠٠٢

كنيسة الانجيلية بالعطارين

الاسكندرية

أمثال المسيح

د. القس منيس عبد النور

الكنيسة الانجيلية بقصر الدوبارة - القاهرة

الكتاب: امثال المسيح
المؤلف: الدكتور القس منيس عبد النور
المطبعة: دار الطباعة القومية
رقم الايداع: ١٥٦٣٨ / ٢٠٠٠

إهداء

إلى شريكة حياتي التي شجعتني دائماً، ورفعتني في صلواتها دائماً، والتي لولا إسنادها ما كان يمكن أن أنتج ما كتبت..

إلى زوجتي

نادية

أهدي هذا الكتاب

هذا الكتاب

دراســـة أمثال المسيح دراسة ممتعة، تنقلنا من واقع الحياة إلى السماويات، ببساطة وعُمق، فالمسيح هو «الراوي الأعظم» صاحب الأسـلوب السـهل الممتنع، الذي لا يـفقد طلاوته مهما نُقل إلى مختلف اللغات، أو انتشر في كل الحضارات، لأن المبادئ الروحية في تعليمه هي الأساس.

وأمثال المســيح بالغة الإعجاز في توضيح كيفية انتشار ملكوت الله في العالم، وفي وصف السعادة التي يحصل عليها الإنســان الذي يُملِّك الله على حياته، وفي شرح نوعية حياة الإنسان الذي ينتمي إلى ملكوت الله.

ولقد اختار الكاتب من أمثال المســيح ســبعة وثلاثين مثلاً، قدَّمها بحسب موضوعاتها، فبدأ بخمسة عشر مثلاً تشرح طبيـــعة ملكوت الله، وأتبعها باثني عشر مثلاً تتحدث عن امتيازات أبناء الملكوت، ثم ختم كتاباته بعشرة أمثال عن مسؤوليات أبناء الملكوت.

وقد شرحتُ هذه الأمثال في عظات من منبر كنيسة قصر الدوبارة، وطلب مني الشيخ المهندس نبيل اســكندر أن أصدرها في كتاب، وشجعني علــى ذلــك، فشكراً له، ولكل من عاونني في إصداره بهذه الصورة.

وكل ما يــرجوه الكاتب أن يـــدرك القارئ روعة الحياة التي يجدها كل من ينتمي إلى ملكوت الله، وتكون كلمات المسيح دستور حياته، وطاعة الله أقصى أمانيه.

فهرس الكتاب

القسم الثالث – مسئوليات أبناء ملكوت الله

مقدمة

تميــّز تعليـــم المســـيح برواية الأمثال «وبدون مثلٍ لم يكن يكلمهم» (مرقس ٤: ٣٤). والمثل قصة أرضية تعبِّر عن حقائق أوحى الله بها، فهو يشبه مسكناً على الأرض وقد فتحت نافذته نحو السماء. وما أن تقول «أمثال المســـيح» حتى تتذكر أروع القصص من وقائع الحياة العادية. ولا غرابة، فالمسيح هو «كــلمة الله» المتجسِّد، الذي شارك الناس في أحداث حياتهم اليومية.. عندما ولدته العذراء القديسة مريم أضجعته في مذود، وزاره في مهده رعاة الأغنام البســـطاء، وعاش في الناصرة لا في عاصمة البلاد، وكســـب عيشه من أعمال النجارة، واختار تلاميذه من الصيادين البسطاء. غير أنه كان صاحب رسالة محبة الله لــــلبشر جميـــعاً على اختلاف نوعيـــاتهم ومعتقداتهم، فهو «الكلمة» والمتكلم، وهو الرســـول والـــرسالة. وقد جاء إلى العالم برسالة واضحة قوية عن محبة الله، وعدالته، وأعلن هذه الرسالة بطريقة واضـــحة قوية جذابة، حتى «بُهتت الجموع من تعليمه، لأنه كان يعلّمهم كمن له سلطان، وليس كالكتبة» (متى ٧: ٢٨، ٢٩). وكانت الأمثال إحدى طرق تعليمه الجذابة.

وتصوِّر الأمثال التي ضربها المســـيـــح حالاتٍ من واقع حيـــاة الناس، ولذلك نطلق عليه «الراوي الأعظم»، فهو الذي يــُريـــنا أباً يـــفيـــض قلبه حباً وشوقاً إلى ابن ضال نادم راجع من البلد البعيد إلى الأحضان الأبويـــة المنتظرة، الواثقة انه لا بد راجع (لوقا ١٥: ٢٠)، ويـــرينا راعي أغنام منحنٍ على طرف هاوية ليرفع حملاً له قد ســـقط في حفرة (لوقا ١٥: ٤)، ويرينا جريحاً وقع بين اللصوص يسعفه مســـافر يختلف عنه في الوطن والدين (لوقا ١٠: ٣٣). وتنقلنا أمثال المســـــيح لنرى فلاحاً يبذر بذوره (مـــتى ١٣: ٣) أو يحرث بمحراثه (لوقا ١٧: ٧)، وصياداً يلقي شباكه (متى ١٣: ٤٨)، وأرملةً تستنجد بقاضٍ مرتشٍ (لوقا ١٨: ٣)، وبنّاءً يـــبني قلعة (لوقا ١٤: ٢٨)، وملكاً يـــتّجه بجيشه لأرض المعركة (لوقا ١٤: ٣١). ولمس المســـيـــــح في أمثاله الحياة العائلية كما في مثل الابنين (متى ٢١: ٢٨-٣١)، والحيـــاة الزراعيـــة كما في مثل التيـــنة غيـــر المثمرة (لوقا ١٣: ٦-٩) والحياة التجارية كما في مثل الـــوزنات (متى ٢٥: ١٤-٣٠)، والحياة السياسية كما في مثل الملك الذي طلب حكماً فانقلب شعبه عليه أثناء سفره (لوقا ١٩: ١١-٢٧).

ولم يكن المسيح أول من استخدم أسلوب التعليم بأمثال، فقد سبقه أنبياء العهد القديم وغيرهم في ذلك. ولكن أمثال المســـيـــح تخلو من القصص الخرافية، وحديث الأشجار والحيوانات، فهو «الطريق والحق والحيـــاة» الذي أعلن الأخبار المفرحة الحقيـــقية بأســـلوب تعامل الله الحقيقي مع البشر، فجاءت أمثاله واقعيـــــة تحمل دروس الأبد لكل بشرٍ في كل زمن وفي كل مكان، فقد قال: «الكلام الذي أكلِّمكم به هو روحٌ وحياة» (يوحنا ٦: ٦٣).

لماذا علّم المسيح بأمثال؟

قبل أن يبدأ المسيح التعليم بالأمثال كان قد وعظ تعليماً صريحاً وقال لمفلوجٍ شفاه: «مغفورة لك خطاياك» (مرقس ٢: ٩)، ودخل بيوت الخطاة وأكل معهم (مرقس ٢: ١٦)، وشفى صاحب يدٍ يابسة يوم سبتٍ، فرفضه قادة بني إسرائيل وتشاوروا معاً على قتله (مرقس ٣: ٦)، فغيَّر المسيح طريقة تعليمه إلى الأمثال التي يفهمها البسطاء الراغبون في التعلُّم، لأنهم سيسألون عن معناها. أما الرافضون فسيظنون أن المسيح يضرب أمثالاً، أو يروي حكايات، فيتوقَّفون عن مقاومته، ويتركونه يعظ الجموع الراغبة في المعرفة. ويتَّضح لنا هذا من أنه عندما روى أول أمثاله، وهو مثل الزارع، سأله تلاميذه: «لماذا تكلمهم بأمثال؟» فأجاب: «قد أُعطي لكم أن تعرفوا سرَّ ملكوت الله، وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء، لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا، ويسمعوا سامعين ولا يفهموا» (مرقس ٤: ١١، ١٢). وختم مثل الزارع بقوله: «من له أذنان للسمع فليسمع» (مرقس ٤: ٩).

فالمثل يعطي الراغب في المعرفة مزيداً من المعرفة، لأنه سيفتش عن معناه. أما المشاغب الرافض فسينصرف عن المعنى الكامن في المثَل لأن قلبه مغلق، ولذلك قال المسيح: «فإن من له (الرغبة في المعرفة) سيُعطَى ويُزاد، وأما من ليس له (هذه الرغبة) فالذي عنده سيُؤخَذ منه» (متى ١٣: ١٢).

كيف نفسِّر الأمثال؟

عند تفسير أمثال يجب أن نراعي ثلاثة قوانين:

١ - يجب أن نعرف المناسبة التي روى فيها المسيح المثل، فنفسِّره في نور القصد الرئيسي من روايته. وتساعدنا مناسبة رواية المثل على إدراك المعنى الرئيسي المقصود منه.

٢ - ليس لكل تفاصيل المثل معاني روحية، فلا يجب أن نحمِّل النصَّ أكثر من جوهر التعليم، ولا أن نستقي منه استنتاجات فرعية لا ترتبط بالقرينة، ولا أن نستخرج من كل تفاصيل المثل دروساً. وقد نصحنا القديس يوحنا فم الذهب أن نأخذ المعنى الرئيسي من المثَل: «وألا نشغل نفوسنا كثيراً بالبقية». ففي مثَل السامري الصالح، يكفي أن نرى أن قريبي هو المحتاج لمساعدتي، مهما اختلف عني في الدين والجنسية، دون داعٍ لأن نتساءل عن المقصود بالحمار أو صاحب الفندق أو الدينارين.

٣ - لا يمكن أن يُؤخَذ المثل وحده أساساً لعقيدة دينية، بل يجب أن نقرن آيات الكتاب معاً قبل أن نكوِّن عقيدتنا (اكورنثوس ٢: ١٣). وقد روى المسيح أمثاله للبسطاء الذين سمعوها بسرور لأنها لمست واقع حياتهم.

أمثال المسيح

الجزء الأول

طبيعة ملكوت الله

١ - الملكوت انتقال إلى حالة جديدة

(أ) الملكوت حياة جديدة - مثلا الرقعة والزقاق لوقا ٥: ٢٧-٣٩

(ب) الملكوت تعليم جديد - مثل الكاتب المتعلم متى ١٣: ٥٢

(ج) دعوتان واستجابتان - مثل الأولاد اللاعبين لوقا ٧: ٣١-٣٥

(أ) الملكوت حياة جديدة

مثلا الرُّقعة والزِّقاق

وَبَعْدَ هَذَا خَرَجَ فَنَظَرَ عَشَّاراً اسْمُهُ لاوي جَالِساً عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ، فَقَالَ لَهُ: اتْبَعْنِي. فَتَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَامَ وَتَبِعَهُ. وَصَنَعَ لَهُ لاوي ضِيَافَةً كَبِيرَةً فِي بَيْتِهِ. وَالَّذِينَ كَانُوا مُتَّكِئِينَ مَعَهُمْ كَانُوا جَمْعاً كَثِيراً مِنْ عَشَّارِينَ وَآخَرِينَ. فَتَذَمَّرَ كَتَبَتُهُمْ وَالْفَرِّيسِيُّونَ عَلَى تَلامِيذِهِ قَائِلِينَ: لِمَاذَا تَأْكُلُونَ وَتَشْرَبُونَ مَعَ عَشَّارِينَ وَخُطَاةٍ؟ فَأَجَابَ يَسُوعُ: لا يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ، بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَاراً، بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ.

وَقَالُوا لَهُ: لِمَاذَا يَصُومُ تَلامِيذُ يُوحَنَّا كَثِيراً وَيُقَدِّمُونَ طِلْبَاتٍ، وَكَذَلِكَ تَلامِيذُ الْفَرِّيسِيِّينَ أَيْضاً، وَأَمَّا تَلامِيذُكَ فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَتَقْدِرُونَ أَنْ تَجْعَلُوا بَنِي الْعُرْسِ يَصُومُونَ مَا دَامَ الْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ وَلَكِنْ سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ الْعَرِيسُ عَنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ.

وَقَالَ لَهُمْ أَيْضاً مَثَلاً: لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ رُقْعَةً مِنْ ثَوْبٍ جَدِيدٍ عَلَى ثَوْبٍ عَتِيقٍ وَإِلاَّ فَالْجَدِيدُ يَشُقُّهُ، وَالْعَتِيقُ لا تُوَافِقُهُ الرُّقْعَةُ الَّتِي مِنَ الْجَدِيدِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ خَمْراً جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ عَتِيقَةٍ لِئَلاَّ تَشُقَّ الْخَمْرُ الْجَدِيدَةُ الزِّقَاقَ، فَهِيَ تُهْرَقُ وَالزِّقَاقُ تَتْلَفُ. بَلْ يَجْعَلُونَ خَمْراً جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ جَدِيدَةٍ فَتُحْفَظُ جَمِيعاً. وَلَيْسَ أَحَدٌ إِذَا شَرِبَ الْعَتِيقَ يُرِيدُ لِلْوَقْتِ الْجَدِيدَ لأَنَّهُ يَقُولُ: الْعَتِيقُ أَطْيَبُ (لوقا ٥: ٢٧-٣٩).

(ورد هذان المثلان أيضاً في متى ٩: ١٤-١٧ ومرقس ٢: ١٣-٢٢)

مناسبة رواية المثَلين:

روى المسيح هذين المثَلين أثناء وليمة أقامها له لاوي العشار (جابي الضرائب). وكان جمع العشور (أو جبايـــة الضرائب) وظيفة محتقرة عند اليهود، لأن الذي يقوم بها لصٌّ، وخائنٌ لوطنه، لأنه يتقاضى ضرائب أكثر مما يحقّ له، كما أنه كان يأخذ أموال أبناء شعبه ليؤديها للســادة المســتعمرين الرومان. فكان العشّار (في نظرهم) يرتكب خيانتين: خيانةً أخلاقية، وخيانة وطنية.

وكان المسيح قد مرّ بلاوي وهو يؤدي عمله، فدعاه: «اتبعني» (لوقا ٥: ٢٧)، فأطاع وترك كل شيء وقام وتبعه. وكان لدعوة المســيح له، ولقبوله هو لتلك الدعوة أثرٌ عظيم في نفسه، فقد شعر أنه ذو قيمة كبيــرة في نظر الله. وفاض قلبه بأفراح الخاطئ التائب الذي غُفرت خطاياه، وأراد أن يعبِّر عن ابتهاجه، فأقام وليمة للمسيح احتفالاً بالتجديد الذي جرى له، دعا إليها زملاءه وأصدقاءه من العشارين أمثاله.

وفي أثناء الوليمة كانت جماعتان مختلفتان تراقبان المســيح، أولهما جماعة الفريسيين، وهم اليهود المتديّنون المتزمّتون، فانتقدوا الســيد المسيح والمحيطين به من الذين حضروا وليمة لاوي، وقد اعــتبروهم صحابته، وتساءلوا: كيف يقبل معلّمٌ ديني محترم دعوة الخطاة ويأكل معهم؟ لا بد أنه مثلهم! وأخذوا يراقبون ليروا إن كان لاوي وضيوفه سيراعون مطالب شريعة موسى في الاغتسال قبل الأكل.

أما الجماعة الثانية فكانوا بعض تلاميذ يوحنا المعمدان، المعلّم المتنسّك المتقشف الذي كان لفرط تقشّفه «لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً» (لوقا ٧: ٣٣). وكان قد قال عن المسيح إنه «الذي يأتي بعدي، الذي صار قدامي، الذي لست بمستحقٍ أن أحلّ سيور حذائه.. هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم.. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يوحنا ١: ٢٧، ٢٩ و٣: ٣٠). فاندهشوا وهم يرون المسيح يأكل ويشرب ويحضر الولائم ويصادق العشارين والخطاة، وهو أسلوب حياة يناقض أسلوب معلّمهم المعمدان!

سؤالان:

وبسبب هذه الوليمة طُرح على المسيح وتلاميذه سؤالان، أحدهما من الفريسيين، والآخر من تلاميذ المعمدان والفريسيين. سأل الفريسيون تلاميذ المسيح: «لماذا تأكلون وتشربون مع عشارين وخطاة؟!» (لوقا ٥: ٣٠). وسألوا المسيح: «لماذا يصوم تلاميذ يوحنا كثيراً.. وأما تلاميذك فيأكلون ويشربون؟!» (لوقا ٥: ٣٣). وسأل تلاميذ المعمدان السيد المسيح: «لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً، أما تلاميذك فلا يصومون؟!» (متى ٩: ١٤).

جواب المسيح على سؤال الفريسيين:

وأجاب المسيح على سؤال الفريسيين بقوله: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (لوقا ٥: ٣١، ٣٢). وقد أوضحت إجابة المسيح هذه خمسة أمور:

١ - **أوضحت طبيعة رسالة المسيح**، فهي رسالة الحب الكامل لأنه الطبيب الذي يحب الخطاة، ويتعامل معهم ويختلط بهم، لا لأنه مثلهم، بل لأنه يقدم لهم الشفاء المجاني. إنها رسالة المحبة ذات العرض الذي يشمل كل أمم الأرض، وذات الطول الذي يطول كل العصور، وذات العمق الذي يصل إلى الخاطئ حيث يكون لينتشله من أعماق سقوطه، وذات العلو الذي يرفع التائب إلى سماء المجد والعظمة. إنها المحبة الفائقة المعرفة، لأنها مجانية، ومتأنية، ودائمة (أفسس ٣: ١٨، ١٩).

٢ - **أوضحت طبيعة خلاص المسيح**، فهو هبته المجانية لمرضى الخطية، ففي المسيح لنا الفداء، «بدمه غفران الخطايا حسب غِنى نعمته» (أفسس ١: ٧). فخلاص المسيح هو الشفاء من مرض الخطية، وهو عطية الطبيب لمرضاه، كما يقول الوحي: «أجرة الخطية هي موت، وأما هبة الله فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا» (رومية ٦: ٢٣). ونحن نخلص برحمة الله ونعمته، فالرحمة تمنع عنا العقاب الذي نستحقه، والنعمة تمنحنا البركات التي لا نستحقها.

٣ - **وأوضحت طبيعة البشر الذين جاء ليخدمهم**، فهُم مرضى يحتاجون إلى الطبيب، وهم خطاة يحتاجون إلى التوبة. أما الذين يظنون أنفسهم أبراراً فلا نصيب لهم في شفاء المسيح وخلاصه المفرح.

٤ - **وأوضحت طبيعة الخطية، فهي عصيان يُغضب الله**، ويحجب وجهه عن الخاطئ، ويفصل الخاطئ عنه.

٥ - **وأوضحت طبيعة التوبة**، فهي رجوع الضال عن ضلاله وتغييره تغييراً كاملاً، لأن روح الله

ينيره فيدرك سوء مصيره، ويبكته فيعزم أن يترك خطاياه، فإن «من يكتم خطاياه لا ينجح، ومن يقرّ بها ويتركها يُرحم» (أمثال ٢٨: ١٣). كان لاوي مريضاً بحب المال، وكان خائناً لبلده. ولما فتح قلبه وبيته للمسيح نال الشفاء من الجشع، وأقلع عن خيانة بلده.. بل إنه أصبح مبشراً لزملائه الخطاة والضالين، فدعاهم ليلتقوا بالمسيح المخلِّص الذي أنقذه وفرَّح قلبه، ليتمتعوا بما تمتّع هو به. كما أنه أرادهم أن يشاركوه فرحه، فالسماء تفرح بالخاطئ التائب، كما يفرح التائب بخلاص نفسه.

لماذا يصوم الفريسيون؟

كان اليهود، ومنهم الفريسيون، يصومون لأن شريعة موسى طالبتهم بصوم يومٍ واحد في السنة هو «يوم الكفارة العظيم» وهو يوم الاعتراف بالخطايا وانكسار القلوب بسببها. وفي هذا اليوم من كل سنة كان رئيس الكهنة يدخل إلى «قدس الأقداس» في الهيكل، أولاً بدمٍ عن نفسه ليغفر الله له. وعندما يرضى الله عنه يدخل إلى قدس الأقداس مرة ثانية بدمٍ للتكفير عن خطايا الشعب (لاويين ١٦ وعبرانيين ٩: ٧).

وأضاف الفريسيون إلى هذا الصوم السنوي الذي طالبت به الشريعة صوم يومي الإثنين والجمعة من كل أسبوع، باعتبار أنهما تذكار لصعود موسى إلى جبل سيناء ليأخذ لوحي الشريعة اللذين كتب الرب عليهما الوصايا العشر. وهو صومٌ تطوعي، فوق ما طالبت الشريعة به! وكانت هناك أصوامٌ أخرى، فقد صام بنو إسرائيل يوماً كاملاً مع الصلاة والبكاء، بسبب حزنهم لاضطرارهم للقيام بحرب أهلية (قضاة ٢٠: ٢٦)، وصام دانيال النبي عن الطعام الشهي وعن الاغتسال والادِّهان مدة ثلاثة أسابيع بسبب حزنه وانتظاره لإعلانٍ من الرب (دانيال ١٠: ٣).

لماذا يصوم تلاميذ يوحنا؟

أما تلاميذ يوحنا فكانوا يصومون أصوام الطقس اليهودي. ولما سجن الملك هيرودس معلِّمهم المعمدان حزنوا، فصاموا وصلّوا طالبين أن ينقذ الله معلِّمهم من سجنه.

وسأل المسيح: «أتقدرون أن تجعلوا بني العرس يصومون ما دام العريس معهم؟ ولكن ستأتي أيامٌ حين يُرفَع العريس عنهم، فحينئذ يصومون في تلك الأيام» (لوقا ٥: ٣٤، ٣٥). وفي هذا القول شبَّه المسيحُ يوحنا المعمدان، كما شبَّه نفسه بعريس، وتلاميذهما بأنهم بنو العرس. فلن يصوم بنو العرس والعريس معهم. ولكن يحقّ لتلاميذه أن يصوموا ويصلّوا طالبين نجاته، لأنه كان سجيناً.

ولم يكن اليهود يقيمون مراسيم عبادة في حفلات الزفاف، كما نفعل اليوم، بل كانت وليمة العُرس عندهم هي كل شيء. ففي يوم العُرس يُحضِر العريس عروسه من بيتها إلى بيته في موكبٍ يجتاز كل طرقات القرية، يسمعان منهم كل تمنياتهم لهما بالسعادة، ثم يبدأ العشاء الذي يستمر طول الليل. وبالطبع لن يصوم الناس في يوم العرس.

لماذا لا يصوم تلاميذ المسيح؟

شبّه المسيح ملكوت السماوات بحفل عرس، وشبّه نفسه بالعريس، وشبّه تابعيه بالعروس. وسبب هذا التشبيه أن المسيح العريس هو الرأس المحب، والعائل، ونبع السرور. وأن المؤمنين عروسه لأنهم جسده. ولا يستطيع المؤمنون أن يصوموا ما دام العريس معهم.

كانت حياة المسيح على أرضنا مصدر الأفراح والولائم، فبمناسبة ميلاده، قال ملاك الرب: «أبشّركم بفرحٍ عظيم يكون لجميع الشعب: أنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلّصٌ هو المسيح الرب» (لوقا ٢: ١٠، ١١). ولأول مرة في تاريخ أرضنا، احتشد أكبر تجمُّع للملائكة يسبحون الله ويقولون: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة» (لوقا ٢: ١٤). ودُعي اسمه «يسوع» لأنه يخلّص شعبه من خطاياهم (متى ١: ٢١).

وأفراح خلاصه تبدأ وتستمر، لأنه عمانوئيل «الله معنا» (متى ١: ٢٣). فبعدما تجسَّد المسيح، عمانوئيل، لم تعُد صورة الله عندنا صورة السيد البعيد المتعالي، بل صورة الأب المحب القريب، الذي ندعوه: «يا أبانا الذي في السماوات» (متى ٦: ٩)، والذي ندنو منه لنسمع تطويباته وهو يصف أصحاب السعادة (متى ٥: ١-١٢)، والذي سكن في وسطنا بحسب وعده: «ويكونون لي شعباً، فأسكن في وسطك، يقول الرب» (زكريا ٢: ١٠). وبسكناه وسطنا يرفع المتّضعين، ويخفض المتكبرين، كما قالت العذراء المطوّبة: «أنزل الأعزّاء عن الكراسي، ورفع المتّضعين» (لوقا ١: ٥٢) «فيُعلَن مجد الرب ويراه كل بشر جميعاً» (إشعياء ٤٠: ٤، ٥).. وكل الذين يقبلونه وينالون خلاصه، يُقال لهم: «فتبتهجون بفرح لا يُنطَق به ومجيد» (١بطرس ١: ٨).

متى يصوم تلاميذ المسيح؟

لا بد أن يصوم تلاميذ المسيح يوم صلبه: «ستأتي أيام حين يُرفَع العريس عنهم، فحينئذ يصومون في تلك الأيام» (لوقا ٥: ٣٥). وارتفاع المسيح هو يوم عُلّق على الصليب، فقد قال: «كما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٤، ١٥). وقال أيضاً: «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يوحنا ١٢: ٣٢).

وقد تنبأ المسيح بصلبه قبل حدوثه، فقال لتلاميذه: «ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً ويُرفَض من الشيوخ ورؤساء الكهنة ويُقتَل، وبعد ثلاثة أيام يقوم» (مرقس ٨: ٣١). ثم قال: «ابن الإنسان يُسلَّم إلى أيدي الناس فيقتلونه. وبعد أن يُقتَل يقوم في اليوم الثالث» (مرقس ٩: ٣١) . ثم قال: «ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وابن الإنسان يُسلَّم إلى رؤساء الكهنة والكتبة، فيحكمون عليه بالموت ويسلّمونه إلى الأمم، فيهزأون به ويجلدونه ويتفلون عليه ويقتلونه. وفي اليوم الثالث يقوم» (مرقس ١٠: ٣٣، ٣٤).

ولا شك أن تلاميــذ المســيح صاموا يوم رُفع مصلوباً، فكيف يقدرون أن يأكلوا ومعلّمهم يعاني كل هذه الآلام؟ واليوم يصوم معظم المسيحيين يوم الجمعة العظيمة الذي فيه يذكرون آلام مخلّصهم. ففي يوم الصليب تحقّق قول سمعان الشيخ للعذراء القديسة مريم: «وأنتِ أيضاً يجوز في نفسك سيف» (لوقا ١: ٣٥).

ويــصوم تلاميذ المســيح مشتركين معه في آلامه، فقد وُهب لهم لا أن يؤمنوا به فقط، بل أيضاً أن يتألموا لأجله (فيلبي ١: ٢٩). وعندما يتألمون يصومون في انكسار أمام الله طالبين عونه، وهم يعلمون أن أحزانهم ومتاعبهم مؤقّتة «لأن للحظة غضبه. حياة في رضاه. عند المساء يبيت البكاء، وفي الصباح ترنُّم» (مزمور ٣٠: ٥).

وقد علّمنا المســيح أن نصوم، فقال: «متى صمتم فلا تكونوا عابســين كالمرائين.. وأما أنت فمتى صُمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يُجازيك علانية» (متى ٦: ١٦-١٨). وبالصلاة والصوم نتعلّم أن نتحكم في أجســادنا، فلا تسود علينا، بل نسود نحن عليها، فنكون خداماً أفضل للمسيح.

أولاً - الحاجة إلى خلقٍ جديد

يــتّضح لنا من مثلي الرُّقعة والزِّقاق أن هدف مجيء المســيح إلى العالم لم يكن إصلاح أمر إعادة خلق الإنســـان روحياً وتجديده وتغييره تغييراً كاملاً. ويتّضح لنا أيضاً أن الذي يصبح خليقةً جديدة هو الذي يفتح قلبه للمسيح ولتعليمه.

١ - نحتاج إلى ثوب جديد، لأن الترقيع يؤذي ولا يُصلح:

قـال المسيح عن الرقعة: «ليس أحدٌ يضع رقعةً من ثوبٍ جديد على ثوب عتيق، وإلا فالجديد يشقُّه، والعتيـــق لا توافقه الرُّقعة التي من الجديد.. لأن الملء يأخذ من الثوب فيصير الخرق أردأ» (لوقا ٥: ٣٦ ومتى ٩: ١٦).

نشأ المســيــح في بيئة فقيرة، ولا بد أنه رأى الســيدات الفقيرات يرقّعن الثياب القديمة بقطع قماش جديد، فيزِدْنَ الأمر سوءاً. مع أن الأوجب والأنسب أن يتخلّصن من القديم ويحصلن على الجديد.

والمعنى المقصود من المثَل أننا نحتاج إلى تجديد كامل، وليس إلى ترقيع القديم. خلق الله أبوينا الأولين آدم وحواء في حالة البراءة، ولكنهما عصيــا ربّهما فأفســد العصيــان كل شيء. ولما أخطأ آدم أخطأت ذريته، وســقطت، وصار بعضهم لبعضٍ عدو، فقتل الأخ أخاه! فســدت طبيعتنا ففسدت أعمالنا، وصارت نفوسنا أمّارة بالسوء، وصرنا بالطبيعة أبناء الغضب. عتق ثوبنا، الذي هو كناية عن برّ الإنسان وصلاحه، وصار مهلهلاً لا يســتر لابسه، ولهذا لا يرضى الخاطئ بحاله أبداً، ويجد نفسه عاجزاً عن إصلاح نفسه بنفســه. لقد حاول أبوانا الأولان عبثاً أن يســترا نفســيهما بأوراق الشجر، لأن الأرضي مؤقّت وزائل،

ولا يـمكنه أن يُـصلح الدائم الذي جهّزه الله للحيـاة الأبدية.. وكان ما فعله آدم وحواء بأوراق الشجر محاولة ترقيع الثوب القديم بقماش جديد لا يناسـبه ولا يساعده. فالترقيع هو محاولة الإنسان العاري أن يـستر نفسـه بمحاولة ذاتية لإصلاحها بالتوقُّف عن خطية معينة، يتبعها الامتناع عن خطية أخرى.. أعـرف شخصاً جرح إصبعه، وكتب تعهُّداً على نفسه بإصلاح أموره، ولكنه عاد إلى سابق عهده، لأنه اعتمد على قوة إرادته وحدها، ولم يـأخذ من المسـيـح قلباً جديداً.. وهناك من يجتهدون لأداء أعمال صالحة بمجهودهم الذاتي، ظانين أن كفّة حسـناتهم الكثيرة تزيل تأثير سيئاتهم، كما أن هناك من يطلب من المسيح أن يُجري بعض التحسينات فيهم، بينما كان الواجب أن يطلبوا منه تغييراً كاملاً، لأن حاجتنا هي إلى تجديـد كامل. وهذا ما لا يـفعله لنا إلا المسـيح، آدم الثاني، الذي لا يُرقّع الطبيعة القديمة بل يمنحنا طبيعة جديدة.

٢ - نحتاج إلى زقاق جديد لأن الزقاق القديم لا يقدر أن يستقبل الجديد:

«لـيس أحد يجعل خمراً جديدة في زقاق عتيقة، لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق، فهي تهرق والزقاق تتلف. بل يـجعلون خمراً جديـدة في زقاق جديـدة، فتحفَظ جميـعاً» (لوقا ٥: ٣٧، ٣٨). كان اليهود يـحتفظون بالخمر في أزقّة تُصنع من جلود الجداء أو الحملان. فبعد ذبح الحيـوان يعملون فتحة عند الرقبة، ينفخون فيها ليسـلخوا الجلد، ثم يربطون مواضع الأرجل الأربعة، فيُصبح الجلد زقاقاً يضعون الخمر فيه. وكانوا يضعون الخمر الجديدة في زقاق جديدة، لأن الزقاق الجديدة تحتمل تمدُّد الخمر الناتج عن تخمُّرها، ويمتد عمرها إلى الوقت الذي تحتاجه الخمر لتتعتّق.

والمعنى المقصود أن قلب المؤمن المتجدّد يـحوي معرفة المسـيح الجديدة، التي تنمو وتزيد داخله. وكلما عرف نعمة الله يشتاق أن يعرفها أكثر، فينمو في النعمة (٢بطرس ٣: ١٨).

الزقاق إذاً هي الشكل والقالب، والخمر هي الروح والقلب. وكما أن الخمر الجديدة تتمدّد فتحتاج إلى زقاق جديـدة تتفاعل معها، هكذا روح المسـيـح فينا يوسّـع قلوبنا، ويعطينا حرية أكثر ومحبة أعمق للآخريـن. وكل من يملأه روح المسـيح لا يمكن أن يبقى في القالب القديم المتحجّر الذي لا ينمو ولا يـمتد، لأن الحب دائماً يجعل صاحبه يمتد إلى خارج نفسه ليخدم كل من يحتاجون إلى خدمته، مهما كان لونهم أو ديـنهم. كما أن الحياة الجديدة التي ننالها من المسـيح تعطينا امتلاءً وغيرة لنوصّل رسـالة الخلاص إلى غيرنا، فنكون للمسـيح شهوداً «في أورشليم واليهودية والسـامرة وإلى أقصى الأرض» (أعمال ١: ٨). ونجدّد عهودنا مع الله باسـتمرار طاعةً للوصية الرسولية: «تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهـانكم، لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة المرضيّة الكاملة» (رومية ١٢: ٢). ونخلع الإنسان العتيق الفاسـد، ونتجدّد دوماً بروح ذهننا، ونلبس الإنسـان الجديد المخلوق بحسـب الله في البر وقداسة الحق (أفسس ٤: ٢٢-٢٤ وكولوسي ٣: ١٠).

ثانياً - الحاجة إلى تعليم جديد

جـاء المسيح بتعليم جديد يُشبع القلب الجديد. وقد لاحظ الناس أنه يعلِّم تعليماً جديداً تؤيده المعجزات، فعندما شفى رجلاً تسـكنه الأرواح الشريرة وقف الناس مذهولين يتسـاءلون: «ما هذا التعليم الجديد؟» (مـرقس ١: ٢٧).. وعندما شفى مريضاً بالفالج (الشلل) قال له: «يا بنيَّ، مغفورة لك خطاياك» (مرقس ٢: ٥) ثم أمره أن يـقوم ويحمل فراشه، فبهت الحاضرون وقالوا: «ما رأينا مثل هذا قط» (مرقس ٢: ١٢)، لأنهم لم يسـبق لهم أن سمعوا أو رأوا شيئاً مثل هذا من قبل. ولا زال تعليم المسيح باقياً شامخاً يعلو على كل تعليم، لأنه تعليم المحبة أم الفضائل.

وأذكر ثلاثة تعاليم جديدة جاءنا بها المسيح:

١ - تعليم جديد عن أبوَّة الله:

علَّمنا المسيح أن الله أبٌ محب وأنه قريبٌ منا، وقال: «صلّوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات..» (متى ٦: ٩-١٣). عندما نزلت شريعة موسـى نزلت على جبل مضطرم بالنار، وسط ضباب وظلام وزوبعة وهتاف بوق، حتى اسـتعفى السـامعون من أن تزاد لهم كلمة، وكان المنظر مخيـفاً حتى قال موسـى: «أنا مرتعب ومرتعد» (عبرانيين ١٢: ١٨-٢١). أما شريعة المسـيح فقد جاءت لسـامعيها بالفرح، فقد جلس المسـيـح ودنا إليه تلاميذه فأخذ يعلِّمهم مبادئ ملكوته مبتدئاً بالقول «طوبى» بمعنى: ياالسعادة! (متى ٥: ١-٣). ولما كان الله أبانا، فإن قوته تعمل في خدمة محبته. وقد كلَّمنا الله في المسيح كلمته المتجسـد، الذي عاش بيننا، وكان يأكل ويشرب مع العشارين والخطاة، ودعا نفسه إلى بيت زكا العشار الخاطئ وقضى يوماً في بيته، فكشف لنا وجه الله المحب (لوقا ١٩: ٥).

٢ - تعليم جديد عن شريعة المحبة:

حين سـُئل المسيح: «أية وصية هي العظمى في الناموس؟» أجاب: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسـك ومن كل فكرك.. والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبيـاء» (متى ٢٢: ٣٦-٤٠). وشريعة المحبة تمنح حريةً «لأنه هكذا أحبَّ الله العالم حتى بذل ابنه الوحيـد، لكي لا يـهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦). وهو تعليم يسمو على شريعة موسى وفروضها الثقيلة، التي قال عنها الرسول بطرس إنها: «نير على عنق التلاميذ لم يسـتطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (أعمال ١٥: ١٠). وهكذا توقَّفت شريعة الطهارة الطقسـيَّة، من غسـل الجسد والملابس والأواني، وبدأ تطبيق التعليم عن طهارة القلب التي تؤهِّل صاحبها لمعاينة وجه الله (متى ٥: ٨)، وجاء الجديـد بدل القديم، فتعلَّمنا أن ملكوت الله ليس أكلاً وشرباً، بل هو بر وسـلام وفرح في الروح القدس (رومية ١٤: ١٧).

ويسمو ناموس المحبة على كل ناموس، لأن المحبة تكميل الناموس (رومية ١٣: ١٠)، وهي أعظم من كل شريعة لأنها تجعل الواجب محبباً إلى نفوسنا. في العهد القديم يدعونا الناموس عبيداً، أما العهد الجديد فيدعونا «أبناء» و«أحباء» لأن الله أنعم علينا بالتبني، فقد قال المسيح: «لا أعود أسمّيكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. لكني قد سمّيتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يوحنا ١٥: ١٥).. ومع أن الله يعتبرنا أبناء، إلا أننا نفتخر بأننا عبيده، نستعبد أنفسنا له بكل رغبتنا، لأننا محتاجون إلى ربوبيته. وهذه العبودية الاختيارية هي التي تحررنا. فعندما نسلم سلاحنا له ونخضع أمامه ننال منه الانتصار.

٣ - تعليم جديد عن الخلاص:

تكلم الله في العهد القديم بالرموز التي تشير للمسيح، أما في العهد الجديد فقد تحقّقت هذه الرموز.. أشارت ذبائح العهد القديم إلى حمل الله الوحيد الذي يرفع خطية العالم (يوحنا ١: ٢٩)، وكان الختان علامةً في الجسد رمزاً إلى المعمودية التي تعبِّر عن الغسل والتنقية، وكانت وليمة الفصح احتفالاً بالنجاة السياسية والاقتصادية رمزاً لوليمة العشاء الرباني التي تعبِّر عن الحرية الروحية، وكان البخور في الهيكل رمزاً للصلاة التي قال المسيح عنها: «ينبغي أن يُصلَّى في كل حين ولا يُمل» (لوقا ١٨: ١).

وجاءنا المسيح بطريق جديد للخلاص، لا بالطقوس والأعمال، لكن «بالنعمة أنتم مُخلَّصون» (أفسس ٢: ٥) فقد ظهرت نعمة الله المخلِّصة الساترة لخطايانا. وليست النعمة مثل الشريعة، فالشريعة كالمسطرة التي تُظهِر عوجنا ونقصنا، ولكنها لا تساعدنا على إصلاح العوج وتكميل النقص. أما النعمة فيقول صاحبها: «إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كورنثوس ٥: ١٧).

وختم المسيح مثَل الزِّقاق بقوله: «ليس أحدٌ إذا شرب العتيق يريد للوقت الجديد، لأنه يقول: العتيق أطيب» (آية ٣٩). وهو قولٌ يصف ردَّ فعل من يستمع إلى تعليم جديد، فإنه لأول وهلة يقول إن العتيق الذي اعتاده أفضل. فعندما تُعرَض الديانة الروحية على إنسان يعتنق ديانةً طقسية يقف أمام هذا العرض موقف المتردد، لأنه مستريح إلى القديم الذي عاش فيه. ولكن عندما ينير روح الله قلبه فإنه ينفتح لكلمة الوحي المقدس. وهذا ما حدث مع شاول الطرسوسي الذي كان يهودياً متعصِّباً، ولكن عندما ظهر الله له بنور يفوق نور النهار، قال: «ماذا تريد يا رب أن أفعل؟» (أعمال ٩: ٦)، فغيَّر الله حياته وجعل منه بولس الرسول.

ثالثاً - جاء المسيح بالخلق والتعليم الجديدين

كان اليهود يحلمون بالجديد، فكانوا يطلبون اسماً جديداً، كما قيل: «تُسمَّيْنَ باسم جديد يعيِّنه فم الرب» (إشعياء ٦٢: ٢) والاسم الجديد يعني شخصية جديدة وإنساناً جديداً، لأن المؤمنين يصيرون

«مولوديـــن ثانيـــةً لا من زرع يـــفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد» (١بطرس ١: ٢٣).. وكانوا يـــريـــدون قلباً جديـــداً، طاعةً للأمر: «اطرحوا عنكم كل معاصيـــكم التي عصيتم بها، واعملوا لأنفســـكم قلباً جديداً وروحاً جديداً» (حزقيال ١٨: ٣١). وبتعليم المســـيح الجديد وخلقه الجديد يصير المؤمنون «رســـالة المسيح.. مكتوبة لا بحبر، بل بروح الله الحي. لا في ألواح حجرية، بل في ألواح قلب لحميـــة» (٢كورنثوس ٣: ٣).. وعندما يتغيَّر القلب وتتغير الشخصية يرنمون للرب ترنيمة جديدة ويقولون: «جعل في فمي ترنيمة جديدة، تسبيحة لإلهنا» (مزمور ٤٠: ٣).

وقـــد نتساءل: من أين لنا هذا الجديد؟ وكيف ندفع تكلفة الحصول عليه؟ ربما نظن أن الأسهل هو أن نرقِّع القديم. لكن الرب الصالح يقدم لنا الجديد الذي دفع هو كل تكلفته. فما أجمل أن نسمع سؤال إسحاق وهـــو يسير مع أبيه إبراهيم: «هوذا النار والحطب، ولكن أين الخروف للمحرقة؟» فيجيبه أب المؤمنين: «الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني» (تكوين ٢٢: ٧، ٨). ويكشف الله عن عيني إبراهيم فيرى كبشاً وراءه مُمســـكاً في الغابة بقرنيه، يفدي به ابنه، ويدعو اســـم المكان «يهوه يرأه» بمعنى أن الرب يرى ويدبِّر.

لا تحاول أن تصلح نفســـك بنفســـك، فالمحاولة فاشلة كما فشلت محاولة أبويـــنا الأوَّلين أن يســـترا نفسيهما. لكن تعال إلى المسيح ليخلق منك إنساناً جديداً ويمتعك بحياة جديدة.

سؤالان

١ - ما هو التعليم الجديد الذي جاء به المسيح عن الله، وما هو الفرق بينه وبين التعليم القديم؟

٢ - لماذا تفشل المجهودات الذاتية في تغيير الحياة؟ وما هو الطريق الصحيح للتغيير؟

(ب) الملكوت تعليم جديد

مَثَل الكاتب المتعلِّم

فَقَالَ لَهُمْ (المسيح): مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كُلُّ كَاتِبٍ مُتَعَلِّمٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلاً رَبَّ بَيْتٍ، يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُداً وَعُتَقَاءَ (متى ١٣: ٥٢).

لا يمكن أن نكون أعضاء في ملكوت الله إلا إن صرنا خليقة جديدة، وهذا ما يسمّيه المسيح «ولادة من فوق» (يوحنا ٣: ٣، ٧) و«ولادة من الماء والروح» (يوحنا ٣: ٥). ويحتاج المؤمنون الجدد إلى معلِّمين من نوع خاص، يكونون قد صاروا أعضاء في ملكوت الله بالولادة من فوق، ويكونون قد سمعوا دعوة الله لهم ليقدموا خدمتهم لغيرهم من المؤمنين، ويكون كل واحد منهم كاتباً متعلماً في ملكوت السموات، يشبه رجلاً رب بيت، يُخرج من كنزه جدداً وعتقاء.

الكاتب المتعلم هو الذي يتعلّم أولاً في ملكوت الله، ثم يعلّم الآخرين ما تعلّمه عن ملكوت الله، كما قال النبي: «أعطاني السيد الرب لسان المتعلمين لأعرف أن أغيث المعيي بكلمة.. يوقظ لي أذناً لأسمع كالمتعلمين» (إشعياء ٥٠: ٤)، فهو يصغي بأذن وقلب مفتوحين لله، فيأخذ منه ما يُغيث به المعيي.

أولاً - صفات الكاتب المتعلم

١ - هو كاتب:

(أ) كانت وظيفة الكاتب بالغة الاحترام، لأنه ينسخ التوراة بيده. تصوَّر أنك تكتب الكتاب المقدس بيدك كلمة كلمة.. لا بد أنه يملأ عقلك، ويفيض القلب بما امتلأ به العقل، فتحكم الأفكار الإلهية سلوكك لأنها تصبح غذاء فكرك. ويتحقَّق فيك الوصف: «في ناموس الرب مسرته، وفي ناموسه يلهج نهاراً وليلاً» (مزمور ١: ٢). وكلمة «يلهج» في اللغة العبرية تعني «يجتر». فالكاتب المتعلم يلتهم كلمة الله بسرعة، ثم يبدأ في التأمل فيها، فيسترجعها ويُمعن التفكير فيها من جديد ليستفيد منها أكثر.

(ب) وكانت وظيفة الكاتب أيضاً أن يشرح كلمة الله للشعب. لقد عرفها وكتبها وانطبعت على عقله وقلبه، فيقدّمها لغيره، لأنه يشعر بعظيم فائدتها، ويدرك أهمية المسؤولية التي وضعها الله عليه، لأن الوحي يقول: «اكرز بالكلمة. اعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب» (٢تيموثاوس ٤: ٢).

(ج) وكان الكاتب المتعلم عادة يقدّم صيغة مختصرة للشريعة، وهذا يعني أنه يجب أن يكون قد درسها وعرفها بعمق يسمح له أن يقدمها مختصرةً وبوضوح في كلمات قليلة. وقد اعتاد الناس أن يسألوا الكاتب المتعلم عن صيغته المختصرة للشريعة، فجاء مرة ناموسيٌّ (أي معلم للشريعة) إلى المسيح يسأله عن الوصية الأولى والعظمى، وكأنه يطلب ملخصاً للشرائع من المسيح، فأجابه: «أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك

ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى. وثانية مثلها هي: تحب قريبك كنفسك. ليس وصية أخرى أعظم من هاتين» (مرقس ١٢: ٢٨-٣١).

وقد كان الرسول بولس كاتباً متعلماً في ملكوت السماوات، وأراد لتلميذه تيموثاوس أن يكون كذلك، فقال له: «إلى أن أجيء أعكف على القراءة (تلاوة كلمة الله في اجتماعات الكنيسة)، والوعظ (حثّ الناس على تطبيق ما سمعوه)، والتعليم (شرح العقيدة والدفاع عنها).. لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك، لأنك إن فعلت هذا تخلِّص نفسك والذين يسمعونك أيضاً» (١تيموثاوس ٤: ١٣، ١٦).

٢ - هو عضو في ملكوت الله:

يصبح الكاتب المتعلم من أبناء الملكوت السماوات عندما يولد من الروح القدس، فيصير الله ملكاً على حياته وسيداً لتصرُّفاته، لأن دستور الملكوت يحكمه، فيطبِّق في حياته اليومية ما يقرأه وما يعلِّمه للآخرين.

وعضوية هذا الكاتب المتعلم في ملكوت الله تجعله وديعاً، يجلس عند قدمي سيده ليتعلَّم منه ما يعلِّمه للآخرين، مثل مريم التي جلست عند قدمي المسيح تسمع كلامه (لوقا ١٠: ٣٩)، وهو يصلي بتواضع: «طرقك يا رب عرِّفني، سبلك علِّمني. دربني في حقك وعلِّمني، لأنك أنت إله خلاصي» (مزمور ٢٥: ٤، ٥) فيجيبه الرب: «أنا أكون مع فمك وأعلِّمك ما تتكلم به» (خروج ٤: ١٢).

وهناك معلمون لم يختبروا الولادة الثانية، تمتلئ عقولهم بالمعرفة دون أن تختبرها قلوبهم. ولكن الكاتب الذي نحتاجه هو الذي يعرف بعقله والذي اختبر بقلبه، فيستطيع أن يُشبع الآخرين مما شبع هو به. لقد عرف طريق الشبع السماوي، فيرشد الآخرين إلى طريق الشبع.

والكاتب المتعلم المولود من الله يتحدث حديث الاختبار الذي يختلف جداً عن حديث صاحب المعرفة الفلسفية العقلية. والكلمة «حكمة» في اللغة العبرية تعني تطبيق ما نعرفه، فإن «رأس الحكمة مخافة الله» (مزمور ١١١: ١٠). أما كلمة «حكمة» في اليونانية فتعني المعرفة المجرَّدة. وقد نادى المسيح بضرورة المعرفة التي تتحوَّل سلوكاً وتطبيقاً عندما قال في يوحنا ٧: ٣٧ «إن عطش أحد فليُقبل إليَّ ويشرب» وأتبع هذا بالقول: «من آمن كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي» (آية ٣٨).

فإن كل من ارتوى من ماء الحياة يستطيع أن يروي الآخرين مما رواه الله به، ويقدر أن يشبعهم بالغذاء الروحي الذي شبع هو به.

٣ - هو رب بيت:

(أ) **يشعر الكاتب المتعلم بمسؤوليته من نحو الذين كلَّفه الله برعايتهم،** لأنه رب البيت المسؤول بعائلته. ولما كان قلبه متَّسعاً عامراً بالمحبة لله والناس، فإنه يعتبر أفراد مجتمعه أعضاء في عائلته الكبيرة، فيعاملهم كما يعامل أهل بيته، ويوجِّههم بالمحبة كما يوجِّه أفراد عائلته. بل إنه يقدِّم أولاده الروحيين على نفسه، ويرعى رعية الله، كما أوصى الرسول بولس قسوس كنيسة أفسس: «احترزوا إذاً

لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أعمال ٢٠: ٢٨). وكلمة «أسقف» تعني ناظر أو مشرف، يفتقد ويرعى الجميع.

(ب) ورب البيت مسؤول عن إعالة أسرته ومدّها بالطعام المغذي، ومنع ما يضرها ويؤذيها. والكاتب المتعلم كربِّ بيت يهتم بإطعام عائلته الطعام الباقي للحياة الأبدية، ويحرص على صحتهم الروحية بإبعاد كل تعليم زائف عنهم.

(ج) **ورب البيت يلد نفوساً للرب**، كما قال الرسول بولس عن أُنسيمُس: «الذي ولدتُه في قيودي» (فليمون ١٠). وكان أنسيمس عبداً سرق بيت سيده في كولوسي، وهرب إلى العاصمة روما، وهناك سمع رسالة الرب من الرسول بولس، فتاب وصلُح حاله وصار مثل اسمه (أنسيمس يعني «نافع»). وكل كاتب متعلم يربح الناس للمسيح طاعةً للدعوة الإلهية: «هلمَّ ورائي فأجعلكما تصيران صيادي الناس» (مرقس ١: ١٧).

عندما سلَّم دوايت مودي حياته للرب كان يعمل بائعاً في محل أحذية، فأصبح واعظاً باركه الرب، وقطع عهداً على نفسه أمام الله ألا تمضي عليه ليلة دون أن يكون قد كلَّم شخصاً عن المسيح. وذات ليلة كان متعباً جداً، فذهب لينام. ولكنه تذكر أنه لم يكلم أحداً في ذلك اليوم عن المسيح، فارتدى ثيابه ونزل إلى الشارع، فوجد سكيراً دعاه للتوبة، فصاح السكران: «ليس هذا شغلك!» فأجابه: «بل هو شغلي!» فقال السكران: «إذاً لا بد أن تكون أنت مودي»! لقد كان مودي كاتباً متعلِّماً، رب بيت كبير، يقود البعيدين إلى الحياة القريبة من الرب. وكان جون وسلي قد عبَّر عن هذا بقوله: «كل العالم أبروشيتي» لأنه شعر أن العالم كله هو مسؤوليته.

ثانياً - عمل الكاتب المتعلم

١ - اقتنى كنزاً:

المؤمنون أوانٍ خزفية بسيطة صنعها الفخاري الأعظم، لكنه وضع داخلها كنزاً ثميناً (٢كورنثوس ٤: ٧) يُخرج منه الكاتب المتعلم جُدداً وعُتقاء، لأن الكنز أصبح ملكه، وصار هو مسؤولاً عنه. وهذا ينطبق على كل كنز روحي وجسدي ومادي أنعم الرب علينا به، فقد أعطاه لنا وجعلنا وكلاء عليه لنستخدمه في خدمته.

(أ) **كنز الكاتب المتعلم هو كلمة الله**: وهي أشهى من الذهب والإبريز الكثير (مزمور ١٩: ١٠)، وهي كنز لأنها تجيب على أسئلة الحياة الأساسية التي لا نجد لها إجابات إلا فيها، ومنها: كيف أحصل على غفران خطاياي، وكيف أتأكد أنها غُفرت؟ كيف أنال الحياة الأبدية، وكيف أضمنها لنفسي؟ كيف تستجاب صلاتي؟ وغيرها من الأسئلة.. فكلمة الله تؤكد للتائب خلاصه وحياته الأبدية في المسيح

الذي ســدَّد ديون اللاجئين إليه فلا تُحســب عليهم. ولا يمكن أن يتقاضى الله أجرة الخطية من المسيح، وفي نفس الوقت يتقاضاها من الخاطئ الذي احتمى بفداء المسيح. فإن كنا قد احتمينا بكفارة المسيح فإنه يــطهِّرنا ويســتر خطايانا قائلاً: «إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضُّ كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصيــر كالصوف» (إشعيــاء ١: ١٨). «يعود يرحمنا، يدوس آثامنا، وتُطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (ميخا ٧: ١٩). ولما كان الله قد غفر لنا، يجب علينا أن نغفر لأنفسنا ولغيرنا.

(ب) **كنز الكاتب المتعلم هو اختباره:** تحوي الكلمة المقدســة حقائق تُترجم واقعاً حيــاتياً، وتحوي مواعيد ســماوية تتحقق حرفياً. والكاتب المتعلم الذي حصل على كنز الكلمة الإلهية يحصل أيضاً على اختبارات يــوميــة. لقد عرف النبي داود الكثير عن الله من وحي الله له، ولكنه أيضاً اختبر صلاح الله معه، فقال: «الرب راعيَّ فلا يــعوزني شيء» (مزمور ٢٣: ١).. واســتمع الرســول بطرس لتعاليم المسيح، ومنها قوله: «إن لحماً ودماً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السماوات» (متى ١٦: ١٧)، ولكنه اختبر اختبارات عظيــمة، منها أنه كان على جبل التجلي، عندما التقى النبيان موسى وإيليا بالســيد الــمسيح، وتحدثوا عن صلبه، وسمعوا صوت الآب من المجد الأسنى قائلاً: «هذا هو ابني الحبيب الذي أنــا سُررت به». وقال عن هذا: «كنا معه في الجبل المقدس، وعندنا الكلمة النبوية، وهي أثبت» (راجع ٢بطرس ١: ١٦-١٩).

(ج) **الكاتب المتعلم حصل على كنزه ليوزِّعه:** لم يعطنا الله كنز نوره الســماوي لنخبئه تحت سرير الكســل، ولا تحت مشغوليات العمل. «هل يُؤتى بسراج ليوضع تحت المكيال، أو تحت السرير؟ أليس ليوضع على المنارة؟» (مرقس ٤: ٢١). «لا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة، فيــضيء لجميع الذين في البيت. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحســنة ويمجدوا أبــاكم الذي في السماوات» (متى ٥: ١٥، ١٦). فالكاتب المتعلم يضيء على الآخرين بالنور الذي منحه الله له، ويــشارك غيره في ما منحه الله له من معرفة وبركة. والمعروف أن كل ما نوزِّعه على غيرنا يــنقص، إلا شيــئان، هما المحبة والإيمان، فكلما شاركنا غيرنا في محبتنا وإيماننا زادا عندنا. والكاتب المتعلم يــحب الناس، ويــريــد أن يختطف نفوس الخطاة من النار (يهوذا ٢٣)، ولهذا فهو يشرح لهم إيمانه، ويوضح مباهج غفران الخطية لكل من يقابله.

هــذا الكاتب الذي يملك الكنز لا يبخل بتقديم معونة لمن يحتاج إلى عون، أو نصيحة لمن يحتاج إلى نُصح. إنه يــشارك الرســول بولس قوله: «إذ الضرورة موضوعة عليَّ فويــلٌ لي إن كنتُ لا أبشِّر» (١كورنثوس ٩: ١٦)، وقال أيضاً لقســوس كنيســة أفســس: «لم أؤخِّر شيئاً من الفوائد إلا وأخبرتُكم وعلَّمتُكم به جهراً وفي كل بيــت، شاهداً لليهود واليونانيين بالتوبة إلى الله والإيمان الذي بربنا يســوع المسيح» (أعمال ٢٠: ٢٠، ٢١).

٢ - الكاتب المتعلم يملك جدداً وعتقاء:

أذكر ثلاثة معانٍ للتعبير «جدد وعُتقاء»:

(أ) هما العهدان القديـم والجديد: وكلاهما يشهدان للعناية الإلهية، فالقديم يروي كيف شقّ الله بقوته ومحبته مياه البحر الأحمر ليعبر العبيد الأذلاء على اليابسة، الأمر الذي لما شرع فيه الظالمون غرقوا! وفي مدة أربعين سـنة أطعم المستضعفين في الأرض بالمن والسلوى، ورواهم بماء من الصخر، وقال لهم: «سِرْتُ بكم أربعين سنة في البرية، لم تبلَ ثيابكم عليكم، ونعلك لم تبلَ على رجليك» (تثنية ٢٩: ٥). وفي العهد الجديد نقرأ عن معجزات المسـيح في إسكات العاصفة، وإطعام خمسة آلاف من خمس خبزات وسمكتين (مرقس ٤: ٣٥-٤١ و٦: ٣٨-٤٤).

ويحكي العهدان عن الفداء الإلهي، ففي العهد القديم نقرأ عن سـتر آدم وحواء بأقمصة من جلد من ذبيحة حيوانية (تكوين ٣: ٢١)، وفي العهد الجديد نقرأ عن السـتر بدم المسيح (عبرانيين ٩: ١٢). في القديـم نقرأ عن وليمة الفصح تذكاراً لنجاة الأبكار من الموت (خروج ١٢: ١٣)، وفي الجديد نقرأ عن وليمة العشاء الرباني تذكاراً لنجاة كل من يؤمن بالمسـيح الفادي من لعنة الخطية (لوقا ٢٢: ١٩). في القديم قدّم الله الشريعة، وفي الجديد قدّم النعمة «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يوحنا ١: ١٧).

(ب) هما الاختبارات الجديدة والقديمة: عند الكاتب المتعلم معلومة قديمة، يضيف إليها كل يوم شيئاً جديـداً، فيكون عنده دائماً كنز جديد مع مخزون الاختبارات القديمة، فيرنم ترنيمة جديدة بالإضافة إلى الترنيمة القديمة! ولذلك قال الرسـول بولس لتلميذه تيموثاوس: «أتذكّر الإيمان العديم الرياء الذي فيك، الذي سـكن أولاً في جدّتك لوئيس وأمك أفنيكي، ولكني موقن أنه فيك أيضاً. فلهذا السـبب أذكّرك أن تضرم أيـضاً موهبة الله التي فيـك بوضع يديّ، لأن الله لم يعطنا روح الفشل، بل روح القوة والمحبة والنصح» (٢تيموثاوس ١: ٥-٧).

وفي كل يوم يختبر المؤمن اختبارات جديدة مع الرب يضيفها إلى ما سـبق أن اختبره، فلنردّد مع النبي إرميـا قوله: «لأن مراحمه لا تزول. هي جديدة في كل صباح. كثيرة أمانتك. نصيبي هو الرب قالت نفسي، من أجل ذلك أرجوه. طيبٌ هو الرب للذين يترجونه، للنفس التي تطلبه» (مراثي ٣: ٢٢-٢٥). ووجود الله معنا كل يوم يضمن لنا اختبارات متجدّدة. وحتى لو اسـتهلكت مصاعب الحياة بعض قوتنا الروحية، فإن الرب يمنحنا قوة روحية جديدة كل يوم، ويُلبسـنا سلاحه الكامل فنقدر أن نثبت ضد مكايد إبليس (أفسس ٦: ١١).

(ج) هما المعرفة والتطبيق: فالمعرفة هي المعلومة التي تعلمناها، والتطبيق هو ممارسـة المعلومة الموجودة عندنا. نحن نعلم أن يسـوع مات، ودُفن، وقام هازماً الموت، وهذه حقيقة تاريخية، ولكنها في

الوقت نفســه اختبار معاصر، لأننا نقول: «مع المســيــح صُلبتُ، فأحيا لا أنا، بل المســيح يحيا فيَّ» (غلاطيــة ٢: ٢٠). وانتصار المســيح هو انتصار المؤمنين به، فيقولون: «ابتُلع الموت إلى غلبة. أين شــوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟.. شكراً لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح» (اكورنثوس ١٥: ٥٥-٥٧). القديــم إذاً هو معرفة التاريــخ، والجديــد هو الاختبار المعاصر في الحيـــاة اليومية الحاضرة.

دعــونا ندعو الله الذي جعلنا خليقة جديدة في المسيح، وعمَّر قلوبنا بتعليمه الجديد، أن يجعل من كلٍّ منا كاتباً متعلماً في ملكوته، يُخرج من كنزه جدداً وعتقاء، لشبع نفسه، وشبع كل المحيطين به.

سؤالان

١ - ما هي البركة التي يأخذها الكاتب وهو ينســخ كلمة الله؟ وما هي البركة التي ينالها السامعون وهو يفسِّرها لهم؟

٢ - اذكر باختصار ثلاثة معانٍ للجدد والعتقاء.

(ج) دعوتان واستجابتان

مَثَل الأولاد الذين يلعبون في السوق

ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ: فَبِمَنْ أُشَبِّهُ أُنَاسَ هَذَا الْجِيلِ، وَمَاذَا يُشْبِهُونَ؟ يُشْبِهُونَ أَوْلاَداً جَالِسِينَ فِي السُّوقِ يُنَادُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَيَقُولُونَ: زَمَّرْنَا لَكُمْ فَلَمْ تَرْقُصُوا. نُحْنَا لَكُمْ فَلَمْ تَبْكُوا. لأَنَّهُ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ لاَ يَأْكُلُ خُبْزاً وَلاَ يَشْرَبُ خَمْراً فَتَقُولُونَ: بِهِ شَيْطَانٌ! جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فَتَقُولُونَ: هُوَذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ! وَالْحِكْمَةُ تَبَرَّرَتْ مِنْ جَمِيعِ بَنِيهَا (لوقا ٧: ٣١-٣٥).

(ورد المثل أيضاً في متى ١١: ١٦-١٩)

رأيـنا في مثلي الرقعة والزقاق أن ملكوت الله حيـاة جديدة، ورأينا في مثل الكاتب المتعلم أن الذي يقوم بالتعليم في الملكوت معلم يقدّم التعليم الجديد، ويعلن الله من خلاله رسـالة حبه لكل الناس بمختلف خلفياتهم، ويتواصل معهم بواسـطة هذا المعلم، ويستخدم كل وسيلة لتحريك مشاعرهم وأشواقهم نحوه. وهذا المعلم كارز يدعو الجميع للتوبة بأساليب متنوعة.

ويعلّمنا مثَل «الأولاد الذين يلعبون في السـوق» أن هناك دعوة موجّهة دائماً لكل الناس من كل نوع وبكل أسـلوب، فقد كلّم الله الآباء بالأنبيـاء بأنواع وطرق كثيرة (عبرانيين ١: ١). كما يعلمنا المثل أن بعض الناس يقبلون التعليم الجديد والبعض الآخر يرفضونه، بغضّ النظر عن أسـلوبه. والذين يخافون الله ويقبلون تعليمه الحكيم يدافعون عن هذا التعليم ويبرّرونه أمام العالم بكلامهم وأفعالهم.

وصف المسيح في هذا المثل أولاداً خرجوا ليلعبوا في ساحة القرية الكبرى. وكان القرويون يستخدمون السـاحة في الصباح الباكر سـوقاً يبيعون فيه ما يسـتغنون عنه، ويشترون فيه ما يحتاجون إليه. وكانت السـاحة تخلو من الباعة والمشتريـن وقت الظهر تقريباً، فيتجمّع الأولاد ليلعبوا فيها. ويقول هذا المثل إن الأولاد الذيـن خرجوا ليلعبوا انقسـموا إلى فريقين، ووقفوا صفّين متقابلين، فاختار أحد الفريقين أن يلعبوا لـعبة «وليمة العُرس»، فزمّروا لزملائهم ليبدأوا اللعبة بالرقص، ولكن الفريق الآخر لم يتجاوب، وقالوا إن مزاجهم ليس مزاج فرح وسعادة، ورفضوا أن يرقصوا.. فقرّر أفراد الفريق الأول أن يلعبوا لعبة الجنازة وبدأوا يـنوحون، ولكن الفريق الآخر عاد ورفض الاشتراك في اللعب بحُجّة أنهم ليس بهم رغبة في هذه اللعبة أيـضاً، ورفضوا أن يـبكوا أو أن يـلطموا.. ويتّضح من المثّل أن الفريق الثاني غير متعاون، بل رافض لكل نداء يُوجَّه إليهم مهما كان موضوعه، ولا يستجيبون لأية دعوة مهما كان نوعها.

وقصد المسـيح بهذا المثل أن أناس جيله سمعوا دعوةً للتوبة من يوحنا المعمدان تنذرهم وتحذّرهم، فلم يـنتبهوا إليها، ولم يؤمنوا بها، وانتهى الأمر بالمعمدان إلى السـجن في قلعة مدينة «مخيروس» ثم قُطعت رأسـه (متى ١٤: ١٠). وجاءتهم دعوةٌ ثانية من المسيح فيها ترغيب وتشجيع وتشويق، فرفضوها، وانتهى الأمـر بالمسيح إلى الصليب، الذي تبعته القيامة فالصعود إلى السماء، ومنها ننتظر عودته ثانيةً. والدعوتان مختلفتان في أسـلوبهما، متّفقتان في موضوعهما. وكان يجب أن أناس جيله يسـتجيبون لإحدى الوسيلتين الكرازيتين، فيتوبون ويرجعون إلى الله، ولكن كثيرين منهم رفضوا.

أولاً - دعوتان

هناك أوجه شبه كثيرة بين المسيح والمعمدان، منها صلة القرابة الجسدية، فقد قال الملاك جبرائيل للعذراء مريم وهو يبشّرها بالحبل بالمسيح: «هوذا أليصابات نسيبتك هي أيضاً حبلى بابنٍ في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوَّة عاقراً» (لوقا ١: ٣٦). وقد طلب المسيح من المعمدان أن يعمِّده ليكمل كل بر (متى ٣: ١٣-١٥). وشهد يوحنا للمسيح أنه المخلِّص الآتي إلى العالم، وأنه «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا ١: ٢٩). وقال المعمدان عن المسيح: «وأنا قد رأيت وشهدتُ أن هذا هو ابن الله» (يوحنا ١: ٣٤) وقال أيضاً: «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص. الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع، والذي من الأرض هو أرضي، ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع» (يوحنا ٣: ٣٠، ٣١). واشترك المسيح مع المعمدان في تعميد الناس بمعمودية التوبة، ونادى كلاهما بمجيء ملكوت الله (يوحنا ٣: ٢٢، ٢٣).

وبالرغم من هذا التشابه فإننا نرى بينهما اختلافاً في أسلوب الكرازة، فقد استخدم المعمدان أسلوب التوبيخ والتحذير، وهو ما يسميه المثل «نُحنا لكم». واستخدم المسيح أسلوب التشجيع والتشويق، وهو ما يسميه المثل «زمَّرنا لكم». ونحن نحتاج إلى رسالة التحذير، كما نحتاج إلى رسالة التشويق، لأن بعض الناس يستجيبون للتوبيخ، وبعضهم الآخر يقبلون الكلمة الرقيقة. ويستخدم الله معنا طول الأناة، كما يستخدم التأديب لنتوب ونرجع إليه، ونصبح أبناء الملكوت.

١ - دعوة التوبيخ والتحذير:

كان يوحنا ناسكاً متقشِّفاً حتى قالوا إنه «لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً» (لوقا ٧: ٣٣) وكان يلبس وبر الإبل، ويأكل جراداً وعسلاً برياً (متى ٣: ٤)، ووصف نفسه بالقول: «أنا صوتُ صارخٍ في البرية. قوِّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبي» (يوحنا ١: ٢٣). وكان وعظه تحذيرياً نبَّر فيه على الدينونة قائلاً: «يا أولاد الأفاعي، مَن أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة.. والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتُلقى في النار» (متى ٣: ٧، ٨، ١٠).. وكان مستمعو يوحنا من العشارين والخطاة، ومن الجنود الذين سألوه: «وماذا نفعل نحن؟» فأجابهم: «لا تظلموا أحداً، ولا تشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم» (لوقا ٣: ١٤). وهذا الوعظ دعوة للتوبة وعمل الصلاح، خوفاً من العقاب الإلهي، وتحذيراً من الدينونة الأخيرة. وقد وصف واعظٌ حكيم يوحنا المعمدان بقوله: «كان يوحنا كئيباً وحقيقياً مثل جنازة، ولا مفرَّ من الاستماع إليه».

٢ - دعوة التشويق والتشجيع:

جاء المسيح يدعو الناس لحياة التوبة المفرحة «وبعدما أُسلِم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله. فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مرقس ١: ١٤، ١٥)، والإنجيل هو الخبر المفرح. والمسيح هو المملوء «نعمة وحقاً.. ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة، لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يوحنا ١: ١٤، ١٦، ١٧)،

وقد قال عن نفسه: «أتيتُ لتكون لهم حياة، ويكون لهم أفضل» (يوحنا ١٠: ١٠)، وكان يلبي الدعوات ويشارك في الأفراح، وقد أجرى معجزته الأولى في حفل عرس لتستمر أفراح المدعوّين وسعادة أصحاب العرس (يوحنا ٢: ١-١١)، وذهب إلى بيت لاوي العشار، وجاء عشارون وخطاةٌ كثيرون واتكأوا ليأكلوا معه ومع تلاميذه (متى ٩: ١٠). وضرب مثل «الابنِ الضال» ليعلن أنه «هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة» (لوقا ١٥: ٧).

وأعلن المسيح ترحيبه بكل من يُقبل إليه حين قرأ في مجمع الناصرة ما تنبأ به النبي إشعياء عنه قبل ميلاده بسبعمئة سنة (٦١: ١-٣) والذي يقول: «روح الرب عليَّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية» (لوقا ٤: ١٨). وحقَّق المسيح إعلان محبته بأعمال رحمته، فعندما كان في بيت بطرس في كفرناحوم شفى حماة بطرس من الحمى، وفي المساء «قدَّموا إليه جميع السُّقماء والمجانين، وكانت المدينة كلها مجتمعةً على الباب، فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراضٍ مختلفة، وأخرج شياطين كثيرة» (مرقس ١: ٣٢-٣٤).

وقد أحب المسيح الخطاة والزناة واللصوص ورحَّب بهم وأكل معهم، فاتَّهمه شيوخ اليهود بأنه محبٌّ للعشارين والخطاة (متى ١١: ١٩ ولوقا ٧: ٣٤)، أما هو فقال: «من يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يوحنا ٦: ٣٧)، ورحَّب بالمرأة الخاطئة التي جاءت بقارورة طيب، ووقفت من ورائه عند قدميه وهو متكئ «باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع، وكانت تمسحهما بشعر رأسها، وتقبّل قدميه وتدهنهما بالطيب» (لوقا ٧: ٣٨)، فقال: «قد غُفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبَّت كثيراً» (لوقا ٧: ٤٧). وطلب المسيح من الآب أن يبقى تلاميذه في العالم ليكونوا نوره وملحه، وشبَّههم بمدينة موضوعة على جبل، وسراج موضوع على منارة (متى ٥: ١٣-١٦)، وصلى من أجلهم: «لستُ أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (يوحنا ١٧: ١٥) فيكونون مثل سفينة وسط الماء، دون أن يدخلها الماء.

وقد اتَّبع كثيرون من تلاميذ المسيح طريقته في الوعظ، ومنهم يوسف القبرصي الذي أُطلق عليه لقب «ابن الوعظ» لأنه كان يشجع الناس (أعمال ٥: ٣٦).

ثانياً - (استجابتان)

كما تليِّن الشمس الشمع وتيبِّس الطين، يقبل البعض رسالة المسيح شمس البر وتلين قلوبهم لها، بينما تتقسَّى قلوب البعض الآخر وترفض قبولها. ونجد استجابتين مختلفتين للأسلوبين المختلفين للوعظ:

١ - الاستجابة الرافضة:

رفض أبناء جيل المسيح رسالة اللطف واعتبروها تسيُّباً، كما سبق أن رفضوا رسالة التوبيخ واعتبروها تزمّتاً. وواضح أن الواعظ لا يقدر أن يجتذب كل الناس، ولا يمكن أن يُرضي كل سامع،

وعـلى الوعاظ أن يتوقّعوا الرفض بل والمقاومة من بعض سامعيهم، فقد قال المسيح لتلاميذه: «تُساقون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم. فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون، لأنكم تُعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به» (متى ١٠: ١٨، ١٩).

ومع أن بعض الناس يرون في كلمة الله حكمة، ويدركون أن «رأس الحكمة مخافة الرب» (مزمور ١١١: ١٠)، إلا أن كثيرين يرون فيها جهالة وحماقة. وقد أوضح الوحي هذه الحقيقة المؤسفة بقوله: «لأن اليهود يسألون آية، واليونانيين يطلبون حكمة، ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوباً، لليهود عثرة ولليونانيين جهالة، أما للمدعوّين، يهوداً ويونانيين، فبالمسيح قوة الله وحكمة الله، لأن جهالة الله أحكم من الناس، وضعف الله أقوى من الناس» (١كورنثوس ١: ٢٣-٢٥). وواضحٌ من هذا أن اليهود لم يقتنعوا بتعاليم المسيح السامية ولا بمعجزاته الخارقة، فطلبوا آية جديدة، كأن ينزل من على الصليب، أو أن يردّ المُلك الأرضي لبني إسرائيل. وطلب اليونانيون براهين منطقية يقبلونها، لا إعلانات إلهية يجب أن يقبلوها، واعتبروا معجزات المسيح خرافات أو أعمال سحر. وفي كل عصر نجد من يطلبون المعجزة، أو يعظمون العقل البشري. غير أن رسل المسيح، ومعهم كل المدعوّين من الله، رأوا في المسيح المصلوب مخلّصاً وفادياً، فكان الخلاص بالصليب هو حكمة الله السامية حتى لو حسبه بعض الناس جهالة، وكان الفداء بالدم قوة الله المنقذة، حتى لو حسبه بعض الناس ضعفاً.. هكذا ظهر لبعض الناس أن الأبواق ضعيفة أمام أسوار أريحا الشامخة (يشوع ٦: ٢٠)، وأن مقلاع داود لا شيء أمام ضخامة جليات الجبار (١صموئيل ١٧: ٤٥). لكن قوة الله وحكمته جعلت من الأبواق والمقلاع وسائل انتصار مذهلة.

وقد ظهر المسيح في الجسد إنساناً بسيطاً، فرفضه اليهود، ولكن «الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية. كل من يسقط على ذلك الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه» (لوقا ٢٠: ١٧، ١٨).

لما أخطأ أبوانا الأوّلان وأكلا من الشجرة المنهي عنها اكتشفا عريهما واختبئا من الله، ففتّش عليهما وقدّم الحل لمشكلتهما بحكمته السامية. فدبّر أمر فدائهما بذبيحة ستر عريهما بجلدها، وهذا هو لباس البر من عند الله. وهكذا أعلن الله في جنة عدن لأبوينا الأوّلين طريق الخلاص العظيم، إذ قال للحية التي أغوتهما: «هو (نسل المرأة) يسحق رأسك (الحية) وأنتِ تسحقين عقبه» (تكوين ٣: ١٥). ولا يوجد إلا نسل امرأة واحد، هو المسيح ابن مريم. ولم يسحق رأس الحية أحدٌ غيره، فهو الوحيد الذي لم يخطئ. وقد سحقت الحيّة عقبه يوم صليبه، لكنه قام منتصراً غالباً ولكي يغلب.

وكان يجب على الرافضين أن يدركوا حكمة الله في الصليب، لأن فيه تتلاقى عدالة الله مع رحمته. فالله غفور رحيم، ولكنه قاضٍ عادل. ولو أنه كان غفوراً فقط ما كان عادلاً. ولو أنه كان عادلاً فقط ما كان غفوراً. لكن في الصليب تلتقي العدالة مع الرحمة، كما قال المرنم: «الرحمة والحق التقيا. البر والسلام تلاثما» (مزمور ٨٥: ١٠). وأساس هذه الحكمة إلهي، وموضوعها روحي، وهي أقوى من كل حكمة أرضية وأسمى من كل شريعة وضعية، لأنها أبدية تقودنا إلى الله، وما أسعد من يدركها.

٢ - الاستجابة المنفتحة:

ولكننا نشكر الله على الذيـن قبلوا رسـالة التوبة على فم يـوحنا المعمدان، ومنهم تلاميذ المعمدان، ومنهم الجنود القساة الذين تابوا بعد أن سمعوه. ونحن نجد المسيح على كل من فتح قلبه له، ومنهم زكا العشار الذي برهن على صدق توبته فقال المسيح عنه: «اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضاً ابن إبراهيم» (لوقا ١٩: ٩)، ومنهم المرأة السـامرية التي تابت وصارت المبشِّرة بالخلاص لمدينتها (يوحنا ٤: ٢٨-٣٠)، ومنهم قائد المئة الروماني الذي قال المسـيح عن إيمانه: «لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا» (متى ٨: ١٠). ولا زال الرب يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون.

٣ - التائبون يدافعون عن حكمة الله:

خـتم المسيح مثل «الأولاد الذين يلعبون في السوق» بقوله: «الحكمة تبرَّرت من جميع بنيها» بمعنى أن الذين يقبلون رسـالة التوبة هم أبناء الحكمة الذين يدافعون عنها ويبرِّرونها، إذ يسـتجيبون لصوت العقل والضمير، ويقبلون رسالة الله، سواء كان الوعظ بها وتوبيخاً وترهيباً أو تشويقاً وترغيباً. وكل من يـقبل رسـالة الله يـجب أن يدافع عن الحكمة التي آمن بها ويبرِّرها بالتغيير الذي أحدثته التوبة فيه، وبسلوكه الجديد، كما قال الرسول بولس للكورنثيين: «أنتم رسالتنا، مكتوبةً في قلوبنا، معروفةً ومقروءة من جميع الناس، ظاهرين أنكم رسـالة المسـيح» (٢كورنثوس ٣: ٢، ٣). وهذا يعني أن الناس ستقرأ رسالة المؤمن، أراد أم لم يُرد، شعر أم لم يشعر. فهل ستقرأ فيك رسالة حب، أم رسالة كراهية.. رسالة خدمة أم رسالة أنانية.. رسالة قداسة أم رسالة نجاسة؟

فيا من قبلتم رسـالة المسـيح وتبرَّرتم بكفارته، أنتم الذين ستبرِّرون حكمة الله وتدافعون عنها، لأن الحكمة يجب أن تتبرَّر من بنيها لا من الأغراب عنها.. ولن يبرر الملائكة حكمة الله، لأن الذين سقطوا منهم حفظهم الله إلى ديـنونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام (يهوذا ٦) ويقول الوحي: «حقاً ليس يمسـك الملائكة، بل يمسك نسل إبراهيم» (عبرانيين ٢: ١٦). فلا بد أن يبرِّر حكمة الله الذين استفادوا من هذه الحكمة. وهذه مسؤولية صعبة، غير أنها مسؤولية مفرحة.

هل كلَّمك الله بالمحبة، كما قال المسـيـح «زمَّرنا لكم»؟ أو هل تعامل معك بالتأديـب «نُحنا لكم»؟ أحياناً يغدق لك العطاء لتتوب، وأحياناً يضغط عليك ويحاصرك حتى تسلِّم أمورك له.. وفي الحالتين هو يريدك أن تتمتع بكل بركات غفرانه وفدائه.

سؤالان

١ - ما هي الحكمة، وكيف نكون حكماء؟

٢ - ماذا نفعل لنبرر الحكمة؟

٢ - تشبيهات لملكوت الله

(أ) أراضي الملكوت	- مثل الزارع	متى ١٣: ٣-٩ و١٨-٢٣
(ب) أعداء الملكوت	- مثلا الزوان وسط الحنطة، والشبكة في البحر	متى ١٣: ٢٤-٣٠ و٤٧-٥٠
(ج) نمو الملكوت	- مثل البذور التي تنمو سراً	مرقس ٤: ٢٦-٢٩
(د) قوة الملكوت	- مثلا حبة الخردل والخميرة	متى ١٣: ٣١-٣٣
(هـ) عظمة قيمة الملكوت	- مثلا الكنز المخفى، واللؤلؤة الثمينة	متى ١٣: ٤٤-٤٦

(أ) أراضي الملكوت

مثل الزارع

فَكَلَّمَهُمْ كَثِيراً بِأَمْثَالٍ قَائِلاً: هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ، وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَنَبَتَ حَالاً إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضٍ. وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ احْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشَّوْكِ فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ، فَأَعْطَى ثَمَراً: بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاثِينَ. مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ..

فَاسْمَعُوا أَنْتُمْ مَثَلَ الزَّارِعِ: كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ الْمَلَكُوتِ وَلا يَفْهَمُ فَيَأْتِي الشِّرِّيرُ وَيَخْطَفُ مَا قَدْ زُرِعَ فِي قَلْبِهِ. هَذَا هُوَ الْمَزْرُوعُ عَلَى الطَّرِيقِ. وَالْمَزْرُوعُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَحَالاً يَقْبَلُهَا بِفَرَحٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي ذَاتِهِ بَلْ هُوَ إِلَى حِينٍ. فَإِذَا حَدَثَ ضِيقٌ أَوِ اضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ الْكَلِمَةِ فَحَالاً يَعْثُرُ. وَالْمَزْرُوعُ بَيْنَ الشَّوْكِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَهَمُّ هَذَا الْعَالَمِ وَغُرُورُ الْغِنَى يَخْنُقَانِ الْكَلِمَةَ فَيَصِيرُ بِلا ثَمَرٍ. أَمَّا الْمَزْرُوعُ عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَفْهَمُ. وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِثَمَرٍ فَيَصْنَعُ بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاثِينَ (متى ١٣: ٣-٩ و١٨-٢٣).

(ورد هذا المثل أيضاً في مرقس ٤: ٢-٩ و١٤-٢٠ ولوقا ٨: ٤-٨ و١١-١٥)

رأينا في الأمثال الثلاثة السابقة أن الحياة المسيحية حياة جديدة، كالثوب الجديد، ورأينا أن كل كاتب متعلم في ملكوت السماوات يعظ عن هذه الحياة الجديدة. ثم رأينا أن للوعظ أساليب مختلفة، كما أن استجابة السامعين للوعظ تختلف. وفي «مثل الزارع» يشبِّه المسيح الكاتب المتعلم بفلاح يلقي بذوره على الأرض، فيجد أن مستمعيه أربعة أنواع: الذين يشبهون الطريق، والأرض المحجرة، والأرض الشائكة، والأرض الجيدة. ولا تنمو البذور إلا في الأرض الجيدة.. والبذور هي كلمة الله التي إن دخلت القلب تمنحه حياة روحية جديدة تتجدَّد فيه باستمرار، وتجعل القلب يعطي ثمراً صالحاً ووفيراً، وتحفظه من الخطإ، فيقول المؤمن: «خبأتُ كلامك في قلبي لكيلا أخطئ إليك» (مزمور ١١٩: ١١).

«خرج الزارع ليزرع». لكن بعض البذور لم تثمر ليس لخطإ في الزارع لأن يده مدرَّبة وحكيمة.. وليس بسبب عيب في البذور بدليل أن بعضها نما وأثمر، وكلمة الله فعّالة فهي «سيف الروح»، وهي «أمضى من كل سيف ذي حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميِّزة أفكار القلب ونياته» (أفسس ٦: ١٧ وعبرانيين ٤: ١٢) وهي كنارٍ وكمطرقة تحطم الصخر (إرميا ٢٣: ٢٩). ويأمرنا الوحي: »اقبلوا بوداعة الكلمة المغروسة القادرة أن تخلِّص نفوسكم« (يعقوب ١: ٢١) فنصبح «مولودين ثانية، لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد» (١بطرس ١: ٢٣).

إذاً لا بـد أن يكون العيب في التربة، لأن البذور هي نفس البذور في كل حالة، والزارع هو نفسه لم يتغيّر. ولكن العيب يرجع إلى إبليس الذي يخطف البذور، وإلى القلب البشري الذي يرفضها.

ومع أن الزارع يعلم أن التربة أنواع، وأن جزءاً من بذوره سيضيع بدون فائدة، إلا أنه يستمر يلقيها بسخاء، وينتظر منها أن تثمر، لأنه يريد أن يبارك الأرض ويجعلها تثمر، ولأن الثمر يُفرح قلبه، ولأنه يـريـد أن يشبع بالنفوس الراجعة إلى الله، ولأنه يريد أن تجد تلك النفوس شبعها. والزارع يرجو أن تتغيـر بعض أنواع التربة نتيجة العناية والرعاية، فقد تُشَقّ الطريق فتقبل البذور بعد أن رفضتها، وقد تُزال الأحجار فتجد البذور عمق أرض، وقد تُقلَع الأشواك فلا تعود تخنق النبات الصالح.

أولاً - البذور التي سقطت على الطريق

البذور المسروقة

خرج الزارع ليزرع، هذا فضل نعمة الله الواضحة في أنه يلقي البذور حتى على الطريق، الذي هو قلب الإنسـان المهمل الذي يعطي إبليس فرصة خطف الكلمة فلا تثمر فيه. وكم سـرق إبليس البذور الصالحة، حتى من الفريسـيين المتديّنين، ومن أهل كورزين وبيت صيدا، البلدتين اللتين رأتا معجزات المسـيـح، فقال لهما: «ويل لك يا كورزين! ويل لك يا بيت صيدا! لأنه لو صُنعت في صور وصيداء القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديماً في المسوح والرماد» (متى ١١: ٢١).

ويقول المسيح إن صاحب «الأرض الطريق» «لا يفهم» قيمة الكلمة ولا معناها (متى ١٣: ١٩) ولا يقدّر قيمة البذور، ولا يبالي إلا بأن يحيا لدنياه. كل شيء عنده خارجي لا يترك في داخله تأثيراً. يسمع بـأذنه لا بقلبه، فلا ينتبه لما يسمعه ولا يدرك معناه الروحي، ولا يعتبر أنه هو المخاطب. إنه كالطريق المكشوف للطير وللرياح، اللذين يضيعان البذور، فلا يبقى منها شيء.

تُرى لماذا صارت تلك الأرض طريـقاً؟.. لا بد أنها كانت يـوماً أرضاً صالحة، ولكن دوْس أقدام الإنسان والحيوان حجَّرها. ويتقسـى قلب الإنسـان بسبب التعوُّد على الخطية. لقد خلق الله الإنسان مسـتقيماً «أما هم فطلبوا اختراعات كثيرة» (جامعة ٧: ٢٩). إنهم مثل المدعوّين إلى عُرس ابن الملك الـذيـن «تهاونوا ومضوا واحد إلى حقله، وآخر إلى تجارته» (متى ٢٢: ٥) لأنهم أحسـوا أن الحقل والـتجارة أكثر أهميـة من التعبيـر عن مشاعر الاحترام للملك، أو الاشتراك مع ابن الملك في حفل عرسـه. كان تقييمهم خاطئاً، فقيّموا المؤقّت على أنه أهم من الدائم، وقيّموا الرخيص على أنه أهم من الثميـن، وقيّموا المصلحة الذاتيـة الحاضرة أكثر من المصلحة الأبدية الباقية، لأن «إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح» (٢كورنثوس ٤: ٤).

ليـحفظك الرب من أن يكون قلبك كالطريق، فلا تبالي بالمهم، ولا تقدّر قيمة الأشياء الثمينة، لأن اللامبالي يشبه الذي لا يرى في الأهرام العظيمة إلا كومة أحجار، ولا يسمع في السيمفونية الرائعة إلا أصواتاً مختلطة.

ثانياً - البذور التي سقطت على الحجر

البذور العطشانة

الأرض المحجرة طبقةٌ رقيـــقة من التربة فوق أرض كلها حجرية، ليس لها عمق أرض، فتنمو فيها البذرة وتصبح نبتة، ولكن مصيـــرها مثل يقطينة يونان التي «بنت ليلة كانت، وبنت ليلة هلكت» (يونان ٤: ١٠). وأصحاب الأرض الـــمحجرة أفضل من الأرض «الطريـــق» لأنهم قبلوا البذور فنمت، ولكن الحجر لا يـــســـمح للجذور أن تمتد لتحصل على الغذاء والماء، فتموت النبتة المبتدئة. إن ميولهم دينية، ربـما بسبب التأثير العائلي، أو بسبب تربيتهم الأولى، أو بسبب التأثير الحضاري للدين، فيسمعون الكلمة ويـــقبلونها بســـرور. لكن ما أن تلفحهم حرارة شمس الصعوبات حتى يحترق فيهم النبات الغض ويذبل ويـموت. إنهم يـــشبهون الكاتب الذي لم يكن بعيداً عن ملكوت الله، ولكنه لم يكن قريباً منه، ولا دخله، فقال له المسيح: «لستَ بعيداً عن ملكوت الله» (مرقس ١٢: ٣٤). إذاً لم يكن تجديد هؤلاء كاذباً، لكنه لم يكن عميقاً، بل كان ســطحياً ومؤقتاً. لم يتأصَّل الحق في ذاكرتهم وضميرهم، فانتهى بســـبب الصعوبة والاضطهاد، وتغلَّبت الإغراءات الوقتية على المجد غير المنظور.

صـاحب الأرض المحجرة إذاً يعجب بالكلمة ويحبها ويريد أن يتمسَّك بها، لكنه غير مستعد أن يدفع تكلفة اتِّباع المســيح. إنه مثل الشاب الذي قال للمســيح: «يا ســيد، أتبعك أينما تمضي» فقال له يسوع: «للثعالب أوجرة ولطيور الســـماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه» (لوقا ٩: ٥٧، ٥٨)، فهناك من يحســـبون تكلفة الاتِّباع ويستكثرونها، ويرتدّون. إنهم مثل يهوذا الإسخريوطي الذي ربما حسب أنه سيكون وزيراً في مملكة أرضية. ولكن عندما اكتشف أن المسيح يقيم ملكوتاً روحياً، وأن اتِّباعه يعني التضحية، باع ســيده بثلاثين قطعة فضة (متى ٢٦: ١٥). وقد قال الرب للنبي حزقيال إن رســـالته ستكون لبعض الناس «كشِعْر أشواق لجميل الصوت يُحسن العزف فيسمعون كلامك ولا يعملون به» (حزقيال ٣٣: ٣٢).

ومـن أصحاب القلوب المحجرة جماعة أشبعهم المسيح من خمس خبزات وسمكتين، فآمنوا به. ولكن لما بدأ يتكلم عن أن جسده مأكل حق وأن دمه مشرب حق رجعوا إلى الوراء، لأنهم رأوا الكلام صعباً ومُبهماً، ولم يريدوا أن يفكروا في المعنى الروحي الكامن وراءه (يوحنا ٦: ٥٣-٦٦). لقد قبلوا تعليم المسيح بسرعة، لكن صعوبة المعاني جعلتهم يـــرتدّون. فلم يكن ســماعهم الكلمة كافياً لخلاص نفوســـهم، إذ كان يجب أن يســـتمروا في سيرهم مع المسيح. «وكان جموع كثيرة سائرين معه فالتفت وقال لهم: إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً. ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لوقا ١٤: ٢٥-٢٧).

لقد كلَّف خلاصنا غالياً، لأن المسيح تجسَّد وصُلب ليتمّمه. ومهما كلفنا اتِّباع المسيح فهو ليس شيئاً بالمقارنة بالثمن الذي دفعه المســيح، فنقول: «من ســيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم عري أم خطر أم ســيـف؟.. ولكننا في هذه جميـــعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا. فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة..

ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رومية ٨: ٣٥-٣٩).

ليحفظك الرب من الأحجار التي تقتل نمو كلمة الله فيك.

ثالثاً - البزور التي سقطت على الشوك

البذور المخنوقة

سقطت البذور على أرضٍ فيها شوك، فنمت، لأنها أرض صالحة ينمو فيها الشوك كما تنمو فيها البذور الجيدة. وكانت هناك إمكانية حصاد، لولا أن الشوك خنق النبات الجيد.. والشوك موجود بالتربة، ويستمد غذاءه منها، وهو ينمو بسرعة أكبر من سرعة نمو البذور، فيلتهم غذاءها، ويعلو فوقها فيحجب عنها أشعة الشمس، فيموت الزرع الجيد مختنقاً.

ويرمز الشوك إلى الطبيعة القديمة فينا، والتي تهدد الطبيعة الجديدة «لأن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر، حتى تفعلون ما لا تريدون» (غلاطية ٥: ١٧). ولذلك قال المسيح: «اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط، وأما الجسد فضعيف» (متى ٢٦: ٤١).

قال شابٌ للمسيح: «أتبعك يا سيد، ولكن ائذن لي أولاً أن أودّع الذين في بيتي». فأجابه: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (لوقا ٩: ٦١، ٦٢). إنه «رجلٌ ذو رأيين، متقلقل في جميع طرقه» (يعقوب ١: ٨)، وهو مثل الشاب الغني الذي رفض أن يتبع المسيح «ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة» (مرقس ١٠: ٢٢)، وهو مثل ديماس الذي قال الرسول بولس عنه: «تركني إذ أحبَّ العالم الحاضر» (٢تيموثاوس ٤: ١٠). صحيحٌ أنه «لا يقدر أحدٌ أن يخدم سيدين. لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال.. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم» (متى ٦: ٢٤، ٣٣).

وما أكثر الشوك الذي ينافس البذور الجيدة. هناك أشواك هموم هذا العالم ومتاعبه عند الفقراء، مع أن المسيح يقول لهم: «لا تهتموا قائلين: ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس؟ فإن هذه كلها تطلبها الأمم، لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها» (متى ٦: ٣١، ٣٢).. وهناك أشواك غرور الغنى الذي يجتذب عيون الأغنياء، مع أن الوحي يقول لهم: «لأننا لم ندخل العالم بشيء، وواضحٌ أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء» (١تيموثاوس ٦: ٧)، و«متى كان لأحد كثير، فليست حياته من أمواله» (لوقا ١٢: ٥).. وهناك أشواك غرور المركز الاجتماعي أو العلمي، وغرور الصحة والشباب.. وهناك أشواك شهوات سائر الأشياء، مع أن الوحي يقول: «العالم يمضي وشهوته، وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» (١يوحنا ٢: ١٧).

ليحفظك الرب من الأشواك التي تخنق كلمة الله فيك.

رابعاً - البذور التي سقطت على الأرض الجيدة

البذور المثمرة

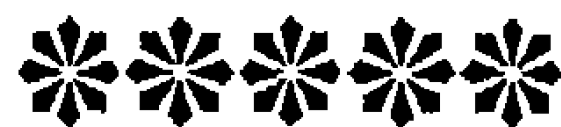
أصحاب «الأرض الجيـدة» هم الذين «يسـمعون الكلمة، فيحفظونها في قلب جيد صالح، ويثمرون بالصبر» (لوقا ٨: ١٥). والقلب الصالح «يسمع» ويقبل.. ثم «يحفظ» بمعنى أنه يفكر ويتأمل ويسترجع الكلمة مرة ومرات، ويلهج بها، فتنمو وتثمر بالصبر سلوكاً صالحاً لنفسه وللآخرين. والقلب الجيد يقبل البذور فتنمو فيـه.. ثم «يـثمر بالصبر» والمثابرة، فتتغيَّر الحياة تماماً، طاعة للوصية «بصبركم اقتنوا أنفسـكم» (لوقا ٢١: ١٩)، وعندما تقتني النفس يضيء نورها أمام الناس، وترى أعمالها الحسنة فيتمجَّد الآب السـماوي (متى ٥: ١٦) ويصبح المؤمن «كشجرة مغروسة عند مجاري المياه، تعطي ثمرها في أوانه، وورقها لا يذبل» (مزمور ١: ٣).

صـاحب الأرض الجيدة هو المستعد المُخلَص، مثل تيموثاوس الذي قال له الرسول بولس: «إنك منذ الطفوليـة تعرف الكتب المقدسـة القادرة أن تحكمك للخلاص بالإيـمان الذي في المسـيـح يسـوع» (٢تيموثاوس ٣: ١٥).

وكم نشكر الله من أجل الأرض الجيدة، فقد قال المسـيح: «الحقول قد ابيضَّت للحصاد» (يوحنا ٤: ٣٥). «لأنه كما ينزل المطر والثلج من السـماء ولا يرجعان إلى هناك، بل يرويان الأرض ويجعلانها تلـد وتنبت وتعطي زرعاً لـلزارع وخبزاً للآكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي، لا ترجع إليَّ فارغة بل تعمل ما سُررت به وتنجح في ما أرسلتها له» (إشعياء ٥٥: ١٠، ١١).

والأراضي الجيدة أنواع متعددة، فبعضها يثمر ثلاثين ضعفاً، وبعضها سـتين، وبعضها مئة ضعف. وعندما ألقى المسيح هذا المثل كانت الأرض تعطي عادةً ما بين ثمانية أضعاف إلى خمسة عشر ضعفاً، فيكون أن الرب ينتظر من المؤمنين ثمراً أكثر، عملاً بالوصية: «إن لم يزد بركم عن الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات» (متى ٥: ٢٠).

لـكن لماذا يعطي مؤمن ثلاثين ضعفاً بينما يعطي غيره ستين أو مئة ضعف؟.. الفرق بينهم هو مدى اسـتعداد كلٍّ منهم لطاعة الرب. فصاحب المئة ضعف هو الذي يـقول مع إشعياء: «هئنذا أرسـلني» (إشـعياء ٦: ٨). وكلما كنا مستعدين أن نطيع الله أكثر يجعلنا نثمر أكثر.. ويعود الفرق أيضاً إلى مقدار الـوقت الذي نصرفه في الصلاة، إذ يـكون شعارنا: «أما أنا فصلاة» (مزمور ١٠٩: ٤) لأنه بمقدار صلاتنا يكون ثمرنا، ونصبح عاملين بالكلمة، لا سامعين فقط خادعين نفوسنا (يعقوب ١: ٢٢).



وختم المسـيح هذا المثل بالقول: «من له أذنان للسمع فليسمع» (متى ١٣: ٩). وهذا يعني أن الحق مُعلَنٌ للجميع، ولكل مستمع الحرية أن يقبل الحق إن هو أراد، كما أن له مطلق الحرية أن يرفضه. قال المسـيح: «أنا واقف على الباب وأقرع. إن سـمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤيا ٣: ٢٠). لا يجبر الله أحداً، لكنه أعطى لكل إنسان أذنين، ثم يوجِّه الدعوة ويُعيد توجيهها. فلنقل: «مرة واحدة تكلم الرب، وهاتين الاثنتين سمعت» (مزمور ٦٢: ١١).

فأي نوع من التربة قلبك؟ إن كان كالطريـق فإن الله يـمكن أن يـحرثه بمحراث نعمته، بالرقّة أو بـالتأديب، كما قال: «أضيِّق عليهم لكي يشعروا» (إرميا ١٠: ١٨). وقد ينفتح قلبك بعد نور مبهر يُعمي العيون كما حدث مع شاول الطرسوسي (أعمال ٩: ٣، ٤)، وقد ينفتح بسرعة وهدوء كما حدث مع ليديا (أعمال ١٦: ١٤) وقد يـنفتح بعد زلزلة كما حدث مع سـجان فيلبي (أعمال ١٦: ٢٦-٣٤).. فإن كان قلبك حجريـاً فالرب قادر أن يـنزع منك قلب الحجر ويعطيك قلب لحم (حزقيال ١١: ١٩).. وإن كان يـحوي الشوك الذي يخنق البذور الصالحة فهو قادر أن يقتلع الشوك من داخلك. وإن كنت تثمر ثلاثين ضعفاً يجعلك تثمر مئة ضعف.

سؤالان

١ - اشرح هذه العبارة: «لم تثمر البذور، ليس بسـبب خطإ في الزارع، وليس بسـبب عيب في البذور، بل بسبب عيب في التربة».

٢ - كيف تُصلح القلب الذي يشبه الطريق، والذي يشبه الأرض المحجرة، والذي يشبه الأرض التي ينمو بها الشوك؟

(ب) أعداء الملكوت

مَثَلا الزوان وسط الحنطة، والشبكة في البحر

قَالَ لَهُمْ مَثَلاً آخَرَ: يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَاناً زَرَعَ زَرْعاً جَيِّداً فِي حَقْلِهِ. وَفِيمَا النَّاسُ نِيَامٌ جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ زَوَاناً فِي وَسَطِ الْحِنْطَةِ وَمَضَى. فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ وَصَنَعَ ثَمَراً حِينَئِذٍ ظَهَرَ الزَّوَانُ أَيْضاً. فَجَاءَ عَبِيدُ رَبِّ الْبَيْتِ وَقَالُوا لَهُ: يَا سَيِّدُ، أَلَيْسَ زَرْعاً جَيِّداً زَرَعْتَ فِي حَقْلِكَ؟ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ زَوَانٌ؟ فَقَالَ لَهُمْ: إِنْسَانٌ عَدُوٌّ فَعَلَ هَذَا. فَقَالَ لَهُ الْعَبِيدُ: أَتُرِيدُ أَنْ نَذْهَبَ وَنَجْمَعَهُ؟ فَقَالَ: لاَ! لِئَلاَّ تَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ. دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ كِلاَهُمَا مَعاً إِلَى الْحَصَادِ، وَفِي وَقْتِ الْحَصَادِ أَقُولُ لِلْحَصَّادِينَ: اجْمَعُوا أَوَّلاً الزَّوَانَ وَاحْزِمُوهُ حُزَماً لِيُحْرَقَ وَأَمَّا الْحِنْطَةَ فَاجْمَعُوهَا إِلَى مَخْزَنِي..

أَيْضاً يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ شَبَكَةً مَطْرُوحَةً فِي الْبَحْرِ وَجَامِعَةً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ. فَلَمَّا امْتَلأَتْ أَصْعَدُوهَا عَلَى الشَّاطِئِ وَجَلَسُوا وَجَمَعُوا الْجِيَادَ إِلَى أَوْعِيَةٍ، وَأَمَّا الأَرْدِيَاءُ فَطَرَحُوهَا خَارِجاً. هَكَذَا يَكُونُ فِي انْقِضَاءِ الْعَالَمِ: يَخْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَيُفْرِزُونَ الأَشْرَارَ مِنْ بَيْنِ الأَبْرَارِ، وَيَطْرَحُونَهُمْ فِي أَتُونِ النَّارِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ (متى ١٣: ٢٤-٣٠ و٤٧-٥٠) .

ذكر المسيح أن ملكوت الله حياةٌ جديدة وتعليم جديد (مثَل الرقعة والزقاق)، يدعو له معلّمون يخرجون من كنوزهم جدداً وعتقاء (مثَل الكاتب المتعلم)، وأن هناك طرقاً مختلفة للدعوة له (مثَل الأولاد الذين يلعبون في السوق)، وأن هناك أنواعاً مختلفة من الاستجابة له (مثَل الزارع)، فالبعض يرفضه، والبعض يقبله مؤقتاً، والبعض الثالث يريد أن يحتفظ به إلى جوار أشياء أخرى مناقضة له. ولكن هناك أرضٌ جيدة تقبله وتعطي أثماراً مفرحة.

وفي مثَلي الزوان وسط الحنطة والسمك الرديء وسط السمك الصالح يوضح لنا المسيح أن من طبيعة ملكوت الله أن عدو الملكوت يحاول الإساءة إلى الزرع الصالح بأن يزرع وسطه نباتاً ساماً. لقد خلق الله كل شيء صالحاً، من حنطة مغذية وسمك جيد، ووصف ما خلقه بأنه «حسنٌ جداً» (تكوين ١: ٣١). ولكن عدو الله زرع الزوان وسط الحنطة، وأوجد السمك الرديء وسط الجيد.

ويلاحظ أبسط الناس أن في عالمنا مملكتين، مملكة الرب ومملكة الشرير، والمملكتان تتصارعان دائماً، وستُحسَم النتيجة في اليوم الأخير، وقت الحصاد، أو يوم تُسحب الشبكة إلى الشاطئ، فيتمتع الصالح في ملكوت الله، ويُعاقب الرديء في نار جهنم.

وقد فسَّر المسيح لتلاميذه مثَل الزوان وسط الحنطة، فقال إن الذي يزرع الزرع الجيد هو ابن الإنسان، والحقل هو العالم، والزرع الجيد هو بنو الملكوت، والزوان هم بنو الشرير، والعدو الذي زرع الزوان هو إبليس، والحصاد هو اليوم الآخِر، وإن الحصادين هم الملائكة. وفي اليوم الأخير يُرسل ابن الإنسان ملائكته ليجمعوا من ملكوته كل فاعلي الإثم ويطرحونهم في النار، بينما يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم. وختم المسيح شرحه للمثل بقوله: «من له أذنان للسمع فليسمع».

ونتعلم من هذين المثَلين أننا لا يجب أن نندهش من وجود الصالح مع الرديء في البيت والكنيسة والمجتمع، ففي عالمنا يختلط الزوان بالحنطة. ويصعب علينا في بادئ الأمر أن نميِّزهما، لأنهما متشابهان في الشكل. لكن في وقت الحصاد يتَّضح الفرق ويختلف المصير، وما أعظمه بين سنابل القمح المغذية التي تجمع للمخازن والثمار السامة التي تُحزم لتحرق. وفي شباك الصياد بالبحر يختلط السمك الجيد والرديء، ولا يمكن فصلهما في الماء، إنما يُفصلان على الشاطئ، في نهاية رحلة الصيد.

أولاً - وجود الجيد والرديء

منذ وُجد الإنسان وجدنا ولدي آدم: قايين الزوان وهابيل الحنطة (تكوين ٤: ٤-٨)، وفي نسل إسحاق ابن خليل الله إبراهيم وجدنا يعقوب الحنطة وعيسو الزوان (تكوين ٢٥: ٢٣)، ويهوذا الاسخريوطي الزوان بين تلاميذ المسيح الحنطة (متى ٢٦: ١٤-٢٥).. وهكذا كان الحال في فلك نوح، فقد سكنته الحيوانات الطاهرة طقسياً (التي يمكن تقديمها كذبائح لله)، كما وُجدت الحيوانات النجسة طقسياً (التي لا تُقدَّم كذبائح) (تكوين ٧: ٢).. وقال يوحنا المعمدان إن الله في اليوم الأخير «يجمع قمحه إلى المخزن، أما التبن فيحرقه بنار لا تُطفأ» (متى ١٢: ٣). وحدثنا المسيح أنه في نهاية العالم سيقيم الخراف عن اليمين والجداء عن اليسار، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وأولئك إلى العذاب الأبدي (متى ٢٥: ٣٢). وحدَّث الرسول بولس تلميذه تيموثاوس عن أننا نجد في البيت الواحد آنية كرامة وآنية هوان، وكلاهما من عمل يدي الفخاري الواحد (٢تيموثاوس ٢: ٢٠).

بل إننا نجد في داخل نفوسنا زواناً وحنطة، وسمكاً رديئاً وسمكاً جيداً. ولا غرابة، لأن الطبيعة القديمة موجودة فينا إلى جوار الطبيعة الجديدة الموهوبة لنا من الله، وهاتان الطبيعتان تتصارعان دائماً، حتى يفعل الإنسان أحياناً ما لا يريده (رومية ٧: ١٤-٢٥ وغلاطية ٥: ١٦، ١٧).

١ - مصدر الزرع الجيد:

يعلِّمنا المسيح في هذين المثلين أن العالم (كحقل أو كشبكة) ملك الرب الصالح، الذي يشرق بنور كلمته على البشر جميعاً «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦). والله يبذر في عالمه بذوراً صالحة نهاراً، تلد الأبرار الذين يدعوهم «أبناء الملكوت» وقد جاء المسيح ليعطيهم حياة فضلى (يوحنا ١٠: ١٠) فيصبحون حنطة في حقله، وأسماكاً جيدة في شبكته، ينتمون إليه، ويرثون بركاته، لأنه أنعم عليهم بالتبني، كما قيل: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه» (يوحنا ١: ١٢)، فيهنئون بعضُهم بعضاً قائلين: «انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى نُدعى أولاد الله» (١يوحنا ٣: ١).

«أبناء الملكوت» إذاً هم الذين قبلوا البذور في أرض قلوبهم الجيدة، ففهموها وتأملوها، وأثمروا ثمراً صالحاً، فصاروا «مولودين ثانية، لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد» (١بطرس ١: ٢٣). وهم الذين يقولون: «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أفسس ٢: ١٠). إنهم رجال الله الغيورون على خدمته.

٢ - مصدر الزرع الرديء:

سـمح الله بقيام حزب معارضة في عالمنا يرأسه إبليس، الذي يبذر بذوره سراً في الليل، لأنه عاجز عن المجيء في وضح النهار، فهو كذابٌ وأبو الكذاب (يوحنا ٨: ٤٤). إنه يأتي والناس نيام أو غافلون ليلقي زوانه الشبيه بالحنطة، والذي يصعب تمييزه إلا في يوم الحصاد.

ولإبليس جنود يـعاونونه في ترويج أكاذيبه، قال الوحي عنهم: «هم رسـلٌ كذَبة، فعلة ماكرون، مُغيِّرون شكلهم إلى شبه رسُـل المسيح. ولا عجب، لأن الشيطان نفسه يغيِّر شكله إلى شبه ملاك نور، فليـس عظيـماً إن كان خدّامه أيضاً يغيِّرون شكلهم كخدّام للبر، الذين نهايتهم تكون حسـب أعمالهم» (٢كورنثوس ١١: ١٣-١٥).

ونلاحظ أنه كلما زاد نشاط ملكوت الله زاد نشاط إبليس الذي يهزأ بالحق ويزيّفه «ولكن حيث كثُرت الخطية ازدادت النعمة جداً» (رومية ٥: ٢٠) فتكون النصرة النهائية للنعمة.

ثانياً - ماذا يُفعل بالزرع الرديء؟

انزعج عبيد صاحب الحقل من وجود الزوان، فسـألوه: «أليس زرعاً جيداً زرعته في حقلك، فمن أين له زوان؟» ثم سـألوه: «أتريد أن نذهب ونجمعه؟». لقد خافوا أن يعطل الزوان نمو الحنطة، كما يـخاف الـمؤمنون من وجود الأشرار في دوائر الأبرار، لـعلـمهم أن العدو متجبر قاسٍ، ولمعرفتهم بخطورته لأنه في الداخل لا في الخارج فيسـهل عليه أن يهزّ ثقة المؤمنين في قوة الله. ولكن صاحب الحقل لم ينزعج، لأنه كان يملك زمام الموقف، وكان رائعاً في ردّه وهو يقول: «دعوهما ينميان كلاهما معاً إلى الحصاد». ووقتها يُجمع الزوان ليُحرق، أما الحنطة فتُجمع في المخزن.

فلماذا نصح صاحب الحقل بعدم قلع الزوان فوراً؟

١ - خوفاً من حُكم ظالم متعجِّل:

أحكام البشر على غيرهم سـطحية، لأنهم لا يسـتطيعون أن يغوصوا إلى عُمق الأمور. واحد فقط يـعرف الدواخل هو الله «الفاحص الكلى والقلوب» (رؤيـا ٢: ٢٣) والذي يعرف كل شيء، لأن كل الأمور مكشوفة أمامه، وهو «يعرف الجميع» وهو ليس «محتاجاً أن يشهد أحدٌ عن الإنسـان، لأنه علم ما كان في الإنسان» (يوحنا ٢: ٢٤، ٢٥). أما البشر فيقول المسيح لهم: «لا تحكموا حسب الظاهر، بل احـكموا حكماً عادلاً» (يوحنا ٧: ٢٤)، ويقول لهم الوحي: «من أنت الذي تدين عبد غيرك؟ هو لمولاه، يـثبت أو يسقط، ولكنه سيثبت لأن الله قادر أن يثبته» (رومية ١٤: ٤).. وفي أحكامنا المتعجِّلة قد نعتبر المؤمن الضعيف زواناً فنقلعه، مع أن يد الله تكون لا تزال تعمل فيه وتصوغه لتجعل منه إناءً للكرامة، مقدسـاً، نافعاً للرب، مستعداً لكل عمل صالح (٢تيموثاوس ٢: ٢١). ولكننا عندما لا نراه مكتملاً نظنه

إناءً للهوان، فنكســـره أو نلقي به بعيداً. فلو كنا في زمن بطرس وسمعناه ينكر المسيح أمام جارية لقلنا إنه إناءٌ للهوان. ولكن المســيح رآه إناءً للكرامة، وســأله ثلاث مرات: «يا سمعان بن يونا، أتحبني؟» فأعلن بطرس حبَّه للمســيح (يوحنا ٢١: ١٥-١٨)، كما أعلن المسيح حبَّه الغافر لسمعان، ومنحه تكليفاً وتشريفاً لما قال له: «ارع غنمي».. وبعد هذا بأيام قليلة ألقى بطرس عظته في يوم الخمســين فخلص نتيجة سماعها نحو ثلاثة آلاف نفس (أعمال ٢: ٤١).

٢ - رغبةً في تعليم الحنطة دروساً:

عدم قلع الزوان من وسط الحنطة يعلّم الحنطة دروساً روحية متنوعة في الصبر وطول الأناة، لأن وجود الخطاة وســط المؤمنين يعطي المؤمنين فرصةً للصلاة لأجل الخطاة وإعلان الفضائل المســيحية لهم بحياتهم بينهم، ويــعمل على ربحهم للمســيح. وهذا التدريب يجعل المؤمنين أقوى إيماناً، بل إنه يجعلهم لآلئ لامعة، فاللآلئ تتكوَّن من دخول حبة رمل صغيرة في قوقعة حيوان رخوي، فيتألم الحيوان ويفرز مواد تكون ســبباً في تكوين اللؤلؤة. وهكذا يسمح الرب بوجود الزوان وسط الحنطة ليعين الحنطة على صُنع اللآلئ!

٣ - رغبة في إصلاح أمر الزوان:

عدم قلع الزوان من وســط الحنطة يعطي الزوان فرصةً للتوبة. يقول الوحي للزوان: «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته؟ غيــر عالم أن لطف الله إنما يــقتادك إلى التوبة» (رومية ٢: ٤). إن الرب «لا يــشاء أن يــهلك أناس، بل أن يــقبل الجميع إلى التوبة» (٢بطرس ٣: ٩). فلنترك الزوان والحنطة ينميان كلاهما معاً، والــرب قادر أن يــحوّل الــزوان إلـــى حنطة بعمل نعمته. لقد تفاضلت نعمة الله على شاول الــطرسوسي، فقال: «أنا الذي كنت قبلاً مجدِّفاً ومضطهداً ومفترياً، ولكنني رُحمت لأني فعلت بجهل في عدم إيمان. وتفاضلت نعمة ربنا جداً مع الإيمان والمحبة التي في المسيح يسوع» (١تيموثاوس ١: ١٣، ١٤).

ثالثاً - مصير الحنطة ومصير الزوان

«لأن الرب يــعلم طريــق الأبرار. أما طريــق الأشرار فتهلك» (مزمور ١: ٦). «وكثيــرون من الراقدين في تراب الأرض يســـتيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد، والذين ردّوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» (دانيال ١٢: ٢، ٣). ففي النهاية يكافئ الرب أبناء ملكوته فيضيئون كالشمس في ملكوته، ويعاقب من يرفضون مُلكه عليهم بالهلاك الأبدي.

١ - مصير الحنطة:

يــقول سليمان الحكيم: «أما سبيل الصديقين فكنورٍ مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل» (أمثال ٤: ١٨) ويــقول الرســول بولس: «متى أُظهر المســيح حياتنا فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كولوســي ٣: ٣). تنال الحنطة الكرامة، وتُجمع إلى المخزن، ويقول المسيح إنهم «يضيئون كالشمس» في البهاء والطهارة والفرح والإنارة على الآخرين (متى ١٣: ٤٣).

٢ - مصير الزوان:

خلق الله الإنســـان على صورته كشبهه ليعبده ويتمتع به وبخلاصه، وليحيا حياة الأُنس معه هنا على الأرض، وفي ســماواته إلى الأبد، وهو لا يشاء أن يهلك أحد. ولكن الذين يرفضون خلاصه يجنون على أنفســهم، إذ يُجمعون ليُحرقوا في النار الأبدية، وهي نار القصاص لا التطهير، المُعدَّة لا للبشر بل لإبليس وجنوده «وإبليــس الذي كان يــضلهم طُرح في بحيــرة النار والكبريـــت حيث الوحش والنبي الكذاب، وســيُعذَّبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين» (رؤيا ٢١: ١٠). لقد أعطى الرب الزوان فرصة التوبة، ولكنهم لــم يغتنموها، بل رفضوها، فحقَّ عليهم العقاب من «الذي رفشه في يده، وسينقّي بيدره، ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيــحرقه بنار لا تُطفأ» (متى ٣: ١٢). «هناك يكون البكاء وصرير الأســنان» (متى ١٣: ٤٢). «الحائدون عني في التراب يُكتَبون، لأنهم تركوا الرب ينبوع المياه الحية» (إرميا ١٧: ١٣).

يطيل الرب أناته على الخطاة ليتوبوا، لكن يجيء وقت يُغلق فيه باب التوبة. «لذلك كما يقول الروح القدس: اليوم إن ســمعتم صوته فلا تقســّوا قلوبكم» (مزمور ٩٥: ٧، ٨ وعبرانيين ٣: ٧، ٨). «هوذا الآن وقــت مقبول. هوذا الآن يوم خلاص» (٢كورنثوس ٦: ٢). والإنسان الحكيم هو الذي يفهم أن الآن هو وقت الرجوع إلى الله.

لقد جهَّز الله في ملكوته مكاناً للجميع، ويوجد لك مكان أيضاً. كان يوسف حنطة وكان إخوته زواناً . وبعد أن باعوه عبداً وتقدمت بهم الأيام نُخســـت قلوبهم وهم يرون أباهم يعقوب وقد أصابه العمى حزناً على يـــوســـف، ثم ذهلوا وهم يرون يوســف يحتل مكانته العظيمة كرئيس لوزراء مصر، وقد تحقّقت أحلامه، فتغيــّروا من زوان إلى حنطة، بعد أن تابوا وبكوا وندموا عن شرّهم (تكويـــن ٤٤: ١٤-١٧) فصاروا أسباط إسرائيل الاثني عشر.

فإذا لم تكن متأكداً إن كنت من أبناء الملكوت أو من أبناء الشريــر، اطلب الآن من الرب أن يــغيِّر حيـــاتك تغييراً كاملاً، ولينقلك من الظلمة إلى النور ومن ملكوت الشيطان إلى ملكوت ابن محبته. وبدل أن تـــكون من بني الشرير تصبح من أبناء الملكوت، فتتمتع بالحاضر وبالمستقبل أيضاً. ولتكن صلاتك: «اختبرني يــا الله واعرف قلــبي. امتحنّي واعرف أفكاري، وانظر إن كان فيَّ طريــق باطل، واهدني طريقاً أبدياً» (مزمور ١٣٩: ٢٣، ٢٤).

سؤالان

١ - اذكر ثلاثة أسباب جعلت صاحب الحقل يرفض قلع الزوان قبل موسم الحصاد.

٢ - اكتب ثلاث آيات من الكتاب المقدس تصف سعادة المؤمنين المتبررين بدم المسيح.

(ج) نمو الملكوت

مَثَل البذور التي تنمو سراً

هَكَذَا مَلَكُوتُ اللهِ: كَأَنَّ إِنْسَاناً يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو وَهُوَ لا يَعْلَمُ كَيْفَ، لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ: أَوَّلاً نَبَاتاً، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحاً مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ. وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ، لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ (مرقس ٤: ٢٦-٢٩).

يلقي الزارع بذوره في الأرض، لكنه لا يقدر أن يجعلها تنبت. إنه يقدر أن يحيط حقله بسياج، ويحرسه من دوس الحيوان، لكنه لا يقدر أبداً أن يفعل شيئاً للبذور التي بذرها، لأن الله وحده هو الذي ينميها. وبمضيّ الأيام يكبر النبات وتظهر سنابله، وينضج قمحه، إذ تشرق عليه الشمس، وترويه الأمطار، وتقاومه العواصف فيثبت أمامها وتتعمَّق جذوره. وعندما يجيء وقت الحصاد يرسل الزارع المنجل ليحصد محصوله ويجمعه في مخزنه.. وهذا يعني أن علينا أن نعمل باجتهاد تاركين النتائج لله الذي وحده سبحانه ينمّي الكلمة في القلب بقوة خفيَّة هي قوة الروح القدس، الذي يكون في بدء عمله سرّياً في القلب لكنه فعّال، سرعان ما يظهر تأثيره في سيرة المؤمن وسلوكه، فينمو في النعمة ويثمر ثمراً صالحاً. وكلما تقدَّمت الأيام بالمؤمن ينضج ويدرك ما أدركه المسيح لأجله بفعل دفء شمس البر، وإرواء الماء الحي، وإنضاج تجارب الحياة (فيلبي ٣: ١٢).

وعندما تنتهي حياة المؤمن على الأرض، ويحين وقت دخوله إلى راحته الأبدية في السماء، يرسل الرب ملائكته ليحملوه إلى بيته الأبدي، فقد قال المسيح: «أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً. ومتى مضيتُ وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يوحنا ١٤: ٢، ٣). والمؤمن الذي قَبِل بذور الكلمة ونمت فيه ونضجت يتطلع إلى يوم الحصاد، لأنه يوم انتهاء آلامه الأرضية، ويوم بداية الفرح الحقيقي في السماء، ويقول مع الرسول بولس: «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح. ذاك أفضل جداً» (فيلبي ١: ٢٣).

روى البشير مرقس هذا المثل، الذي يصف حياته هو شخصياً في أطوار نموها المختلفة، من نبات إلى سنبل إلى قمح ملآن في السنبل، فقد كان أحد أتباع المسيح، لكن عندما أقبل الجنود للقبض على سيده في بستان جثسيماني، هرب حرصاً على سلامته، تاركاً عباءته (مرقس ١٤: ٥٠، ٥١). ولكن إيمانه الضعيف الخائف نما وتقوّى بعد هذا، فسافر بصُحبة الرسولين بولس وبرنابا في رحلتهما التبشيرية الأولى (أعمال ١٢: ٢٥). ولكن بسبب شدة المتاعب وضغوط الاضطهاد، قرر في منتصف الرحلة أن يعود إلى بيته المريح في أورشليم (أعمال ١٣: ١٣). ولكن إيمانه الذي لم يقوَ على احتمال المتاعب نما وزاد، فأخذه برنابا في رحلة تبشيرية جديدة (أعمال ١٥: ٣٦-٣٩). وشعر الرسول بولس بهذا النمو الكبير في إيمان مرقس، فكتب لتلميذه تيموثاوس يقول: «خذ مرقس وأحضره معك، لأنه نافع لي للخدمة» (٢تيموثاوس ٤: ١١) ثم كتب مرقس الإنجيل الذي يحمل اسمه، وجاء يكرز في مصر.. لقد بدأ مرقس اتِّباعه للمسيح وكأنه نبات مبتدئ، ثم سافر رحلته الأولى مع بولس وبرنابا وهو مثل السنبل، ولكنه في النهاية صار مثل القمح الملآن في السنبل.

ونتعلم من مثَل البذور التي تنمو سرا أربعة دروس:

أولاً - الله والإنسان يعملان معاً

يقبل المؤمنون الكلمة المقدسة التي يزرعها الرب في قلوبهم فيصبحون خليقة جديدة في المسيح، وتكتَب أسماؤهم في سفر الحياة، ويصيرون ورثة ملكوت الله، فيهتفون: «مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانيةً لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات، لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، محفوظ في السماوات لأجلكم» (١بطرس ١: ٣، ٤). ولكنهم لا يكتفون بفائدتهم الشخصية، بل يعملون على إفادة غيرهم وخلاصهم.. وكما يعمل الفلاح باجتهاد عالماً أن الله سينمي الزرع في موعده، وهو لا يعلم كيف يحدث هذا، يعمل المؤمنون باجتهاد، عالمين أن الله سيعطيهم غلة عظيمة، تُشبعهم وتُشبع غيرهم.

ويدعو الله المؤمنين للعمل معه، فقد وجَّه في محبته للبشر نداءً إلهياً يقول: «من أُرسل، ومن يذهب من أجلنا؟» (إشعياء ٦: ٨). وهو ينتظر أن يسمع الإجابة: «هئنذا أرسلني». ومع أنه قادر أن يعمل وحده، إلا أنه يريد أن يكرمنا بأن نذهب من أجله وأن نعمل معه، بالصلاة، ودرس الكلمة، والطاعة، والشهادة. وكل من قبل الكلمة يبذرها، والله ينميها، كما قال الرسول بولس: «أنا غرست وأبلوس سقى، لكن الله كان يُنمي. إذاً ليس الغارس شيئاً ولا الساقي، بل الله الذي ينمي. والغارس والساقي هما واحد، ولكن كل واحد سيأخذ أجرته بحسب تعبه، فإننا نحن عاملان مع الله، وأنتم فلاحة الله» (١كورنثوس ٣: ٦-٩). والمؤمن العامل مع الله يُقال عنه ما قيل عن المرأة التي سكبت الطيب على رأس المسيح: «عملت ما عندها» (مرقس ١٤: ٨)، لأنه ينتهز كل فرصة ليزرع كلمة الله في قلوب المحيطين به ويرويها، لأنهم لن يسمعوا بلا كارز (رومية ١٠: ١٤).

ومع أن «الأرض من ذاتها تأتي بالثمر» لأن حياة البشر والنبات هي من عند الله، إلا أن الزارع يعمل وهو يحس بضآلة عمله المتواضع، وبعظمة عمل قوة الله التي تجعل الأرض تثمر، لأن الزارع ألقى البذور ولكن الله يرسل المطر وأشعة الشمس والهواء.

والزارع المؤمن «ينام ويقوم ليلاً ونهاراً» فيكون نومه ليلاً لا نوم المهمل أو الكسلان، بل نوم العامل الذي يستريح لأنه واثق، لا يخاف من فشل البذور، وينطبق عليه الوصف «يعطي حبيبه نوماً» (مزمور ١٢٧: ٢).. وهو الذي يقوم نهاراً لأنه يرى النمو المتزايد، ثم يفرح بالحصاد، فإن «الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج. الذاهب ذهاباً بالبكاء حاولاً مبذر الزرع مجيئاً يجيء بالبكاء حاملاً حُزمه» (مزمور ١٢٦: ٥، ٦). وقد يتجرَّب الزارع باليأس عندما يتأخَّر ظهور النبات، ولكن الله يشجعه بالقول: «لكل شيء زمان، ولكل أمر تحت السماوات وقت.. للغرس وقت ولقلع المغروس وقت» (جامعة ٣: ١، ٢).

كان ألبرت شوايتزر أستاذ فلسفة يدرِّس في كلية لاهوت بألمانيا (١٨٧٥-١٩٦٥)، وذات يوم رتّبت له زوجته أوراق مكتبه المبعثرة، فاختلطت أوراقه ببعضها. ولما أخذ يُـعيـــد ترتيبها وجد بين أوراقها مجلة عنوانها «جمعية باريس المُرسلَيّة»، فتساءل: ما الذي جاء بها إلى هنا؟.. ولكنه قرأ فيها مقالة عن الحاجة إلى مرسـلين لأفريقيا الاسـتوائية، وأحسَّ أن هذه المقالة رسالة شخصية له من الله. كان يحمل خمس درجات دكتوراه في الـلاهوت والفلسـفة والأدب والموسـيـقى والطب، فسـافر بهذا كله إلى «الـجابون» ليخدم الله، وكتب يقول «وجدتُ حياتي تحقيقها في هذه الخدمة».. لقد كان الزارع هنا كاتباً كتب مقالةً حرّكت قلب العالِم الكبير. ولم يكن كاتب المقال يعلم كيف سيثمر ما كتبه، لكن كتابته أثمرت قمحاً ملأن في السنبل في حياة الدكتور ألبرت شوايتزر، وحياة الذين خدمهم!

وذات مرة كان شابٌ جامعي يســير على غير هُدى في السابعة صباحاً في شوارع جزيرة مانهاتن (نيويورك) حائراً، يفكر في ما هي فائدة الأديان، عندما مرَّ بكنيسة مفتوحة، فدخلها. واندهش وهو يرى أحد أساتذته المشهورين منحنياً يصلي، فقال الشاب في نفسه: لا بد أن هذا الأستاذ العظيم وجد في إيمانه المسيحي فائدة ومعنى. وقرر أن يتبع المسيح. لقد زرع الأستاذ المصلي بذوراً نمت، وهو لا يعلم كيف. تُـرى لو أن الأستاذ الجامعي تكاسل عن الذهاب للكنيسة ذلك الصباح، هل كان الشاب الحائر يجد إجابة صحيحة لسؤاله؟

إنـها ساعةٌ عظيمة لندرك عظمة مسؤوليتنا في العمل مع الله الذي ينمي، حتى لو كنا لا نعرف كيف يحدث النمو. وهو يناديك: «يا ابني اذهب اليوم اعمل في كرمي» فأجبه: «ها أنا يا ســيد» (متى ٢١: ٢٨، ٣٠). واعمل عمل الله ما دام نهار، فسيأتي ليلٌ حين لا يستطيع أحدٌ أن يعمل (يوحنا ٩: ٤).

ثانياً - الله يعمل في صمت

يــعلّمنا هذا المثل أن ملكوت الله يعمل ســراً وفي صمت، لكن النتائج الباهرة لا بد أن تظهر، لأن ملكوت الله ليــس عقيدة ولا عاطفة ولا شعائر، بل هو بذور تدخل القلب وتنمو فيه، وتتجذّر في أعماق نفس الإنســان وتغيِّره. إن المسيحية هي حياة المسيح فينا، فنقول: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ. لي الحياة هي المسيح» (غلاطية ٢: ٢٠ وفيلبي ١: ٢١).

طلب أحدهم من صديق له أن يشرح له الولادة الثانية، فأجابه: «اختبر الولادة الثانية، وسـتعرف ما هـي». ويقول المسيح: «الريح تهب حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من وُلد من الروح» (يوحنا ٣: ٨). وعندما ســأل الفريسـيون المســيح: «متى يأتي ملكوت الله؟» أجابهم: «لا يــأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يــقولون: هوذا ههنا أو هوذا هناك، لأن ها مـلكوت الله داخلكم» (لوقا ١٧: ٢٠، ٢١). فملكوت الله داخل المؤمن، وداخل كل إنسان يقبل كلمة الله، لأن البذور تنمو سراً وفي هدوء.

في البذور حياة كامنة، لا نراها ولا نفهم سر عملها. وحتى لو كانت الأرض التي تستقبلها رديئة، فإن «كلمة الله حيـــة وفعَّالة وأمضى من كل سـيف ذي حدَّين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميزة أفكار القلب ونياته» (عبرانيين ٤: ١٢). وهذا ما رأيناه في تلاميذ المسـيح البســطاء الذين فتنوا المسكونة، لأن قوة الروح القدس عملت بهم، فحرَّكوا قلوب سامعيهم ليروا أنهم خطاة، وأن الله رحيم، وأن الخلاص جاء في المسيح الفادي، فقَبِل سامعوهم رسالة إنجيل محبة الله، وإذا قوة الله تعمل في سرائر مستمعيهم، عملاً تَظهر ثماره العظيمة بوضوح. وهذا يجعلنا نركز على عمل قوة الله، بغَضّ النظر عن قوتنا الشخصية وعن نوعية التربة وقلوب البشر، إن كانت ستقبل البذور أو سترفضها.

ثالثاً - الله يعمل بتأنٍّ

كان كثير من اليهود يســتعجلون مجيء ملكوت الله، فاستخدموا العنف ليجعلوا الناس يطيعون الله، ولكن ملكوت الله لا يأتي بالسـيف «لأن كل الذين يأخذون السـيف بالسيف يهلكون» (متى ٢٦: ٥٢). ويســتطيع الله أن يهزم الشر في العالم بقوته، ولكنه لا يشاء أن يمارس الضغط على البشر، لأنه خلقهم ذوي إرادة حرة وعرَّفه سـبُل الحياة. ثم أن الضغط في ذاته شر. ومن المؤسف أننا نجد في عالمنا من يمارســون العنف لنشر كلمة الله، لأنهم يظنون أنهم بهذا يسارعون بمجيء ملكوت الله على الأرض!.. وإذا كنا نواجه إبليس العدو الذي لا يـهدأ ولا يرحم، فإننا نؤمن أن المسـيح هزمه على الصليب. إذاً «شـكراً لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين، ويُظهر بنا رائحة معرفته في كل مكان» (٢كورنثوس ٢: ١٤). وهذا يدفعنا لأن نسلِّم أنفسنا للمسيح المنتصر فننتصر.

قبل أن يمتلئ تلاميذ المسـيح بالروح القدس انتظروا نتائج سريعة، وفقدوا صبرهم لما أبطأت. وذات يوم أرادوا أن يتوِّجوا المسـيح ملكاً بعدما أشبع خمسة آلاف من خمس خبزات وسمكتين «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده» (يوحنا ٦: ١٥). لقد ظنوا «أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال» (لوقا ١٩: ١١). لكن ملكوت الله سيجيء في اليوم الذي عيَّنه الله، لا في الوقت الذي نطلبه أو نريـده نحن، فقد قال المســيـح: «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه» (أعمال ١: ٧).

صرف الكارز العظيـم وليم كاري أربعين سـنة في الهند قبل أن يرى متجدداً واحداً. وفي أثناء هذه المدة لم ييأس، لأنه كان يعلم أن البذور تنمو سراً، فقام بإلقائها، وأعطاه الله النجاح، بعد أن وجد التشجيع في كلمات الوحي: «نشتهي أن كل واحد منكم يُـظهر هذا الاجتهاد عينه ليقين الرجاء إلى النهاية، لكي لا تكونوا متباطئين، بل متمثِّلين بالذين بالإيمان والأناة يرثون المواعيد» (عبرانيين ٦: ١١، ١٢).

وكثيراً ما نسـمع الناس يوجِّهون للكنيســة انتقادات بسبب ضعف ثمارها. ومن الأمانة أننا نعترف بضعفاتنا، ولكننا لا ننسـى أيضاً نواحي القوة، فلكل شيء موعد، وللثمر قوانين. فلا تسـتعجل النتائج، وعدِّل نفسـك مع التوقيـت والفكر الإلهيين، وانتظر الرب. لا تفتِّح الوردة قبل الأوان فإن هذا يدمِّرها،

ولا تـحفر الأرض لترى إن كانت جذور الزرع الذي زرعته ينمو، فإن هذا يقتله. لكن بالصبر والإيمان ثِق في نوال المواعيـد، ولا تقلق إن لم تنمُ البذور في الآخريـن بالسـرعة التي تريدها. احذر من أن تضغط علـى أولادك أو علـى أصدقائك لـتسـتعجل نموّهم، بل بالمحبة أدفئ قلوبهم فتراهم يـنمون ويـثمرون.. ولا تقلق إن لم تنمُ أنت في النعمة بالسـرعة التي تتوق إليها، فإنك كالقمح الذي شرح لنا المسيح نموَّه في هذا المثل، لا ترى نموَّه بعينيك، لكنه يحدث. فإن كنت تهتم بتصرفاتك، وتجدِّد تكريسك لله، فإن طبيـعتك الروحية تنمو من ذاتها. ولا تنسَ أن النبات الذي يعمِّر هو الذي ينمو ببطء. وكما أن الله صبور معك كن أنت صبوراً مع نفسـك ومع غيـرك. لا تنقِص عمل النعمة فيك بالقلق على عمل النعمة. «إن توانت فانتظرها، لأنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر» (حبقوق ٢: ٣).

رابعاً - الله يبدأ عمله ويكمله

يـبدأ ملكوت الله بالعمل الإلهي في القلوب، ويقول الوحي: «الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحاً يكمِّل إلى يوم يسـوع المسـيح» (فيلبي ١: ٦). ويقول المسيح إن النمو يكون «نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحاً ملآن في السنبل». وهذا يعني أن الله لا يتوقَّف عن العمل حتى يكمل نصره على الشر، خطوة خطوة. وعندما يتم عمل الله يقول: «أرسلوا المنجل لأن الحصيد قد نضج» (يوئيل ٣: ١٣). «وللوقت تظلم الشمس، والقمر لا يـعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السماء تتزعزع. وحينئذٍ تظهر علامة ابن الإنسان في السـماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض، ويبصرون ابن الإنسـان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثيـر، فيرسـل ملائكته ببوقٍ عظيم الصوت، فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح، من أقصاء السماوات إلى أقصائها» (متى ٢٤: ٢٩-٣١).

والـحصاد هو كمال عمل الله بنهاية العالم عندما يسمع المؤمنون قول ربهم: «نِعِمّا أيها العبد الصالح والأمين. كنت أميناً في القليل فأُقيمك على الكثير. ادخُل إلى فرح سـيدك» (متى ٢٥: ٢١). «فإن الذي يزرعه الإنسـان إياه يحصد أيضاً» (غلاطية ٦: ٧). «لأنه لا بد أننا جميعاً نُظهَر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع، خيراً كان أم شراً» (٢كورنثوس ٥: ١٠).

لقد بدأ الحصاد المجيد للنفوس يوم الخمسـين، ولا يزال مسـتمراً طيلة العشرين قرناً التي مضت، وسـيستمر في الازدياد لأن الله يعمل في عالمنا بقوة روحه القدوس معلناً للجميع الأخبار المفرحة عن موت المسـيح وقيامته. فلا يجب أن يعيش أي مؤمن لذاته، لأن المسيح «مات لأجل الجميع كي يعيش الأحيـاء فيما بعد لا لأنفسـهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كورنثوس ٥: ١٥). «لأنْ ليس أحدٌ منا يـعيش لذاته، ولا أحد يموت لذاته. لأننا إن عشنا فللرب نعيش، وإن مُتنا فللرب نموت. فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن» (رومية ١٤: ٧، ٨).

ولكننا نجد للأسف بعض مَن يقضون حياتهم في خدمة نفوسهم فقط، ناسين التحذير: «من يحب نفسه يـهلكها، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية» (يوحنا ١٢: ٢٥). وكلما سمحْتَ للرب أن يبدأ عمله فيك ويتممه، ستخلِّص نفسك والذين يسمعونك أيضاً، وستنتهي حياتك بالفرح والتهليل.

وقد يـــصيب اليأس المؤمنين أحياناً وهم يرون الشر منتشراً في العالم، لكنهم يجب أن يتشجعوا لأن هزيمة إبليس قد بدأت بسحق رأس الحية، وقد أُكمِل الانتصار في الصليب والقيامة المجيدة، لأن المسيح «إذ جرَّد الرياســات والســلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه» (كولوســي ٢: ١٥). وسيكمل الرب الـنصر لملكوته في النهاية. نعم «سيأتي يوم الرب كلصٍّ في الليل، فيه تزول السماوات بضجيج، وتنحل الـعناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها» (٢بطرس ٣: ١٠). ولذلك «جيد أن ينتظر الإنســان ويتوقَّع بســكوت خلاص الرب» (مراثي ٣: ٢٦). عالمين أن «الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرَّة» (فيلبي ٢: ١٣).

إن القائد المنتصر معنا، وهو الذي يـــجهِّز القلوب لتقبل الرســالة، فهو يبكت على الخطايا، ويغيِّر الـقلوب. وسيمنحك الشجاعة والحكمة والفرح عندما تقود النفوس للمسيح، وترى نموهم: نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحاً ملآن في السنبل.

سؤالان

١ - كيف ترى اختبار القديس مرقس في مثل البذور التي تنمو سراً؟

٢ - اســـتعجل تلاميذ المسيح في أول معرفتهم بالمسيح مجيء ملكوت الله، فماذا تعلَّموا هم، وماذا نتعلم نحن من مثل البذور التي تنمو سراً؟

(د) قوة الملكوت

مثلا حبة الخردل والخميرة

قَالَ لَهُمْ مَثَلاً آخَرَ: يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ، وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ. وَلَكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبُقُولِ، وَتَصِيرُ شَجَرَةً حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَتَآوَى فِي أَغْصَانِهَا.

قَالَ لَهُمْ مَثَلاً آخَرَ: يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَخَبَّأَتْهَا فِي ثَلاَثَةِ أَكْيَالِ دَقِيقٍ حَتَّى اخْتَمَرَ الْجَمِيعُ (متى ١٣: ٣١-٣٣).

(ورد هذان المثلان أيضاً في مرقس ٤: ٣٠-٣٢ ولوقا ١٣: ١٨-٢١)

في إحدى سـفرات المسيح مع تلاميذه اتّجهوا نحو مدينة للسامريين، فرفضهم أهلها. وغضب لذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا، فقد كانت خدمة المسيح في بدايتها، وخافا من فشلها، ظنّاً منهما أنه لو أن كل بلدٍ ذهبوا إليـه رفضهم لفشلت الرسـالة قبل أن تكتمل. ودفعهما خوفهما هذا لأن يـطلبا نزول النار على المدينة السـامرية، فقالا للمسيح: «يا رب، أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً؟ فالتفت وانتهرهما وقال: لسـتما تعلمان من أي روح أنتما، لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلّص» (لوقا ٩: ٥٤-٥٦) وأطلق عليهما لقب «ابني الرعد» (مرقس ٣: ١٧).

ويُـطمئِن مثلا حبة الخردل والخميـرة، الصغيرتين في حجميهما والكبيرتين في تأثيرهما، كل تلاميذ المسـيـح عبر العصور بأن ملكوت الله قوي قادر على الانتشار بفضل القوة الداخلية الكامنة فيه، مع أنه يـبدو في بدئه صغيراً. وهو في غير حاجة إلى معونة عنيفة من خارجه لينتشر، لأن هذه البداية الصغيرة لن تتوقّف عن النمو، وهي لا تحتاج إلى سيف أو نار، لأنها مصحوبة بقوة الروح القدس وعمله.

ويـعطي مثلا حبة الخردل والخميرة شرحاً جديداً لطبيعة ملكوت الله، فقد رأينا في مثَل «الزارع» أن الـمسيح وتلاميذه يُلقون بذور كلمة الله في كل مكان، سواء أتت بثمر أم لم تأتِ. وفي مثَل «الزوان وسط الحنطة» رأينا وجود المنافقين وسـط المؤمنين الصادقين، ولكن اليوم الأخير سـيحسم النتيجة. وفي مثَل «الزرع الذي ينمو سراً» أولاً نباتاً، ثم سنبلاً، ثم قمحاً ملآن في السنبل، رأينا قوة كلمة الله وفعاليتها بعمل الروحِ القدس، دون أن «نعرف كيـف». أما في مثَلي حبة الخردل والخميرة فنرى حتميّة امتداد ملكوت الله واتساعه، بالرغم من بدايته التي تبدو متواضعة.

أولاً - بداية الملكوت سماوية

مصدر ملكوت الله ليـس من هذا العالم، فهو مثل حبة خردل أخذها إنسـان من خارج التربة وألقاها فيها. وهو مثل خميرة أخذتها امرأة من خارج الدقيق وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق.. فالملكوت قوةٌ أُدخِلت إلـى العالم من خارجه، جاءته من فوق وليس من اختراع الناس. فلم يكن الخلاص من الخطية نتاج تفكير إنسـاني، ولا من عملٍ قام به البشر، إنما هو عمل قوة نعمة الله المحيية، وعطاء اليد الإلهية المُحيِّة التي تنازلت من السماء إلى البشر لتحيي وتجدِّد وتقدِّس.

عندما أخطأ أبوانا الأولان اختبئا من الله، وحاولا ستر عريهما بورق الشجر. فجاء الله يفتش عليهما، ثم سترهما بأقمصة من جلد حيوان، فأوضح لهما ولنا مبدأ الفداء والتكفير بالذبح العظيم، الذي يرمز إلى المسيح «حَمَل الله». لقد أخذ الله زمام المبادرة، كما يقول الوحي: «ولكن الكل من الله الذي صالحنا لنفسه بيسوع المسيح.. أي أن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه، غير حاسب لهم خطاياهم» (٢كورنثوس ٥: ١٨، ١٩). و«لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال التبني» (غلاطية ٤: ٤).

ثانياً - بداية الملكوت صغيرة

يبدأ ملكوت الله صغيراً مثل حبة خردل، أو مثل خميرة. وكان اليهود يضربون المثل بصغر حجم حبَّة الخردل. ولكن هذه الحبة السوداء الصغيرة متى زرعت ونمت صارت شجرة تتآوى فيها الطيور لتلتقط بذورها. وكانت بذور الخردل تُستعمل كدواء، وتُعصر للحصول على زيت الخردل.. أما الخميرة فهي صغيرة بالمقارنة بحجم الدقيق الذي ستُخبَّأ فيه.

وقد حدثنا الوحي عن أشياء كثيرة صغيرة لكنها ذات نتائج باهرة، منها ملء كف الدقيق وقليل من الزيت التي لم تفرغ ولم تنقص، فأعالت النبي إيليا، وأرملةً، وابنها (١ملوك ١٧: ١٠-١٦)، ومنها كأس ماء بارد قال المسيح عنه: «من سقى أحد هؤلاء الأصاغر كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره» (متى ١٠: ٤٢). ومنها فلسا الأرملة التي قال الوحي عنها إن المسيح: «تطلَّع فرأى الأغنياء يُلقون قرابينهم في الخزانة، ورأى أيضاً أرملة مسكينة ألقت هناك فلسين، فقال: بالحق أقول لكم إن هذه الأرملة ألقت أكثر من الجميع، لأن هؤلاء من فضلتهم ألقوا قرابين الله، وأما هذه فمن أعوازها ألقت كل المعيشة التي لها» (لوقا ٢١: ١-٤)، ومنها خمس خبزات وسمكتان كانت مع ولد أعطاها للمسيح، فباركها وأشبع بها خمسة آلاف نفس (يوحنا ٦: ٩-١٢).

ولقد بدأ إنجيل يسوع المسيح ابن الله (مرقس ١: ١) بميلاد المسيح «كلمة الله» طفلاً مولوداً في مذود، من أم عذراء فقيرة، سافرت رحلة طويلة مع خطيبها لتلده. وبسبب الاضطهاد تركوا مسقط رأسه ولجأوا إلى مصر، ومنها إلى قرية «الناصرة» تحقيقاً لنبوات التوراة. ولمدة اثنتي عشرة سنة لا نسمع عنه شيئاً، حتى نراه في الهيكل يتكلم بعبارات الحكمة (لوقا ٢: ٤٦-٥٠). ثم اختفى عن العيون حتى عمر الثلاثين عندما بدأ خدمة علنية امتدَّت لثلاث سنوات وثلث السنة، انتهت بصلبه. لكن ملكوت الله كان ينبغي أن ينمو ويزيد، فقد قام المسيح من الموت، وظل يظهر لتلاميذه أربعين يوماً، ثم صعد إلى السماء، ومنها ننتظر عودته إلى أرضنا ديّاناً للأحياء والأموات. وقتها ستجثو له كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن المسيح هو رب (فيلبي ٢: ١٠، ١١). إنه كحبة الخردل، مات ودُفن، ولكنه قام منتصراً، وحقَّق قوله: «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمُت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» (يوحنا ١٢: ٢٤).

وفـي بداية خدمته اختار المسيح صحابته من بسطاء الناس الذين وصفهم الرسول بولس بالقول: «اختار الله أدنياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليُبطل الموجود» (١كورنثوس ١: ٢٨)، فقد دعا الصيادَيْن يوحنا وأندراوس لاتِّباعه (يوحنا ١: ٣٩)، فدعا أندراوس أخاه بطرس الصياد (يوحنا ١: ٤٢). ثم دعا المسـيح فيلبس ليتبعه (يوحنا ١: ٤٣)، فدعا فيلبس صديقه نثنائيل ليتعرَّف على المسـيح (يوحنا ١: ٤٧). ثم اختار المسـيح تلاميذه الاثني عشر من الفقراء المتواضعين (مرقس ٣: ١٣-١٩). ولكنهم، بعد أن أرسل المسيح لهم عطيـة الروح القدس، صاروا ملحاً للأرض ونوراً العالم، وفتنوا المسـكونة (أعمال ١٧: ٦) وبدأوا كنيسـة امتدَّت إلى كل الأرجاء، وتآوت «طيور السماء» في ظلها. وكل من يسلِّم نفسه لله ويمتلئ بالروح الـقدس يـخلق الله منه بطلاً، كما خلق من داود راعي الغنم بطلاً هزم جليـات الجبار، ثم ملَّكه على بني إسرائيل، وجعل لقبه «سراج إسرائيل» (١صموئيل ١٦: ٥-١٣ وأصحاح ١٧ و٢صموئيل ٢١: ١٧).

ومع أن التلاميـذ البسـطاء نشروا في العالم رسـالة محبة الله، إلا أنهم لاقوا الاضطهاد والمتاعب والطرد، فقيـل عنهم: «وحدث في ذلك اليـوم اضطهاد عظيم على الكنيسـة التي في أورشليم، فتشتَّت الجميـع.. فالذين تشتَّتوا جالوا مبشِّرين بالكلمة.. أما الذين تشتتوا من جرَّاء الضيق.. فاجتازوا إلى فينيقية وقبرس وأنطاكية» (أعمال ٨: ١، ٤ و١١: ١٩)، فنشروا رسالة المسيح التي أنارت المسكونة.

وإلى جانب التأثيـر الكرازي يحدِّثنا التاريخ عن التأثير الحضاري لهؤلاء البسـطاء، منه أن الراهب تـليماخوس الذي كان يتعبَّد في الصحراء سمع عن مباريات المبارزة بالسيوف في روما، فشعر بدعوة الله له أن يـوقف نزيف الدم هذا. وفي أثناء مبارزة كان يشاهدها ثمانون ألفاً، نزل تليماخوس بثيابه الرهبانية بـين المتبارزيْن ليوقف القتل، فقتله أحدهما. وتأثر الجمهور من قتل الراهب، ومن يومها أوقفت مبارزات القتل بالسيوف. لقد كانت البداية متواضعة ومكلفة، لكن تأثيرها كان عظيماً ومستمراً.

ثالثاً - بداية الملكوت هادئة

حـبة الخردل حبة صغيرة يخفيها رجل في الأرض، والخميرة ضئيلة الحجم تخبئها امرأة في العجين، فلا نعود نسـمع صوت الحبَّة ولا صوت الخميرة، حتى نظن أنهما انتهتا في الأرض، وفي العجين. لكن الحبة والخميـرة تخترقان التربة والعجين وتنتشران فيهما، وتتفاعلان معهما، وتؤثِّران فيهما تدريجياً وفي صمت وهدوء، وتعطيـان نتائج كبيرة أكبر من حجميهما. فالبداية صغيرة وخافتة لا صوت لها، شأنها شأن السـيد المسـيح صاحب الملكوت، فهو «لا يصيح، ولا يسمع أحدٌ في الشوارع صوته» (متى ١٢: ١٩ تحقيقاً لنبوة عنه في إشعيـاء ٤٢: ٢). ولا غرابة فالنصيحة العظيمة تقول: «كفّوا (اهدأوا) واعلموا أني أنا الله، أتعالى بين الأمم، أتعالى في الأرض» (مزمور ٤٦: ١٠)، وما أجمل قول النبي صفنيا: «إن الله يسكت في محبته» (صـفنيا ٣: ١٧). فهي محبة قوية فعَّالة بدون ضوضاء، لأنها مثل النور الذي يضيء المكان دون أن نسمع له صوتاً، ومثل الملح الذي ينتشر في صمت كامل فيعطي الطعام طعمه المقبول ويحفظه من الفسـاد. فحبَّة الخردل وهي تنمو في الأرض، والخميرة وهي تخمر العجين، تعملان بهدوء وبغير ضوضاء.

وقد عمل ملكوت الله في عالمنا بهدوء الواثق، لا بضوضاء الخائف. وكل من ينضمّون إلى هذا الملكوت يسمعون نصيحة موسى لبني إسرائيل: «الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خروج ١٤: ١٤).

رابعاً - بداية الملكوت فعالة

يبدأ ملكوت الله بداية صغيرة، ولكنه ينمو تدريجياً في هدوء، ولا شك أن النصرة النهائية هي لرب الملكوت ولكل من هم له.. وقد تصيبنا البدايات الصغيرة باليأس، فنحاول أن نسندها بالقوة البدنية، لكن ملكوت الله لا يحتاج إلى مثل هذا العون، لأن القوة الكامنة فيه لا تحتاج إلى معونة خارجية، وهي تُنتج نتائج عظيمة وكبيرة. ومهما كان أتباعه قليلين فإنهم أقلية فعالة، وقد قال لهم: «لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سُرَّ أن يعطيكم الملكوت» (لوقا ١٢: ٣٢).

نعم، هناك قوة مغيِّرة كامنة في حبة الخردل وفي الخميرة، وضعها الله داخلهما. فحبة الخردل صغيرة جداً، ولكنها تنمو ليصل ارتفاعها من مترين إلى أربعة أمتار في سنة واحدة. والخميرة صغيرة، لكنها تخمِّر ثلاثة أكيال دقيق (هي الإيفة) يُصنع منها خبز يكفي مئة شخص لوجبة واحدة، فيُقال عنها: «ألستم تعلمون أن خميرة صغيرة تخمِّر العجين كله؟» (١كورنثوس ٥: ٦)، لأنها تجعل العجين مشابهاً لها، وتصيِّره كله من نفس النوع.

يبدأ ملكوت الله في قلب الإنسان الذي يسمع قول المسيح: «هئنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤيا ٣: ٢٠). وعندما يطيعه ويطلب منه أن يدخل قلبه يولد ولادة جديدة، فيبدأ طفلاً في الإيمان، ثم ينمو فيه ويشتهي اللبن العقلي العديم الغش (١بطرس ٢: ٢)، ثم ينمو أكثر فيأكل الطعام الروحي القوي الذي يناسب البالغين (عبرانيين ٥: ١٤). وكل من يسلِّم حياته للرب يمتلئ قلبه بالفرح، ويبدأ الروح القدس يعلّمه دروس كلمة الله العميقة، ويشرح له أبعادها، فيستوعبها ويبدأ فهم ما حدث له، ويشتاق أن يشارك غيره في ما اختبره، ويجاوب الذين يسألونه عن سبب الرجاء الذي فيه (١بطرس ٣: ١٥).

وقد يقرع المسيح باب قلب الإنسان بآية أو عظة أو قصة تغيير حياة شخص، أو نتيجة مواجهة مشكلة يصعب عليه حلّها، فيقول للرب: «ماذا تريد يا رب أن أفعل؟» (أعمال ٩: ٦)، وعندما يستجيب لعمل الرب في قلبه يُستأثر كل فكر فيه لطاعة المسيح (٢كورنثوس ١٠: ٥)، ويصبح شعاره: «خبأت كلامك في قلبي لكيلا أخطئ إليك» (مزمور ١١٩: ١١)، وأخيراً يقول: «قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملتُ السعي، حفظت الإيمان» (٢تيموثاوس ٤: ٦).

ما أسعد من يختار النصيب الصالح الذي لا يُنزع منه (لوقا ١٠: ٤٢)، ويقبل عمل الله في قلبه.

سؤالان

١ - اشرح باختصار طبيعة ملكوت الله كما تراها في مثلي حبة الخردل والخميرة.

٢ - كيف ترى تحقيق مثلي حبة الخردل والخميرة في حياة المسيح على أرضنا؟

(هـ) عظمة قيمة الملكوت

مثلا الكنز المخفَى، واللؤلؤة الثمينة

أَيْضاً يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ كَنْزاً مُخْفىً فِي حَقْلٍ، وَجَدَهُ إِنْسَانٌ فَأَخْفَاهُ. وَمِنْ فَرَحِهِ مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَى ذَلِكَ الْحَقْلَ.

أَيْضاً يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَاناً تَاجِراً يَطْلُبُ لآلِئَ حَسَنَةً، فَلَمَّا وَجَدَ لُؤْلُؤَةً وَاحِدَةً كَثِيرَةَ الثَّمَنِ مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَاهَا (متى ١٣: ٤٤-٤٦).

يــــوضّح مثلا الكنز واللؤلؤة طبيعة ملكوت الله في أنه ثمين ومفرح، مثل حقل يحوي كنزاً، ولؤلؤة رائعة يـــخطف بريقها الأبصار. وكل من يجد هذا الكنز وهذه اللؤلؤة لا يملك إلا أن يترك كل ما معه، ويــتنازل عن كل ما يملكه في سبيل الحصول عليهما. وفي المثلين نرى أن الذي اشترى الحقل واللؤلؤة هو الخاطئ، وأن الحقل هو العالم، وأن الكنز واللؤلؤة هما المســـيح، وأن الثمن المدفوع في الشراء هو ترك الإنسان لحياته القديمة بالتوبة، واتّباع المسيح بكل القلب.

ومـــن هذين المثلين نتعلم أن البعض يجدون ملكوت الله بدون أن يبحثوا عنه، كما وجد الفلاح الكنز في الحقل، بينما يجده البعض الآخر بعد بحث وتفتيش، كما وجد التاجر اللؤلؤة. ولكن سواء كان العثور عليـــــه بغير بحث، أو بعد كبير بحث، فإن الفضل في العثور عليه يرجع إلى الرب الصالح الذي يفتش عن الواحد الضال حتى يـــجده (لوقا ١٥: ٤)، «لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان، وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال، كيلا يفتخر أحد» (أفســـس ٢: ٨، ٩). وفي كل حال يستحق ملكوت الله أن نضحي بكل شيء لنحصل عليه.

وقد يـرمز الكنز واللؤلؤة إلى المســـيح المخلّص نفســه «المذخَّر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» (كولوســـي ٢: ٣)، أو قد يشيران إلى عطاياه: وهي الحياة الأبدية، وغفران الخطايا، وسماء المجد التي تلمع كحجر يشب بلوري (رؤيا ٢١: ١١). فعندما تكون لنا علاقة شخصية بالمســـيح تُكتب أسماؤنا في ســـفر الحياة، وننال غفران خطايانا، ونصبح ورثة السماء، ونسمع القول: «تعالوا يا مباركي أبي، رِثوا الملكوت المعدّ لكم منذ تأسيس العالم» (متى ٢٥: ٣٤).

ويـعلّمنا المثلان أن الملكوت أمر شخصي، يجب أن يبيع الإنسان كل ما عنده ليحصل عليه، فيصير الملكوت له «كمخبإٍ من الريح وستارة من السيل، كسواقي ماء في مكان يابس، كظل صخرة عظيمة في أرض معيـــية» (إشعياء ٣٢: ٢). ونحن لا ننتمي إلى الملكوت لأننا ننتمي إلى كنيســـة معيَّنة، ولا لأننا وُلدنا في عائلة مؤمنة، لكن لأن الواحد منّا اتّخذ قراراً شخصيـــاً بتســـليم حياته للمســـيح، فيختبر الرب لنفســـه. صحيحٌ أن تربيتنا الأولى في بيتٍ مؤمن تساعدنا أن نجد المسيح بسبب قدوة أبوينا وصلواتهما لأجلنا وتعليمهما الديني لنا، لكن العثور على الكنز مسؤولية فردية.

وليـــس المقصود بالمثلين أننا نشتري ملكوت الله، فهو لا يُشترى بمال، لذلك يهبه الله لنا مجاناً، فإن هبة الله هي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا (رومية ٦: ٢٣).

ولـيـس الـمقصود بمثل كنز الحقل أن نخفي ثروة يـملكها غيـرنا لنأخذها نحن، فقد أوضح العلامة «إدارشايم» أن القانون اليهودي كان يقول إن من يجد عملات في وســط قمح اشتراه، تكون العملات له، وإن من وجد كنزاً في حقل يــكون الــكنز له، إن هو اشترى الحقل. ولكن المقصود بالمثليــن هو قيــمة الملكوت العظيــمة وتكلفته الكبيرة، فهو ثمين جداً، يســتحق أن نضحي بكل شيء لنحصل عليه. وهو كنز ثمين لأن فيه رضى الله، وفيه الحياة الأبدية، وهو الميراث الذي لا يفني ولا يتدنس ولا يضمحل (١بطرس ١: ٤)، والذي وحده يملأ احتياج كل إنســان.. ولذلك يضحي الإنســان بكل شيء في سبيل امتلاكه، كما حســب موسى عار المسيح غنى أفضل من خزائن مصر (عبرانيين ١١: ٢٦)، وكما ترك الرسول بولس كل شيء ليــحصل على الكنز واللؤلؤة، وقال: «لكن ما كان لي ربحاً فهذا قد حســبته من أجل المســيح خســارة. بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خســرتُ كل الأشياء وأنا أحســبها نفاية لكي أربح المســيح وأوجَد فيه» (فيلبي ٣: ٧-٩). وقال القديس أغســطينوس في اعترافاته: «الذي كنتُ أخاف من مفارقته صار تسليمُه موضوع فرحي، لأنك يا رب، يا صاحبَ الحلاوة المطلَقة الحقيقية طردتَه من داخلي، وحللتَ بنفسك مكانه، يا أحلى من كل لذّة!».

وكــل من يتأكّد من بركات المسيح يترك خطاياه، ولا يعنيه حُكم الناس عليه، ويضع كل خير دنيوي فــي المرتبة الثانية، وينكر نفسه ليتبع المسيح.. بل إنه يترك أغلى ما عنده حتى لا يتعطل عن الحصول عــلى بركات الإنجيل، فيترك محبُّ المال بُخله، ويهجر الكسلان خموله، ويتخلى الشهواني عن شهواته، لأنه يفهم قول المسيح: «من أحبَّ أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب ابناً أو ابنةً أكثر مني فلا يســتحقني. ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يســتحقني. من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها» (متى ١٠: ٣٧-٣٩).

وســنتأمل في مثل الكنز المخفى الذي يرمز للذين يلتقي المســيح بهم دون أن يطلبوه، فهؤلاء يطلبهم المسيح. ثم نتأمل مثل اللؤلؤة الثمينة الذي يرمز للذين يلتقون بالمسيح بعد أن يكونوا قد طلبوه وفتّشوا عليه.

أولاً - الذين يطلبهم المسيح

يــصوّر لنا مثّل الكنز المخفى في حقل حالة الإنسان الذي يجد المسيح بما يصفه البعض أنه «محض الصدفة» ولو أن الحقيقة هي أن الله يكشف هذا الكنز للإنسان دون طلب من ذلك الإنسان.

وفي زمن روايــة المثّل لم تكن هناك بنوك، وكان الغزاة واللصوص يهاجمون البيوت والقرى والمدن وينهبون كل شيء، فكان الناس يحتفظون بكنوزهم في أوانٍ فخارية يدفنونها في الحقول، ليســتردوها بعد جلاء الغزاة. وكان بعض أصحاب الكنوز يــموتون تاركيــن كنوزهم وراءهم فتظل مدفونة إلى أن يعثر أحدهم عليها بالصدفة. ويقول مثّل الكنز المخفى في حقل إن فلاحاً كان يعمل في حقل عندما اصطدم فأسه بآنية فخارية تحوي كنزاً، فأخفى ما وجده، ومضى وباع كل ما يملكه واشترى الحقل ليكون الكنز له.

وفي عالمنا حقول كثيــرة فيـــها كنوز، منها الأســرة، والعلم، والفن، والمال، والصداقة، والأدب، والرياضة، والسياسة، والمركز الاجتماعي.. لكنها كلها كنوز مؤقتة وفانية، ولا تُشبع إلا حاجات الجسد الفاني. لكن الحاجة الحقيــقية الأبدية التي تُشبع النفس والروح هي إلى الكنز الواحد الذي هو المســيح، الذي يســتحق أن نترك كل شيء في سبيل اتباعه، فنكون مثل مريم التي تركت كل شيء وجلست عند قـدمي المسيح تسمع كلامه، بينما أختها مرثا (التي كانت أيضاً تحب المسيح) مهتمَّة بأمور أخرى كثيرة إلى جانب اهتمامها بالمســيح! وعندما اشتكت مرثا من أختها مريم، قال المســيح: «مرثا، أنت تهتمين وتـضطربين لأجل أمور كثيرة. ولكن الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها» (لوقا ١٠: ٤١، ٤٢). ويـقول المرنم: «نظروا إليـــه واســتناروا، ووجوههم لم تخجل.. ذوقوا وانظروا ما أطيــب الرب. طوبى للرجل المتوكل عليه. اتَّقوا الرب يا قدِّيســيه، لأنه ليس عوزٌ لمتَّقيه. الأشبال احتاجت وجاعت، أما طالبو الرب فلا يــعوزهم شيء من الخير» (مزمور ٣٤: ٥، ٨-١٠)، فيحتلُّ الله المكانة الأولى في عواطفنا وإرادتنا وعقلنا، ويجيء كل شيء في حياتنا بعده.

ومن المؤســف أن كثيرين في هذا العالم عندما يســمعون عن هذا الكنز السماوي لا يفهمون قيمته، لأنهم يظنون أنفســهم أغنياء وحكماء وأبراراً، أو لأنهم لامبالين، أو ساخرين. ويقول الوحي: «الإنسان الطبيـعي لا يـقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة، ولا يـقدر أن يـعرفه لأنه إنما يُـحكم فيه روحياً» (١كورنثوس ٢: ١٤)، ولأن «إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين» (٢كورنثوس ٤: ٤).

ولكن كم نشكر الله الذي يــفتح عيوننا لنرى كنزه. وما أجمل قول «ذو النون» الصوفي االمصري: «عرفت ربي بربي. ولولا ربي ما عرفت ربي». ويــقول المســيــح: «ليــس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر، ويـدوم ثمركم» (يــوحنا ١٥: ١٦). وعندما نحصل على الكنز الإلهي تُســدَّد كل ديون ماضينا، وتتوفَّر لنا حياة سعيدة هانئة بدون هموم ولا احتياجات، ويكون الكنز بركة لمســتقبلنا ومستقبل أولادنا «الذرية تتعبَّد له. يُخبَّر عن الرب الجيل الآتي. يأتون ويخبرون ببرِّه شعباً سيُولد، بأنه قد فعل» (مزمور ٢٢: ٣٠، ٣١).

ونحن نجد كنز الغِنى الأبدي في الكتاب المقدس الذي هو «أشهى من الذهب والإبريز الكثير» (مزمور ١٩: ١٠)، وقد أوصانا المســيح: «فتِّشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي» (يـوحنا ٥: ٣٩).. كما نجده في ممارسة وسائط النعمة من صلاة وتعبُّد.. ونجده في صُحبة المؤمنين الذين نشتهي أن نكون مثلهم، لأننا نرى أعمالهم الحســنة فنمجد الآب السماوي (متى ٥: ١٦). وعندما نجد الكنز نغتني، ونكون قد أطعنا وصية المسيح: «أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفًّى بالنار لكي تستغني، وثياباً بيــضاً لكي تلبس» (رؤيا ٣: ١٨)، فنضع قلوبنا على هذا الغِنى الروحي و«حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيـضاً» (متى ٦: ٢١).. وفي غِنانا نقدر أن نُغني غيــرنا كما قال الحكيــم: «شفتا الصدِّيق تهديان كثيرين» (أمثال ١٠: ٢١). ولا خوف من نفاد الكنز وانتهائه، فلنشارك غيرنا فيه، لأنه يكفي الجميع.

وكما وجد الفلاح الكنز في الحقل دون أن يفتش عنه، وجد كثيرون المسيح دون أن يطلبوه، بحسب القول: «وجدت من الذين لم يطلبوني، وصرت ظاهراً للذين لم يسألوا عني» (رومية ١٠: ٢٠ مقتبسة من إشعياء ٦٥: ١).. ومن هؤلاء: الرعاة الذين ظهرت لهم الملائكة وبشّرتهم بولادة المسيح، فتركوا قطعانهم ليروا الأمر الواقع الذي أعلمهم الرب به، وزاروا الطفل في المذود (لوقا ٢: ١٥، ١٦)، ومنهم لاوي الذي دعاه المسيح ليتبعه، فترك وظيفته وتبع المسيح (متى ٩: ٩)، ومنهم السامرية التي عرض المسيح عليها الماء الحي فارتوت، ومضت تخبر أهل بلدها سوخار عن المسيح (يوحنا ٤: ٢٨)، ومنهم زكا الذي طلب المسيح أن يحلّ ضيفاً في بيته، فرحّب زكا به، ثم أعلن المسيح أن زكا وأهل منزله قد نالوا الخلاص (لوقا ١٩: ١-١٠). ومنهم شاول الطرسوسي الذي صار بولس الرسول (أعمال ٩: ١-٢٢). ومنهم الأسقف الميثودستي جون سبحان من حيدرأباد، الذي قرأ نسخة من الإنجيل أهداها له صديق يظن أن الإنجيل محرّف. ولكنه لم يجد فيه أثراً لزندقة، ولا ما يدفع أصحابه لتحريفه، ولا سبباً يجعلهم يلفّقون قصة الصلب بما فيها من عار على مؤسس المسيحية، وأذهلته المبادئ السامية في الموعظة على الجبل، فقبل خلاص المسيح.. وما أكثر من يجدون اليوم رسالة الخلاص وهم يتنقلون بين إذاعات الراديو أو قنوات التلفزيون، بدون قصد منهم.

ثانياً - الذين يطلبون المسيح

يقدّم لنا مثل التاجر الذي كان يطلب اللآلئ الحسنة، فوجد لؤلؤة فريدة جعلته يبيع كل ما عنده ليشتريها، صورةً للذين يفتشون على ملكوت الله فيجدونه، وينطبق عليهم القول: «إن دعوت المعرفة، ورفعت صوتك إلى الفهم. إن طلبتها كالفضة وبحثت عنها كالكنوز، فحينئذ تفهم مخافة الرب وتجد معرفة الله» (أمثال ٢: ٣-٥). فإن «الحكمة.. هي أثمن من اللآلئ، وكل جواهرك لا تساويها» (أمثال ٣: ١٥). ويشجعنا المسيح على طلب ملكوت الله بقوله: «اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم» (متى ٧: ٧).

لقد خرج هذا التاجر وهو يطلب شيئاً غير عادي، لا يطلبه معظم الناس، فوجد كل ما يرجوه في لؤلؤة واحدة بهرت عينيه وجذبت قلبه، فقرر أن يحصل عليها ولو كلفه هذا كل ما يملك.. وهو يعلمنا أننا نجد في المسيح الغِنى كله، فنبيع أحقادنا وكراهيتنا وشهواتنا وأحلامنا الجسدية، ونتبع المسيح بغير إبطاء، وبعزم القلب، وبفرح حقيقي. وهي صفقة لا نندم عليها أبداً، وكلما مضت الأيام بنا نكتشف روعة ما وجدناه، ونقول مع الرسول بولس: «كحزانى ونحن دائماً فرحون. كفقراء ونحن نُغني كثيرين. كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء» (٢كورنثوس ٦: ١٠).

ومن المفرح أن هناك رجاءً لكل من يطلب وجه الله، لأنه يقدر أن يقول: «لم تترك طالبيك يا رب.. لك قال قلبي: قلتَ اطلبوا وجهي. وجهك يا رب أطلب» (مزمور ٩: ١٠ و٢٧: ٨).

ومن الذين فتشوا على الملكوت فوجدوه: المجوس، الذين قالوا إنهم رأوا نجم ملكٍ يولد لبني إسرائيل، فجاءوا إلى أورشليم ليسجدوا له، ثم مضوا إلى بيت لحم حيث وجدوه وسجدوا له، وقدموا له هدايا: ذهباً ولباناً ومُراً (متى ٢: ١-١٢)، ومنهم وزير المالية الحبشي الذي سافر من الحبشة إلى أورشليم، واشترى

مخطوطة سفر النبي إشعياء، وجعل يقرأ «مثل شاة سيق إلى الذبح، ومثل خروف صامت أمام الذي يجزّه..» وهو يتساءل: عن من يقول النبي هذا؟ فأرسل الله له فيلبس المبشر ليشرح له نبوات التوراة، ويقوده لمعرفة المسيح، ويعمده، فيمضي في طريقه عائداً إلى الحبشة بكل الفرح (أعمال ٨: ٢٦-٤٠).

ويُشبَّه المثل المسيح بلؤلؤة لأنه صلب قوي لا يتغير في إعلان الحق وفي خدمة البشر، وقد ظهرت صلابته يوم «ثبّت وجهه لينطلق إلى أورشليم» (لوقا ٩: ٥١)، وهو يعلم أنها ستصلبه، ولكنه «من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عبرانيين ١٢: ٢).

واللؤلؤة ذات بريق رائع. وبريق المسيح هو نور حياته، ونور تعليمه، ونور خلاصه، وهو القائل: «أنا هو نور العالم. من يتبعني لا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة» (يوحنا ٨: ١٢).

واللؤلؤة لا يطرأ عليها تغيير ولا تصدأ. والمسيح هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد (عبرانيين ١٣: ٨).

واللؤلؤة تبقى ثروة للعائلة جيلاً بعد جيل. والمسيح هو الغني الذي يُغني، وهو الذي من أجلنا افتقر وهو غني، لنستغني نحن بفقره (٢كورنثوس ٨: ٩).

واللؤلؤة تُجمّل. والمسيح «يجمّل الودعاء بالخلاص» (مزمور ١٤٩: ٤).

واللؤلؤة تترك تأثيرها الذي لا يُمحى في كل من وما تحتكُّ به. والمسيح يشفي منكسري القلوب، وينادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، ويرسل المنسحقين في الحرية (لوقا ٤: ١٨).



لقد وُجد الكنز بعد حفر، ووُجدت اللؤلؤة بعد طول طلب. وفي الحالتين اعتُبر الكنز واللؤلؤة فوق كل شيء، ويستحق التضحية بكل شيء في سبيل الحصول عليه. فماذا ستفعل ليكون ملكوت الله لك؟.. الكنز قيِّم تعتمد عليه وحده لضمان مستقبلك. ولكنك قد تجد كنزاً تظنه ذا قيمة، وهو في الواقع لا قيمة له، فتضحي لأجله بلا فائدة. وهناك معادن زائفة، وقد قال الحكيم: «توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت» (أمثال ١٤: ١٢)! فابحث عن القيِّم، ولا تنسَ أننا لن نحصل على اللؤلؤة إلا في هذه الحياة، فلنغتنم الفرصة السانحة الآن «لأنه يقول: في وقت مقبول سمعتك، وفي يوم الخلاص أعنتك. هوذا الآن وقت مقبول. هوذا الآن يوم خلاص» (٢كورنثوس ٦: ٢)!

سؤالان

١ - استخرج من مثلَي الكنز المخفى واللؤلؤة الثمينة كيف يجد الناس ملكوت الله؟

٢ - ما هي أوجه الشَّبه بين المسيح واللؤلؤة الثمينة؟

٣ - الآب يطلب أبناء لملكوته

(أ) التفتيش عن الضال - مثلا الخروف الضائع،

والدرهم المفقود لوقا ١٥: ١-١٠

(ب) انتظار عودة الضال - مثل الابنين الأكبر والأصغر لوقا ١٥: ١١-٣٢

(أ) التفتيش عن الضال

مثلا الخروف الضائع والدرهم المفقود

وَكَانَ جَمِيعُ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ يَدْنُونَ مِنْهُ لِيَسْمَعُوهُ. فَتَذَمَّرَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَالْكَتَبَةُ قَائِلِينَ: هَذَا يَقْبَلُ خُطَاةً وَيَأْكُلُ مَعَهُمْ. فَكَلَّمَهُمْ بِهَذَا الْمَثَلِ: أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ لَهُ مِئَةُ خَرُوفٍ وَأَضَاعَ وَاحِداً مِنْهَا، أَلا يَتْرُكُ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ وَيَذْهَبَ لأَجْلِ الضَّالِّ حَتَّى يَجِدَهُ؟ وَإِذَا وَجَدَهُ يَضَعُهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ فَرِحاً، وَيَأْتِي إِلَى بَيْتِهِ وَيَدْعُو الأَصْدِقَاءَ وَالْجِيرَانَ قَائِلاً لَهُمْ: افْرَحُوا مَعِي لأَنِّي وَجَدْتُ خَرُوفِي الضَّالَّ. أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ هَكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارّاً لا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ.

أَوْ أَيَّةُ امْرَأَةٍ لَهَا عَشْرَةُ دَرَاهِمَ إِنْ أَضَاعَتْ دِرْهَماً وَاحِداً، أَلا تُوقِدُ سِرَاجاً وَتَكْنِسُ الْبَيْتَ وَتُفَتِّشُ بِاجْتِهَادٍ حَتَّى تَجِدَهُ؟ وَإِذَا وَجَدَتْهُ تَدْعُو الصَّدِيقَاتِ وَالْجَارَاتِ قَائِلَةً: افْرَحْنَ مَعِي لأَنِّي وَجَدْتُ الدِّرْهَمَ الَّذِي أَضَعْتُهُ. هَكَذَا أَقُولُ لَكُمْ يَكُونُ فَرَحٌ قُدَّامَ مَلائِكَةِ اللَّهِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ (لوقا ١٥: ١-١٠).

(ورد مثل الخروف الضائع أيضاً في متى ١٨: ١٢-١٤)

روى المسيح ثلاثة أمثال هي «الخروف الضائع» و«الدرهم المفقود» و«الابن الضال» رداً على النقد الذي وجَّهه إليه الفريسيون المتزمّتون والكتبة العارفون بالشريعة، الذين تذمروا عليه لأنه يقبل خطاة ويأكل معهم. فقد كان جميع العشارين والخطاة يقتربون منه ليسمعوه، لأنهم شعروا بخطاياهم، ولم يجدوا في تعاليم شيوخ اليهود ما يرشدهم إلى طريق المصالحة مع الله، بينما وجدوا عنده قبولاً، وسمعوا في تعليمه ما ملأ نفوسهم بالأمل في الغفران الإلهي، بعد أن كانوا يظنون أنهم مرفوضون من السماء والأرض!

لقد رأى المتديِّنون والخطاة معاً كيف سمح المسيح لامرأة خاطئة أن تبل قدميه بالدموع وتمسحهما بشعر رأسها، وتقبِّل قدميه وتدهنهما بالطيب، فقال سمعان الفريسي: «لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه، وما هي. إنها خاطئة!» (لوقا ٧: ٣٧-٣٩). كما سمع المتدينون والأشرار معاً المسيح وهو يقول لزكا العشار الخاطئ: «ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك» فأسرع زكا وقبله فرحاً. فلما رأى الجميع ذلك تذمروا قائلين: «إنه دخل ليبيت عند رجل خاطئ» (لوقا ١٩: ٥-٧).

وقال شيوخ اليهود إن المسيح الذي يجلس مع الأشرار لا بد أن يكون منهم، وإن شبيه الشيء منجذب إليه، وإن الإنسان يُعرف من أصحابه. ولم يفهموا قوله: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب. بل المرضى.. لأني لم آتِ لأدعو أبراراً، بل خطاة إلى التوبة» (متى ٩: ١٢، ١٣)، وتغافلوا قول الله: «لأنه هكذا قال السيد الرب: هئنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها.. وأطلب الضال، وأسترد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح» (حزقيال ٣٤: ١١، ١٦). وعندئذٍ شرح المسيح طبيعة رسالته، وهي طلب البعيد والتفتيش عن الضال.

وتصوِّر لنا هذه الأمثال الثلاثة محبة الله، فالخروف الضائع والدرهم المفقود يريانا المحبة التي تحتمل كل شيء وهي تطلب الضال وتفتش عليه، أما مثل الابن الضال فيرينا محبة الله التي ترحِّب بالضال الراجع،

«وتحتمل كل شيء، وتصدّق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبر على كل شيء» (١كورنثوس ١٣: ٧).

ونرى في الأمثال الثلاثة عُمق شقاء الخاطئ، فيُـريـنا مثل الخروف الضائع غباوة الخاطئ الذي يـترك المرعى الأخضر ليـضيع في أرض الجوع، معرّضاً نفسـه لافتراس الذئاب وذبح اللصوص. ويـريـنا مثل الدرهم المفقود الخاطئ غير العاقل الذي يضل ولا يدري أنه ضل، فيُدفَن تحت التراب. ويرينا مثل الابن الضال الخاطئ الثائر على الله.

وفـي الأمثال الثلاثة نرى شرحاً واضحاً لخُطة المسيح لخلاص البشر، وردّ المسيح على المتعصّبين المتكبّرين، وتشجيعاً قوياً للتائبين الراجعين إلى الله.

فتعالوا نتأمل تصويراً مؤلماً للضياع، واهتماما جاداً في التفتيش، وحفلاً مليئاً بالابتهاج.

أولاً - الضياع المؤلم

١ - ضياع الخروف:

تشتهر الـخراف بسـرعة الضلال، فهي تتبع أي خروف من القطيـع دون أن تنتبه إلى توجيـهات الراعي. وهي لا تعرف كيف ترجع، كما أنها لا تقدر أن تحمي نفسـها من المخاطر. ويقول الوحي إن الـخاطئ يشبه الخروف الضال: «كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى طريقه» (إشعياء ٥٣: ٦). ويصفهم النبي إرميـا بقوله: «إنهم مسـاكيـن. قد جهلوا لأنهم لم يـعرفوا طريق الرب» (إرميا ٥: ٤). ويحدّثنا الرسـول بطرس عن حماقة الأثمة، ويذكر بلعام كنموذج لهم، فيقول: «تركوا الطريق المسـتقيم، فضلّوا تابعيـن طريق بلعام بن بصور الذي أحب أجرة الإثم. ولكنه حصل على توبيخ تعدّيه إذ منع حماقة النبي حمارٌ أعجم ناطقاً بصوت إنسـان» (٢بطرس ٢: ١٥، ١٦ - قصة بلعام وحماقته في سـفر العدد ٢٢-٢٤). وكان «ديـماس» أحد الذين ضلوا عن الراعي الصالح بعد أن اختبر صلاحه، بالرغم من أنه كان من صحابة الرسـول بولس، فكتب عنه يقول: «ديماس قد تركني إذ أحب العالم الحاضر» (٢تيموثاوس ٤: ١٠). وقال الرسول بولس عن بعض الضالين: «لأن كثيرين يسيرون، ممّن كنت أذكرهم لكم مراراً، والآن أذكرهم أيضاً باكياً، وهم أعداء صليب المسيح» (فيلبي ٣: ١٨).

وعندما يـضل الخروف يـفقد رعايـة الراعي وعنايـته الحكيمة، ولا يجد المرعى الآمن والماء المروي، ويعرّض نفسه لمخاطر القفر وسط الأشواك والذئاب واللصوص، دون أن يُدرك مقدار الخطر الذي يـتعرَّض له. ولكن الراعي الصالح في محبته ورعايته لا يترك الضائع، لأنه مرتبطٌ به عاطفياً، فـقد رآه وهو يولد، واعتنى به، وسيعتني بنسله. ولهذا يذهب ليفتش عنه بغير كلل إلى أن يجده، مع أن هذا الضائع هو الذي آذى نفسه.

وبالمعنى الروحي يرى «الراعي الصالح» بداية الإنسـان الذي خلقه على صورته ليعيش معه لكنه ضل عنه، فشوَّهته الخطيـة، ويرى حاضره السـعيد لو أنه رجع إلى حظيرته فوجد الأمان والطعام،

ويرى مستقبله إذ يصبح عضواً صالحاً في ملكوت الله، يهدي غيره، ويكون مصيره حياة أبدية. ولهذا يفتش على الواحد الضال.

٢ - ضياع الدرهم:

ضاع الخروف خارج نطاق رعاية الراعي، وضاع الدرهم في البيت وسط القش أو في التراب، ولو أن هذا الضياع لم يمحُ الصورة المنقوشة عليه، والتي تميِّزه وتوضح قيمته. كان الدرهم واحداً من عشرة دراهم نظمتهم المرأة عقداً تتزيَّن به وتدَّخره، فكان ضياعه تشويهاً للعقد وتنقيصاً لقيمته. والأغلب أنها «شَبْكة» عريسها لها، أو هديته لها يوم زواجهما. وكان انفراط العقد، أو ضياع درهم منه يؤلمها عاطفياً لأنه رمز ارتباطها بمن تحب، ولأنها كانت تعتبر الضياع فألاً سيئاً يؤذن بموت زوجها، أو طلاقها منه. فكانت خسارة الدرهم مادية ومعنوية معاً.

ويضيع الإنسان وهو يجري وراء المال أو الشهوة، فلا يرى العلامات الإرشادية التي تحدِّد له الاتِّجاه الصحيح وطريق السير الآمن، متغافلاً النصيحة الإلهية: «أعلِّمك وأرشدك الطريق التي تسلكها. أنصحك. عيني عليك» (مزمور ٣٢: ٨). وهو بهذا يضيِّع نفسه ويضيِّع أسرته، ويخسر صلته بإلهه، وهو يجهل أنه ضائع.

ثانياً - التفتيش الجاد

كشف لنا المسيح أن الضائع لا ولن يُنسى، فلا بدَّ أن «صاحبه ومالكه» سيفتش عليه، لأنه يعتبره ذا قيمة كبيرة. لهذا بذل الراعي والسيدة غاية جهدهما في التفتيش. ولم يكن تفتيشهما روتينياً ولا مجرد تأدية واجب، لكنه كان بعزم وإصرار «حتى يجده» و«حتى تجده».

أحب الراعي خروفه الضائع، فلم يقل إنه مجرد واحد من مئة، بل ترك التسعة والتسعين وذهب يفتش عن هذا الواحد. وفي بحثه ثابر وهو يصعد جبلاً وينزل وادياً ويدوس على أشواك وأحجار تُدمي قدميه. إنه صورة باهتة للمسيح المصلوب، الذي أدمته مسامير اليدين والرجلين وإكليل الشوك وطعنة الحربة، ولكن هذا كله لم يثنِه عن إصراره على تخليص الضالين، فهو يبحث عنهم دائماً ويقول: «أرسلتُ إليكم كل عبيدي الأنبياء مبكِّراً ومرسِلاً قائلاً: ارجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة، وأصلحوا أعمالكم، ولا تذهبوا وراء آلهة أخرى لتعبدوها، فتسكنوا في الأرض التي أعطيتكم وآباءكم» (إرميا ٣٥: ١٥). ويظل يدعو الضال حتى يسمع ويفتح باب قلبه!.. وفتشت المرأة بلهفة، دون أن تنتظر إلى الصباح، فأضاءت المصباح، وجعلت تبحث وهي تكنس كل ركن من أركان البيت، وفعلت كل هذا بلا تردد ولا تذمر ولا توقُّف، إلى أن وجدت درهمها المفقود.

البحث عن الضال هو إرادة الإله الذي يحب البشر، وهو المنطق السليم، فقد سأل المسيح سامعيه من اليهود الذين يحفظون السبت بتزمُّت: «من منكم يسقط ثوره أو حماره في بئر ولا ينتشله حالاً في يوم

السـبت؟» (لوقا ١٤: ٥) فإن انتشال الغريق والبحث عن الضال المعرَّض للخطر أهم من طقوس حفظ يوم السـبت. و بسـيب حبه للخطاة عاد يسأل منتقديه: «أي إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحداً منها.. أو أيـة امرأة لها عشرة دراهم، إن أضاعت درهماً واحداً؟». وأراد بتسـاؤله أن يفتح بصيرتهم ليدركوا قيمة النفس الإنسانية الخالدة التي تفوق قيمة الخروف والدرهم!

ويعلّمنا المثلان أن الله يملك البشر جميعاً لأنه خلقهم، ولأنه يعتني بهم، ثم لأن المسـيح افتداهم «بدمٍ كريـم كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسـيح» (١بطرس ١: ١٩).. ولما كانوا ملكه فهم أعزّاء عليـه، يـدعوهم أولاده. فليس الله خالقاً فقط، ولا هو اسـم علَم مجرَّد بعيد عن خليقته، ولا هو مجرد حضور باهت في الخلفية البشرية، بل هو أبٌ قبل أي شيء. والأب يفرِّط في جبل من الذهب ولا يفرط في ابن واحد له. لقد سُئل أعرابي عن أحبّ أولاده إليه، فأجاب: «صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يُشفى، وغائبهم حتى يرجع». فإن كانت هذه مشاعر أبٍ أرضي، فكم تكون مشاعر الآب السماوي!

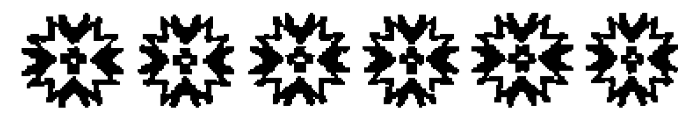
ثالثاً - حفل الابتهاج

الحياة المسـيحية حياة فرح عظيم، هو فرح الراعي الذي وجد خروفه الضائع، والمرأة التي وجدت درهـمها المفقود. وهي في الوقت نفسه حياة فرح الضال الذي وُجد، فالخروف حُمل على الكتفين وأُعيد إلـى الأمان مع باقي القطيع، والدرهم عاد إلى مكانه مع سائر الدراهم حول عنق المرأة. ودعا الراعي، كـما دعت المرأة الأصدقاء والجيران ليشاركوهما الفرح العظيم.. ويُضيف المسيح إلى هذه الأفراح بُعداً رابـعاً، هو فرح ملائكة السماء بعودة الضال لأنه «هكذا يكون فرحٌ في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسـعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة.. هكذا أقول لكم يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطئ واحد يـتوب» فالملائكة يـعرفون قدر النفس البشريـة الثمين، ويدركون محبة الله للبشر، ويفهمون الأشواق الإلـهية لتوبة الضالين، ويقدِّرون عظمة النجاة من عذاب النار، وروعة الحياة في النعيم في محضر الله، ويشتاقون إلى امتلاء السماء بربوات العائدين من أرض الضلال إلى الحياة مع الله.

كان اليهود يقولون إن السـماء والأرض تفرحان بخاطئ واحد يهلك لأن الأرض تستريح من شره. ولكن المسـيح يعلمنا أنهما تفرحان بتوبته، فتسـتريح الأرض من شره، لا لأنه هلك، بل لأنه تاب، فإن «مخلّصنا الله يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبلون» (١تيموثاوس ٢: ٣، ٤).

وقد كان هذا الفرح مكلفاً للراعي وللمرأة، كما أن فرح السـماء بالتائب مكلف، فيقول إشعياء النبي الإنجيـلي عن الراعي الصالح: «محتقَرٌ ومخذولٌ من الناس. رجل أوجاع ومختبر الحزن.. لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحمّلها.. وهو مجروحٌ لأجل معاصينا، ومسـحوق لأجل آثامنا.. الرب وضع عليه إثم جميعنا.. أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن» (إشعياء ٥٣: ٣-٦، ١٠).

ويعلن لنا مثل الخروف الضائع محبة الله التي لا تعرف حدوداً، فقد حمل الراعي خروفه «على منكبيه». والخروف دائماً يقاوم الحمل على كتفي الراعي، ويحاول جاهداً أن ينزل إلى الأرض، فيتعب الراعي ويُتعِب نفسه. ولكن الراعي الذي يدرك مصلحة الخروف أكثر من إدراك الخروف لها يمسك به، ويبقيه على كتفيه حتى يصل به إلى الأمان.. وما أكثر ما يفعل التائبون الشيء نفسه مع الرب الذي يحملهم، فيحاولون أن يستقلوا عنه. ولكنه يريدهم أن يعتمدوا عليه، لأنهم بدونه لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً (يوحنا ١٥: ٥). فلنتكل عليه، قائلين مع المرنم: «يردُّ نفسي. يهديني إلى سبُل البر من أجل اسمه» (مزمور ٢٣: ٣).



في هذين المثلين شرح المسيح خطته في خلاص البشر، وردَّ على المتعصِّبين والمتكبِّرين الذين انتقدوه. أما كل من يشعر أنه خاطئ ويرجع تائباً فإنه يقبله ويغفر له.. فليفحص كل واحدٍ منّا نفسه: هل يسير وراء الراعي المحب، أم هل هو في طريق الضلال؟ «وأنت، فارجع إلى إلهك» (هوشع ١٢: ٦).

سؤالان

١ - ما هي التهمة التي وجَّهها شيوخ اليهود للمسيح؟ اذكر برهانين قدَّموهما على هذه التهمة، واذكر ردَّ المسيح عليها كما جاء في متى ٩: ١٢، ١٣.

٢ - لماذا فتَّش الراعي عن خروفه الضائع؟ ولماذا يفتش الله على الخاطئ الضال؟

(ب) انتظار عودة الضال

مثل الابنين الأكبر والأصغر

وَقَالَ: إِنْسَانٌ كَانَ لَهُ ابْنَانِ. فَقَالَ أَصْغَرُهُمَا لأَبِيهِ: يَا أَبِي أَعْطِنِي الْقِسْمَ الَّذِي يُصِيبُنِي مِنَ الْمَالِ. فَقَسَمَ لَهُمَا مَعِيشَتَهُ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ لَيْسَتْ بِكَثِيرَةٍ جَمَعَ الابْنُ الأَصْغَرُ كُلَّ شَيْءٍ وَسَافَرَ إِلَى كُورَةٍ بَعِيدَةٍ، وَهُنَاكَ بَذَّرَ مَالَهُ بِعَيْشٍ مُسْرِفٍ. فَلَمَّا أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ حَدَثَ جُوعٌ شَدِيدٌ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ، فَابْتَدَأَ يَحْتَاجُ. فَمَضَى وَالْتَصَقَ بِوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْكُورَةِ فَأَرْسَلَهُ إِلَى حُقُولِهِ لِيَرْعَى خَنَازِيرَ. وَكَانَ يَشْتَهِي أَنْ يَمْلأَ بَطْنَهُ مِنَ الْخُرْنُوبِ الَّذِي كَانَتِ الْخَنَازِيرُ تَأْكُلُهُ فَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ. فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ: كَمْ مِنْ أَجِيرٍ لأَبِي يَفْضُلُ عَنْهُ الْخُبْزُ وَأَنَا أَهْلِكُ جُوعاً! أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَقُولُ لَهُ: يَا أَبِي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقّاً بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْناً. اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ. فَقَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ. وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيداً رَآهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ. فَقَالَ لَهُ الابْنُ: يَا أَبِي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقّاً بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْناً. فَقَالَ الأَبُ لِعَبِيدِهِ: أَخْرِجُوا الْحُلَّةَ الأُولَى وَأَلْبِسُوهُ وَاجْعَلُوا خَاتَماً فِي يَدِهِ، وَحِذَاءً فِي رِجْلَيْهِ، وَقَدِّمُوا الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ وَاذْبَحُوهُ فَنَأْكُلَ وَنَفْرَحَ، لأَنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ مَيِّتاً فَعَاشَ وَكَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ. فَابْتَدَأُوا يَفْرَحُونَ.

وَكَانَ ابْنُهُ الأَكْبَرُ فِي الْحَقْلِ. فَلَمَّا جَاءَ وَقَرُبَ مِنَ الْبَيْتِ سَمِعَ صَوْتَ آلاتِ طَرَبٍ وَرَقْصاً، فَدَعَا وَاحِداً مِنَ الْغِلْمَانِ وَسَأَلَهُ: مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا؟ فَقَالَ لَهُ: أَخُوكَ جَاءَ فَذَبَحَ أَبُوكَ الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ لأَنَّهُ قَبِلَهُ سَالِماً. فَغَضِبَ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَدْخُلَ. فَخَرَجَ أَبُوهُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ لأَبِيهِ: هَا أَنَا أَخْدِمُكَ سِنِينَ هَذَا عَدَدُهَا وَقَطُّ لَمْ أَتَجَاوَزْ وَصِيَّتَكَ، وَجَدْياً لَمْ تُعْطِنِي قَطُّ لأَفْرَحَ مَعَ أَصْدِقَائِي. وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ ابْنُكَ هَذَا الَّذِي أَكَلَ مَعِيشَتَكَ مَعَ الزَّوَانِي ذَبَحْتَ لَهُ الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ. فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ أَنْتَ مَعِي فِي كُلِّ حِينٍ وَكُلُّ مَا لِي فَهُوَ لَكَ. وَلَكِنْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ نَفْرَحَ وَنُسَرَّ لأَنَّ أَخَاكَ هَذَا كَانَ مَيِّتاً فَعَاشَ وَكَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ (لوقا ١٥: ١١-٣٢).

رأينا أن أمثال الخروف الضائع، والدرهم المفقود، والابن الضال تصوِّر مشاعر الله الذي يريد أن يردَّ الضال. ويصوِّر مثل «الابن الضال» حالة الضال قبل عودته، فهو يثور ضد أبيه ويرفض تكليفاته، ويحيا في خطاياه، ويتصرَّف مثل أهل المدينة الذين قالوا عن حاكمهم: «لا نريد أن هذا يملك علينا» (لوقا ١٩: ١٤)، ومثل المستأجرين الأشرار الذين رفضوا أن يقدّموا ثمر الكرم لصاحبه، فلما أرسل إليهم ابنه لعلهم يهابونه، قالوا: «هذا هو الوارث. هلموا نقتله ونأخذ ميراثه» (متى ٢١: ٣٨)، فأضرّوا أنفسهم أبلغ الضرر، كما أضرَّ الابن الأصغر نفسه بصورة مؤقّتة، أنهاها برجوعه، وكما أضرَّ الابن الأكبر نفسه بصورة دائمة، إذ انتهت قصته به خارج بيت أبيه.

ونرى في مثل الابن الضال ثلاث شخصيات: الابنين الأكبر والأصغر، والأب الذي هو بطل القصة. ومع أننا نسمّي المثل «مثل الابن الضال» إلا أننا يجب أن نسميه «مثل الأب المحب» فليس هناك بطولة في الضلال، لكن هناك بطولة عظيمة في قبول الضال الراجع.

أولاً - الضال

١ - خطوات سقوطه:

(أ) ضجر من العيشة مع أبيه: بدأ الضلال فكراً في عقله، فكانت أول كلمة قالها وسجَّلها لنا الوحي: «أعطني». لم يفكر في انزعاج أبيه لو أنه هجر البيت، ولا اهتمَّ بأن يعرف إرادة أبيه، بل انحصر كل فكره في أن الحياة في بيت أبيه هي مصدر ضجره وضيقه. فكان ضلاله في أنانيته سابقاً لضلاله في الكورة البعيدة، وكان اتجاهه الفكري السلبي أساس تصرُّفه المنحرف.. لقد تنكَّر لمكانه الطبيعي وبيته وماضيه وأبيه ونفسه وإيمانه، وأراد أن يبتعد عن بيت أبيه بقدر ما يستطيع، لأنه ظنّ أن هذا يحرِّره، ويجعله شخصاً آخر أسعد حالاً. ولكن عندما يغترب الإنسان عن أبيه وعن نفسه كما يجب أن تكون، يفقد الأمان، لأن الله خلقنا بهدف معيَّن، فإذا لم نحقِّقه ضاع منّا معنى حياتنا.

(ب) ظنَّ أنه يقدر أن يستقل عن أبيه: رسم الفكر الخاطئ للابن الأصغر أوهاماً زائفة، منها أنه يقدر أن يعيش سعيداً بعيداً عن أبيه، فطلب نصيبه من الميراث بدون أن يكون له الحق في طلبه، لأن أباه ما زال على قيد الحياة. وكان خطؤه أنه اعتبر أباه مصدراً للماديات، يأخذ منه، ولم يعتبره شخصاً ينتمي إليه ويحبه. وكان يمكن أن الأب يرفض طلب ابنه ويخيِّره بين البقاء في البيت أو الخروج منه خالي اليدين، ولكن الأب في محبته أراد أن يعلمه درساً مكلفاً لكنه أساسي، فالدروس التي نتعلمها بدون ثمن سرعان ما تُنسى، أما الدروس التي تكلفنا كثيراً فتبقى في أعماقنا. وأراد الأب لابنه أن يتعلم بالطريق الصعب. ثم أنه لو أجبره على البقاء لحرمه من إنسانيته، ولكانت نتيجة الإجبار تأجيل انفجار ثورة الابن. لهذا منح الأب الحكيم ابنه حرية الاختيار.

ومن الغريب أن الخاطئ اليوم يحيا بكل ما يمنحه الله له من خيرات، وفي وقت الحاجة يدعوه: «أبانا الذي في السماوات.. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم» (متى ٦: ٩، ١١)، لأنه يعلم أننا «به نحيا ونتحرك ونوجد» (أعمال ١٧: ٢٨)، ويعرف قول المسيح: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا ١٥: ٥).. ولكنه يريد أن يستقلَّ عنه، ويردِّد قول فرعون: «من هو الرب حتى أسمع لقوله؟.. لا أعرف الرب» (خروج ٥: ٢).

(ج) استخدم مال أبيه استخداماً سيئاً: بحسب الشريعة الموسوية كان للوالد سلطان كامل على ممتلكاته، فكان يمكن أن يسند إدارتها لأولاده، لكنه لم يكن يملِّكها لهم. ولكن بطل قصتنا كان حكيماً، فأعطى ابنه نصيبه من المال، وترك له حرية التصرف، وسمح له بالبقاء في بيته لفترة باع أثناءها ما أعطاه له. بعدها حمل مال أبيه، الذي اعتبره ماله، وسافر إلى بلد بعيد، فتجمَّع حوله أصدقاء السوء، وأخذوا يتملقونه ويسهلون له طرق الغواية، فبذَّر ماله بإسراف حتى انتهى، فانفضَّ أصدقاؤه عنه.

ولم يجد إلا واحداً منهم ســـمح له أن يرعى خنازيره. وواضحٌ أنه غير متديِّن، لأنه كان يخالف شريعة موسى التي أمرت بعدم أكل لحم الخنزير (لاويين ١١: ٧ وتثنية ١٤: ٨).

(د) وصل إلى نهايـة سيئة: نهايـة الاغتراب عن الله خراب ودمار، وهذا ما انتهى إليـه أمر الابن الضال. ففي نهايـة المطاف أخذ يـتأمل ما وصل إليه: إنه وحيد، رث الثياب، جائع، تفوح منه رائحة الخنازيـر! وبعد وقت اكتشف أن الخنازيـر كانت أفضل منه حالاً، لأنها كانت تأكل الخرنوب الذي لا يـجده هو لـيـأكله! لقد انتقل من الغنى إلى الفقر، ومن الكرامة إلى الهوان، ونال الشوك من قدميـه، وضاعت منه صورة أبيه، وشعر بالخجل من نفســه. لكن المؤسف أنه تمادى في الطريق الخاطئ، ولم يفكر في تصحيح مساره، ولسان حاله ما قاله رُديارد كبلنج في قصيدته «الابن الضال»:

«أبي ينصحني عابساً،

وأخي ينظر إليَّ باحتقار.

أمي تستجوبني،

حتى رغبتُ أن ألعن الكل وأهرب!».

٢ - اكتشاف مؤلم:

(أ) اكتشف خطأ التحلُّل من قيود أبيه: صار الابن الضال ســجين اختياره وأســير ذاته، بلا عائلة ولا أصدقاء. وقد وصف أبوه حالته بأنه «ميت وضال» فالضلال موت روحي بالانفصال عن الله، وأبدي بالنهاية المرعبة في جهنم. كان الابن الضال قد تســاءل: لماذا أسير على قضيبين، هما وصاية أبي ونصائحه، يحدّان حريـتي؟.. ولكنه اكتشف بعد أن خرج عنهما أنه اصطدم بالذل والجوع والضياع، فإنه «تكثر أوجاعهم الذين أســرعوا وراء آخر» (مزمور ١٦: ٤).. لم يـدرك هذا الابن أن القضيبين نعمة، وأن الحرية المنظمة هي الاســتقلال والأمان، فاســتيقظ ليرى أنه يحتاج إلى قوانين أبيه وحمايته. وقادته حاجته إلى تساؤل آخر: لماذا أبقى حيث أنا وعبيد أبي أفضل حالاً منّي؟.. وكان فُقدان أمله في إصلاح حاله بداية العمل الإلهي في قلبه.

(ب) اكتشف قِصر لذة الخطية: نعم في الخطيـة لذة، والذي ينكر هذا يخدع نفســه، لكنها لذة مؤقتة، فـالخطية كالماء المالح الذي يزيد شاربه عطشاً. وبعد السكرة تجيء العبرة، وبعد أكل الحصرم تضرس الأسنان، وبعد شُرب الكأس تحمرّ العينان!

٣ - نهوض الروح:

(أ) نهض فكره: كأنه كان ســكراناً فأفاق، أو تائهاً فعثرت قدماه على بدايـة الطريـق الصحيح. إنه يذكِّرنا بالملك نبوخذنصر الذي ضلَّ ضلالاً بعيداً، ومدح نفسه واغترَّ، وقال عن عاصمته: «أليست هذه بابل العظيـمة التي بنيـتها لبيـت المُلك بقوة اقتداري ولجلال مجدي؟» فطار عقله وأخذ يأكل العشب كالثيران، إلى أن عاد إلى نفســه، فعادت إليه نفسُـه، ورفع عينيه إلى السماء، فرجع إليه عقله، وسبَّح وحمد الله الحي إلى أبد الآبدين، صاحب الســلطان الأبدي، فعاد إلى جلال مملكته ومجده وبهائه، وطلبه مشيروه وعظماؤه (دانيال ٤: ٢٨- ٣٧).

نهض فكر الابن الضال، فقال: «أقوم وأذهب إلى أبي وأقول له: يا أبي، أخطأت إلى السماء». وهذه بداية الاعتراف الصحيح، لأن إصلاح علاقتنا بالله يسبق إصلاح علاقاتنا بالناس، فكان كمال الاعتراف قوله: «يا أبي، أخطأت إلى السماء وقدامك، ولست مستحقاً بعد أن أُدعى لك ابناً. اجعلني كأحد أجراك».

كانت خمس طبقات من الناس تعيش في البيت العبري، أولها الأبوان، ثم الأبناء، ثم العبيد الذين يشترونهم بالمال ويقيمون في البيت، ثم الخدَم الذين يجيئون يومياً للمساعدة، ثم الأجرى الذين يجلسون في السوق ينتظرون أن يستأجرهم من لا يهمُّه حتى أن يعرف أسماءهم. وفكَّر الابن الضال أنه لا يستحق أن يكون ابناً لأنه أضاع كل امتيازات بنويته، وهو لا يصلح أن يكون عبداً لأن صحته تدمَّرت، وهو لا يظن أنهم سيقبلونه خادماً فيرون وجهه في البيت كل يوم بعدما ارتكب في حقِّهم كل حماقة. فلم يبقَ له إلا استجداء عمل الأجير، وكأنه يقول لأبيه: إن قبلتني كأحد أجراك، سأبقى بعيداً حتى تستدعيني عندما تحتاج إلى عملي. وسأبقى بعيداً حتى لا أحرجك.

(ب) نهضت عزيمته: كان جالساً في التراب عندما نهض فكره بعد أن جاءه الخاطر الصالح بالرجوع إلى أبيه، فنهضت عزيمته وأطاع، وترك الخنازير التي ترمز إلى الخطايا وأصدقاء السوء، فهي تتمرغ في الوحل وتأكل الفضلات. ولم يفكر في بُعد المسافة التي تفصله عن بيت أبيه، ولم يقف في سبيل عودته عائق!.. وما أن وصل إلى بداية الشارع الذي يقع فيه بيت أبيه حتى رآه أبوه قبل أن يرى هو أباه. وكانت دهشته شديدة، لأنه انتظر الرفض فلقي الترحيب، وكان يتوقَّع الإهانة فوجد الخاتم علامة الرضى والإكرام، وأُلبِس الحذاء علامة البنويَّة (كان العبيد حفاةً). وكان يظن أن نصيبه سيكون العمل الشاق فوجد الوليمة. ثم كانت مكافأة التوبة أنه صار ضيف الشرف.. لقد أظلمت حياته وتكدَّر بيت أبيه بسبب عصيانه، ولكن غفران الأب أنهى الظلام، فضاءت أرجاء البيت بأنوار الحفل المبهج. فما أجمل الرجوع إلى الآب لأنه الرجوع إلى الأصل.

بدأ الابن الضال ثائراً، وقادته ثورته إلى الحسابات الخاطئة والضياع، فبدأ يحتاج ويجوع. وقاده الجوع والحاجة إلى تذكُّر امتيازات بيت أبيه، فتاب ورجع وفرح، وهكذا شُفيت جروح الخطية وسمومها. أما ندوب الجروح وآثار السموم فلا تُمحى كلها، فالمال الذي أُنفق لن يعود، والوقت الضائع في الكورة البعيدة لن يُسترجَع، وستبقى ذكريات خيانة الأصدقاء وصُحبة الخنازير وطعم الخرنوب عالقة في ذاكرة التائب الراجع.

دعونا نرجع إلى الله تائبين إن لم نكن قد فعلنا هذا. ليس أبوك غاضباً عليك، بل هو حزينٌ لبُعدك. لا تخف من الرفض. ارجع إليه تلقَ القبول، وتسمعه يقول: «أخرجوا الحُلة الأولى وألبسوه، واجعلوا خاتماً في يده وحذاءً في رجليه، وقدِّموا العجل المسمَّن واذبحوه، فنأكل ونفرح، لأن ابني هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجد».

ثانياً - الابن الأكبر

قصد المسيح بالابن الأصغر العشارين والخطاة الذين هم خارج الهيكل، وقصد بالأكبر الفريسيين والكتبة الذين هم حسب الظاهر داخل الهيكل، لكن قلوبهم خارجه. والفريقان متشابهان في أنهما محرومان من العلاقة الشخصية برب الهيكل. وكلاهما خاطئ، ولو أن أحدهما كالابن الأصغر تتقدّمه خطيته رافعةً أعلامها، والآخر تتبعه خطيته ولا تكاد تُرى. كان الابن الأكبر ضالاً داخل البيت، بينما ضلَّ أخوه الأصغر خارج البيت. وكل الذين يعبدون الرب كواجب ويؤدّون واجباتهم الدينية كفروض يشبهون الابن الأكبر، الذي كان يمتلك كل ما لأبيه، ولكنه لم يكن فرحاناً. وكم كنا نتمنى لو أن هذا المثل انتهى برجوع الابن الأصغر، والجميع يحتفلون بعودته بمن فيهم الابن الأكبر. ولكن المثل ينتهي بالابن الأكبر خارج البيت غاضباً على أبيه وأخيه.

ونرى تصويراً للابنين الأكبر والأصغر في مثل «الفريسي والعشار» فالفريسي يقول: «اللهمَّ، أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس.. ولا مثل هذا العشار» (لوقا ١٨: ١١)، والعشار لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلاً: «اللهم ارحمني أنا الخاطي» (لوقا ١٨: ١٣)، فنزل إلى بيته مبرَّراً.

عندما رجع الابن الأكبر من عمله في الحقل، وعرف أن أخاه الضال قد عاد، كان يجب أن يقول: «ما أسعدني لأن أبي فرح بعد أن انزاح عن قلبه حِمل همّه الثقيل، ولأن أخي الذي كان ضالاً متعَباً اطمأن واستراح»». لكنه كان أنانياً ومنفصلاً عن مشاعر أبيه بسبب طباعه المتكبِّرة ومحبته لنفسه دون الآخرين. كان أخوه الأصغر يأكل خرنوب العالم أما هو فكان يأكل خرنوب عقله الثائر على مشاعر أبيه، وهو يظن أنه صالح بار، في غير حاجة إلى طبيب مع أنه المريض الحقيقي، فأقام حواجز نفسية بينه وبين أبيه. وربما كان بكبريائه وتعنُّته سبب ضلال أخيه الأصغر. فتعالوا نتأمل أخطاءه لنحترس منها:

(أ) **كراهيته لأخيه**: البيت هو المكان الذي نعيش فيه على طبيعتنا، ونطمئن فيه لبعضنا، فإذا فرح أحد أفراده فرح الجميع، وإذا تألم أحدهم تألم الكل، لأنهم عائلة واحدة. ولكن الابن الأكبر لم يكن يملك هذه المشاعر العائلية الطيبة. ومع أنه عاش في البيت إلا أن قلبه كان خارج البيت. وعندما سمح الأب بسفر الابن الأصغر ومعه نصيبه من المال تضايق الأكبر من أبيه ومن أخيه، ولكنه كتم غيظه لأن أباه صاحب الكلمة الأخيرة. وعندما رجع أخوه زاد غضبه لأنه ظن أنه راجعٌ ليقاسمه في ما بقي من ميراث. ولا بد أنه تساءل: لماذا يقبل أبي من لا يستحق القبول؟ لماذا يرحِّب بمَن بدَّد ماله بعيش مسرف ولوَّث سمعة الأسرة؟

لم يفرح الابن الأكبر بعودة الضال، بل تحدث عنه باحتقار. لم يقل «أخي» بل قال: «ابنك هذا»! لأنه لا يحبه ولا يشفق عليه، ولم يقدِّر آلام أبيه أثناء غيبة أخيه، ولا قدَّر الثمن الذي دفعه أخوه في بُعده من شقاء وحرمان وندم. ولكنه ضخَّم خطايا أخيه وقال إنه «أكل معيشتك مع الزواني» مع أن المثل لم يذكر للابن الضال هذه الخطية. وقال: ذبحت «له» العجل المسمَّن، ولم يقل: ذبحت «لنا».

كان الابن الأكبر مثل قايـيـن الذي أبغض أخاه هابيـل وقتله (تكويـن ٤: ٨)، لا بسـبب ضيق اقتصادي، فقد كانت الأرض متسعة أمامهما، لكنه قتله بسـبب شرّ قلبه.. وتصرّف الابن الأكبر مثل عيسـو الذي (لأنه البكر) كان يجب أن يكون كاهن العائلة. وكان نصيبه المضاعف من الميراث بمثابة مكافأة له لأنه قائد الأسـرة الروحي، والمحافظ على كتبها المقدسة، والمسؤول عن العبادة فيها (تكوين ٢٥: ٢٧-٣٤ و٢٧: ٤١). ولكنه احتقر مسؤوليته الدينية، فأخذ يعقوب (أب الأسباط) منه امتيازه. فحقد عيسـو على أخيه وعزم أن يقتله بعد موت إسحاق أبيهما.. وكان الابن الأكبر مثل إخوة يوسف الذين باعوه عبداً في مصر، لأن أباه كان يميِّزه عنهم (تكوين ٣٧: ١٨-٢٤).

(ب) **عدم احترامه لأبيه:** لم يفهم الابن الأكبر مشاعر أبيه، ولم يقدر أبداً أن يدرك مقدار حزنه على ضـلال ابنه الأصغر. ونسي أن رجوع الضال هو رغبة قلب أبيه واستجابةٌ لصلواته الكثيرة.. ولم يفهم حيـاة أبيه الإيمانية، فقد كان قلب الأب عامراً بالإيمان والرجاء والمحبة: الإيمان في ابنه الأكبر الذي يـعيش معه، وفي عودة ابنه الضال.. والرجاء في حياة أفضل بعد لمّ شمل العائلة، فيكون الغد المشرق قادماً.. والمحبة للابنيـن الأكبر والأصغر، القريب والبعيد. لكن لم يكن في قلب الابن الأكبر إيمان ولا رجـاء ولا محبة! كان يحيا وسط البركة دون أن تمسَّ البركةُ قلبه!.. ولم يفهم امتياز العمل مع أبيه ولا تمتّعه بالرعاية والأمان في القرب منه، فقال له: «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها» فاعتبر العمل المفرح في حقول أبيـه خدمة عبودية وعبئاً ثقيلاً، وكان الواجب أن يدرك أنه يعمل لخيره ولخير العائلة كلها. صحيحٌ أنه كان يعمل باجتهاد، وكان في الحقل عندما عاد أخوه، لكنه أدّى العمل بتذمر، ولم يكن فرحاناً به. إنه يـذكّرنا بالعمال الذيـن كانوا يقطعون الأحجار في الجبل، فسـألهم شخصٌ عمّا يعملون، فقال أحدهم: أكسر حجارة. وقال الثاني: أعول أولادي. وقال ثالث: نبني كنيسة. والإجابات الثلاث صحيحة، ولكن روح صاحب كل إجابة تكشف عن نظرته للحيـاة. فالأول كان يعمل بتذمُّر، ولا بد أن مشاعره النفسية تركت أثرها على صحته. وكانت دوافع الثاني إنسانية، لأنه يرى عمله خدمةً لأسرة يحبها. أما الثالث فقد رأى إلى جوار العمل وإعالة الأسـرة علاقةً مفرحة مع الله، فهو يبني كنيسـة، ويقدم خدمة للرب. وكان الابن الأكبر يفكر كالعامل الأول بدليل قوله لأبيه: «ها أنا أخدمك سنين هذا عددها».

ولعل قمة التعبيـر عن عدم احترامه لأبيـه أنه «غضب ولم يـرد أن يدخل» البيت احتجاجاً على تصرفات أبيه، فخرج أبوه إليه، وشرح له ما حدث، ولكنه استمر خارج البيت.

(ج) **إحساسه الزائد بصلاحه:** قارن نفسه بأخيه الضال فوجد أنه أفضل منه لأنه لم يخطئ، فقال لأبيه: «قطّ لم أتجاوز وصيتك». واعتبر أنه أفضل حكماً على الأمور من أبيه الذي قبل أن يقسـم معيشته بين ولديه في حياته، ونسي أن كل «من يرفع نفسه يتّضع، ومن يضع نفسه يرتفع» (متى ٢٣: ١٢).

(د) **إحساسه بأنه مظلوم:** اعتقد أنه لم ينل المكافأة الواجبة، فقال لأبيه: «جدياً لم تُعطني قط لأفرح مع أصدقائي». ولا بد أن أباه صُدم وفزع من إجابته، فقال له: «يا بنيّ، أنت معي في كل حين، وكل ما لي فهو لك». ثم عاتبه عتاب الحب، وحاول أن يفتح بصيرته لمباهج يومهم بعودة أخيه، وهي أفراحٌ كان يجب أن تغسل كل شكوى وضغينة.. وإحساس الابن الأكبر بالظلم ورثاء الذات إحساسٌ طفولي أناني، لأنه أراد أن يكون وحده مركز الاهتمام، فنسي أن يشكر أباه، وتناسى أن كل ما عنده هو من فضل أبيه عليه.

(هـ) **خطيته غير معلَنَة:** كان الجميع يحترمونه، ويقارنون بينه وبين أخيه الأصغر العاق، فيزيدون احتراماً له. ولكن خطاياه كانت داخلية نفسية مختفية، حتى جاء وقت تفجير مشاعره المكبوتة وإعلانها. لقد عاشت خطيته في قلبه بالرغم من أنه يعيش في بيت أبيه. وينتهي المثل به خارج البيت غاضباً، بينما أخوه داخل البيت فرحاً.. ولم يطرده أحدٌ، لكنه طرد نفسه بإرادته، بعد أن حجبت كراهيته لأخيه وعدم احترامه لأبيه باب السعادة عن عينيه.

ثالثاً - الآب

الشخصية الرئيسية العظمى في هذا المثَل هي شخصية الأب، لأن المثَل يبدأ بالقول: «إنسان» كان له ابنان، فالأداء الأكبر في المثل هو أداء الأب. صحيح أن الابن الضال شخصية رئيسية، لكنه ليس الشخصية الأساسية الرئيسية، فالشخصية الرئيسية هي شخصية الأب الذي حرّك كل شيء، فهو الذي منح الابن الضال حرية الاختيار، وهو الذي استقبله بالترحيب عندما رجع، وهو الذي احتمل بأسى تصرفات ابنه الأكبر الذي لم يفارقه بجسده ولكنه كان منفصلاً عنه بمشاعره، وبقي يمدُّ له يد المحبة. والحوار الذي دار بين الأب وابنه الأكبر أطول من الحوار الذي دار بينه وبين الابن الذي ضلّ. وكان حوار الأكبر حوار الاحتجاج والغضب والإحساس بالظلم، ورفض كل توضيح قدّمه الأب له. أما الحوار مع الابن الضال فكان بالعمل أكثر منه بالكلام، فقد أعطاه الأب نصيبه في الميراث حسبما طلب، ومنحه حرية التصرف. ولما رجع تائباً لم يعاتبه، بل قَبلَهُ وأغدق عليه عطاءً غير محدود. وفي الحالتين كان حوار الأب مع ابنيه حوار المحبة المتأنية الغافرة المحتمِلة.

١ - الأب وابنه الأصغر:

في توضيح مشاعر الأب نحو ابنه الضال الراجع شرح لنا المسيح مشاعر الله الحقيقية من نحو البشر. لقد ظنّه اليهود قاضياً جباراً لا يرحم في قضائه، يطالب الإنسان دائماً بدفع ثمن أخطائه. فأعلن لنا المسيح أنه الأب المحب الشفوق الذي يحب الخاطئ ولو أنه يكره خطيته. هنا نرى الأب الذي أُسيء إليه، وأُخذ ماله ليُنفَق بطريقة خاطئة. ولكن ما أن رجع الضال تائباً حتى استقبله بالفرح. ولم يتوقع الابنان مثل هذا الغفران من الأب!

حكى قسيس قصة عن نفسه عندما كان صبياً، فقال إنه كان يحترم أباه ويجلّه جداً، ولكنه كان يخشاه ويخاف منه. وكان الأب متديناً يأخذ عائلته كلها إلى الكنيسة بانتظام. وذات يوم حار رطب ذهب الصبي مع أبيه إلى الكنيسة، فثقلت أجفانه وبدأ يغمض عينيه، فمدّ أبوه ذراعه نحوه، فخاف، لأنه ظن أن أباه سيعنّفه ويهزّه ليوقظه. ولكنه لدهشته وجده يحتضنه ويسنده في وضع مريح لينام، فانفتحت عيناه على حب أبيه له. وقال الابن بعد ذلك: «كنت أظن أبي قاسياً، لكني منذ ذلك اليوم عرفت حقيقة أبي، فهو يحبني ولا يمدّ يده ليرعبني، لكن ليسندني». ثم قال: «وهكذا قدرت أن أفهم مشاعر أبي السماوي من نحوي».

أظهر الأب تعاملات محبته لابنه التائب، حتى بعد أن أخذ منه كل ما أخذ، وأنفقه بطريقة سيئة. فلما عاد، أعطاه الحُلّة، والخاتم، والحذاء، وقدّم للجميع وليمة الفرح. حقاً إن عدم أمانتنا لا يبطل أمانة الله، ونقص حبنا للرب لا ينقص حبه لنا أبداً (٢تيموثاوس ٢: ١٣).

٢ - الأب وابنه الأكبر:

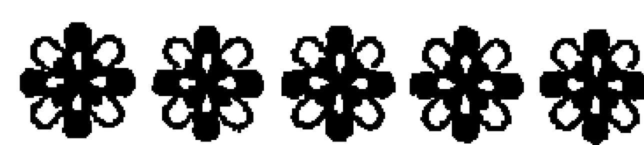
«خرج يطلب إليه». لم يدخل الابن الأكبر البيت بعد أن عرف سبب الاحتفال البهيج، فترك أبوه الوليمة والضيوف وابنه التائب، وخرج إليه يرجوه أن يدخل، لأن سعادته لا تكمل إلا وولداه معه في بيته. مع أن الواجب كان أن الابن الأكبر يدخل ليشارك أباه وأخاه فرحة التوبة والعودة.

قال الأب للابن الأكبر: «يا بنيّ» فذكّره ببنوّته ودعاه ابناً مع أنه لم يدعُه أباً، لأنه أراد أن يطفئ نار الغضب داخله على أبيه، ونار الحسد والغيرة من أخيه.

ثم قال له: «أنت معي في كل حين» فذكّره بصُحبته وإقامته الدائمة معه في البيت. إنه لم يغِب عن أبيه، ولم يذُق مرارة الفراق، ولا وصل إلى حافة الهاوية، فلم يكن هناك ما يدعو إلى احتفال خاص به، بعكس الأمر مع الأخ الأصغر.

وقال له: «كل ما لي فهو لك» فذكّره بممتلكاته، وأنه لا داعي لخوفه من قسمةٍ أخرى للمال، فقد أخذ الأصغر نصيبه، وكل ما تبقّى الآن هو للأكبر.

وختم الأب حديثه بقوله: «ولكن كان ينبغي أن نفرح ونُسر، لأن أخاك هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوُجد» فذكّره بضرورة تغيير موقفه الفكري من نحو أخيه الراجع، لأن الضال وُجد والميت عاش، فالأخ أخوه أينما كان، ولا يمكن أن تنقطع صلة الرحم، ومن الأبهج له أن يكون أخوه داخل البيت عن أن يكون ضالاً.



يعلِّمنا هذا المثل أن الله يغفر للتائب مهما كانت خطاياه. وحتى عندما لا يرى أملاً في الغفران يمنحه الله الأمل، لأنه أبٌ غفور رحيم، فيقول التائبون: «انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله» (ايوحنا ٣: ١). و«حيث كثُرت الخطية ازدادت النعمة جداً» (رومية ٥: ٢٠).

ويعلِّم المسيح الآباء أن يتحلّوا بالصبر والمحبة وطول الأناة نحو أولادهم المخطئين الراجعين بتوبة حقيقية، ولا يعاملوهم بقسوة، طاعةً للوصية: «أيها الآباء، لا تغيظوا أولادكم لئلا يفشلوا» (كولوسي ٣: ٢١). فلنستقبل أولادنا التائبين فور توبتهم، ولنفتح قلوبنا لهم كما يفتح الآب السماوي قلبه لهم ولنا.. افتحوا بيوتكم لأبنائكم الضالين، سواء كانوا كالابن الأكبر أو كالابن الأصغر، كما أن أباكم السماوي يفتح باب السماء دائماً لكم.

ويعلِّم المثل الأبناء أن يطيعوا والديهم، ولا يغترّوا بمباهج العالم الزائلة. ويقول الحكيم: «اسمع لأبيك الذي ولدك، ولا تحتقر أمك إذا شاخت» (أمثال ٢٣: ٢٢).

فإذا زلّت القدم فثِق أن الرب المحب ينتظر عودتك في شوق ومحبة وقلب غافر صفوح.

سؤالان

١ - اشرح باختصار خطوات ضلال الابن الأصغر.

٢ - كيف أظهر الأب محبته لابنه الأكبر؟

أمثال المسيح

الجزء الثاني

امتيازات أبناء ملكوت الله

١ – امتياز غفران الخطايا

مثل المديونَين

وَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ، فَدَخَلَ بَيْتَ الْفَرِّيسِيِّ وَاتَّكَأَ. وَإِذَا امْرَأَةٌ فِي الْمَدِينَةِ كَانَتْ خَاطِئَةً، إِذْ عَلِمَتْ أَنَّهُ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِ الْفَرِّيسِيِّ جَاءَتْ بِقَارُورَةِ طِيبٍ وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهُنُهُمَا بِالطِّيبِ. فَلَمَّا رَأَى الْفَرِّيسِيُّ الَّذِي دَعَاهُ ذَلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ: لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيّاً لَعَلِمَ مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ. فَقَالَ يَسُوعُ: يَا سِمْعَانُ، عِنْدِي شَيْءٌ أَقُولُهُ لَكَ. فَقَالَ: قُلْ يَا مُعَلِّمُ.

كَانَ لِمُدَايِنٍ مَدْيُونَانِ. عَلَى الْوَاحِدِ خَمْسُ مِئَةِ دِينَارٍ وَعَلَى الآخَرِ خَمْسُونَ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَا يُوفِيَانِ سَامَحَهُمَا جَمِيعاً. فَقُلْ: أَيُّهُمَا يَكُونُ أَكْثَرَ حُبّاً لَهُ؟ فَأَجَابَ سِمْعَانُ: أَظُنُّ الَّذِي سَامَحَهُ بِالأَكْثَرِ. فَقَالَ لَهُ: بِالصَّوَابِ حَكَمْتَ. ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ لِسِمْعَانَ: أَتَنْظُرُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ؟ إِنِّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ وَمَاءً لأَجْلِ رِجْلَيَّ لَمْ تُعْطِ، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيَّ بِالدُّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ. بِزَيْتٍ لَمْ تَدْهُنْ رَأْسِي، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ لأَنَّهَا أَحَبَّتْ كَثِيراً. وَالَّذِي يُغْفَرُ لَهُ قَلِيلٌ يُحِبُّ قَلِيلاً. ثُمَّ قَالَ لَهَا: مَغْفُورَةٌ لَكِ خَطَايَاكِ.

فَابْتَدَأَ الْمُتَّكِئُونَ مَعَهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَغْفِرُ خَطَايَا أَيْضاً؟. فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ! إِذْهَبِي بِسَلامٍ (لوقا ٧: ٣٦–٥٠).

مناسبة رواية المثَل:

اعتاد أغنياء اليهود أن يقيموا ولائم يلتقي فيها الأهل والأصدقاء. وفي الصيف كانوا يقيمون الوليمة في فناء البيت، فيخلعون نعالهم، ويتكئون على مرافقهم اليسرى، ويمدّون أرجلهم إلى الخلف، ويتناولون الطعام بأيديهم اليمنى. وكان أصحاب البيت يسمحون للعامَّة بالدخول إلى مكان الوليمة، ويضعون لهم حشايا يجلسون عليها متكئين على الحوائط، ليشاهدوا مشاهير القوم، ويروا عظمة المضيف وغِناه وكرمه الواضح في الطعام الكثير الشهي، وليستمعوا للأحاديث التي تدور حول المائدة. وكان للعامة حق الحديث مع الضيوف، ولو أنه لم يكن مسموحاً لهم أن يتناولوا الطعام معهم.

وذات يوم دعا فريسيٌّ غنيٌّ اسمه «سمعان» السيدَ المسيح إلى وليمة. ولعل سمعان طلب من المسيح أن يلقي كلمة، فتحدَّث عن ضرورة التوبة. وسمعته امرأةٌ خاطئة من العامَّة كانت قد دخلت إلى البيت، فعزمت أن تتوب، وأن تعبِّر عن ذلك علناً.. وكان واجب الضيافة الأساسي أن يُقبِّل الضيف ضيفه ليعبِّر عن الترحيب به، كما كان يعطي ماءً لغسل رجليه لأنهم كانوا يلبسون صنادل مفتوحة فتتَّسخ أقدامهم أثناء السير في الطرق الترابيَّة. وكلما كان الضيف عزيزاً صبَّ المضيف على رأسه زيتاً عطراً تملأ رائحته أرجاء المكان. ولم يكن سمعان الفريسي قد فعل شيئاً من هذا، فلا هو قبَّل ضيفه،

ولا أعطى ماءً لغسل رجليه، ولا صبَّ على رأسه عطوراً.. فقامت المرأة الخاطئة بهذا الواجب بمحبة وتلقائية أعظم مما كان يجب على «سمعان» أن يفعله، وبصورة فاقت كل ما تخيَّله الحاضرون.

كانت المرأة اليهودية عادةً تضع حول رقبتها قارورة طيب لتستخدمها في المناسبات العظيمة. وكانت لا تحل شعرها أمام الغرباء أبداً. إلا أن هذه الخاطئة غسلت قدمي المسيح بدموعها التي ذرفتها من قلب تائب نادم على خطيتها، وحلَّت شعرها، تاج جمالها، ومسحتهما به، وهي تقبِّلهما وتدهنهما بالطيب. فما أعظم الفرق بين سمعان وبين المرأة الخاطئة! هو لم يعطِ ماءً لغسل رجلي المسيح، فسكبت هي دموع توبتها عليهما. هو لم يقبِّل وجه المسيح، أما هي فقبَّلت قدميه. هو لم يدهن رأس المسيح بأي عطور، أما هي فطيَّبت قدميه. ولم يحس هو أنه خاطئ، أما هي فأحسَّت بخطاياها. واحتقر هو المسيح في نفسه، كما احتقر المرأة الخاطئة، فقال: «لو كان هذا نبياً لعلِم من هذه المرأة التي تلمسه، وما هي! إنها خاطئة» (آية ٣٩).

ولما كان المسيح هو النبي والمخلِّص عرف ما يدور بخاطر سمعان، وأجابه بمحبة، وضرب له مثل المديونَيْن، فقال: كان لمداين مديونان، على واحدٍ خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون (الدينار كان أجر عامل في اليوم). وعجز المديونان عن وفاء الدين، فسامح المداين المديونين. وسأل المسيحُ سمعان: «أيهما يكون أكثر حباً له؟» فأجاب سمعان: «أظن الذي سامحه بالأكثر».

والمعنى الواضح أن المداين هو الرب، والمديونَيْن هما سمعان الفريسي والمرأة الخاطئة.. سمعان يظن أن دينه صغير، أما المرأة الخاطئة فهي تعلم أنها مديونة ديناً كبيراً. وعندما يسامح الله المديون بالكثير لا بد أنه سيحبُّه أكثر مما يحبُّه صاحب الدَّين القليل.

حادثتان متشابهتان: وردت في الإنجيل قصتان عن امرأتين سكبتا الطيب على المسيح: إحداهما ورد ذكرها في إنجيلي متى ٢٦ ومرقس ١٤، والأخرى في لوقا ٧. ويروي لوقا ٧ حادثة جرت في الجليل، في بداية خدمة المسيح الجهارية، في بيت سمعان الفريسي.. أما في متى ٢٦ ومرقس ١٤ فقد جرت الحادثة في بيت سمعان الأبرص في قرية بيت عنيا بولاية اليهودية، في نهاية خدمة المسيح الجهارية. ويلتبس الأمر على القارئ لأن اسم المرأة غير مذكور في القصتين ، ولأن اسم المضيف في القصتين هو سمعان، ولو أن سمعان الأول فريسي، وسمعان الآخر سمعان الأبرص (والأغلب أنه كان مريضاً بالبرص، فشفاه المسيح).

ونتعلم من هذا المثل درسين عظيمين:

أولاً - كلنا مديونون

كل خطية دَيْن يؤرق صاحبه ويذلّه.. ولو أن بعض الناس ينظرون إلى الخطية باستخفاف، وكأنها شيء بسيط. ويقول البعض الآخر إن هناك خطية كبيرة وأخرى صغيرة، كما يقولون إن هناك كذباً أبيض وكذباً أسود. لكن كلمة الله تقول إن كل خطية دَيْن ثقيل يَجْلب غضب الله. فإذا تصوَّرنا الوصايا العشر كسلسلة من عشر حلقات، طرفها الأول مثبَّت في السماء، والإنسان يمسك بالطرف الآخر، فإنه يكون في أمان طالما كان متَّصلاً بالسماء بالسلسلة المتكاملة الحلقات. ولكن لو كسر الإنسان

أية حلقة في السـلسلة فإنه يسقط منفصلاً عن السماء. وهذا ما أوضحه الرسول يعقوب بقوله: «لأن من حفظ الناموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكل» (يعقوب ٢: ١٠).

وكل خاطئ مديون عاجز عن سـداد الدين، لأنه «ليس من يعمل صلاحاً. الرب من السماء أشرف على بني البشر، ليـنظر: هل من فاهم طالب الله. الكل قد زاغوا معاً. فسـدوا. ليس من يعمل صلاحاً. لـيس ولا واحد» (مزمور ١٤: ١-٣). «كلنا كغنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه» (إشعياء ٥٣: ٦). وقـال النبي إرميا: «هم مساكين. قد جهلوا لأنهم لم يعرفوا طريق الرب» (إرميا ٥: ٤) فالذي لم يعرف طريق الرب مسكين مديون عاجز عن السداد.

ولكن المسـيح يؤكد لنا أن به وحده تصبح الخطية قابلة للغفران مهما كان لونها. وكلما فهمنا كلمة الله في العهدين القديم والجديد ندرك أنه كلما أحسّ الإنسـان بخطئه واعترف به تائباً عنه يسامحه الله.. وهذا ما حدث مع البلايين، نكتفي بتقديم نموذجين من العهدين القديم والجديد:

إشعياء: عندما رأى النبي إشعياء مجد الرب وسمع الملائكة يسبِّحون: «قدوس قدوس قدوس رب الـجنود، مجده ملء كل الأرض» قال: «ويل لي! إني هلكت، لأني إنسانٌ نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتيـن، لأن عينيَّ قد رأتا الملك رب الجنود» (إشعياء ٦: ٥). فأرسـل الله ملاكاً يحمل جـمرة مسَّ بها شفتي النبي ليكفِّر عن إثمه، وليطهر شفتيه، وليجعل منه «النبي الإنجيلي» الذي تنبأ كما لم يتنبأ غيره عن ميلاد المسيح وحياته على أرضنا وموته لفدائنا.

بطرس: صرف الصيـادُ الجليليُّ بطرسُ الليلَ كله يحاول أن يصيد السـمك، فلم يمسـك شيئاً. وفي الصباح أمره المسـيـح أن يلقي شباكه للصيد، فأطاع، مع أن الصيد الناجح عادةً يكون في الليل. وما أن أطاع حتى امتلأت الشبكة بالسـمك، فخرَّ عند ركبتي المسيح وقال: «اُخرُج من سفينتي يا رب لأني رجلٌ خاطئ» (لوقا ٥: ٨). ولم يكن بطرس يعني أن يخرج المسـيح من سفينته، لكن إحساسه بعدم الاستحقاق وشعوره أنه رجل خاطئ دفعه ليقول ما قال! ولم يخرج المسـيح من سفينة بطرس ولا من حياته، ولكنه باركه أكثر، وجعل منه صخرة يبني عليها كنيسته التي لن تقوى أبواب الجحيم عليها (متى ١٦: ١٨).

وكلما اقتربنا من المسيح اكتشفنا ضعفنا وعيوبنا، ولكنه يشجعنا بالقول: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى.. لم آت لأدعو أبراراً (أو مَن يظنون أنهم أبرار) بل خطاةً إلى التوبة» (متى ٩: ١٣).

عـندما نحس بخطايانا ونعترف بها ونتوب عنها يغفرها الله لنا، بفضل ما فعل المسيح لأجلنا على الصليب، فـهو «الذي فيه لنا الفداء، بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته» (أفسس ١: ٧). ويتحقَّق لنا الوعد الرسولي الصادق: «إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهِّرنا من كل إثم» (١يوحنا ١: ٩).

وهذا ما جرى مع المرأة الخاطئة، فقال المسـيـح لها: «مغفورة لك خطاياك». فابتدأ المتكئون معه يـقولون في أنفسـهم: «من هذا الذي يـغفر خطايا أيضاً؟». فشجَّع المرأة أكثر بقوله لها: «إيمانك قد خلَّصك. اذهبي بسلام».

لقد فتح الرب بصيرة المرأة الخاطئة، فرأت في المســـيح ما لم يره سمعان الفريسي وضيوفه. وكان ســـبب عجزهم عن الرؤية أن جســـد المسيح كان الحجاب (الساتر) الذي حجب مجد المسيح، كلمة الله المتجسِّد. وكم تحجب إنســـانية المسيح مجده الإلهي عن عيون الكثيرين، كما حدث مع أهل الناصرة، فقالوا عنه: «من أين لهذا هذه الحكمة والقوّات؟ أليس هذا ابن النجار؟ أليســـت أمه تدعى مريم، وإخوته يعقوب ويوســـي وســـمعان ويهوذا؟ أوليست أخواته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها» (متى ١٣: ٥٤-٥٦). لقد ظن أهل الناصرة، كما ظنَّ سمعان الفريسي وضيوفه، أن المسيح مجرد إنسان لا حقّ له أن يـغفر الخطايـــا لأحد. لكننا اعتماداً على الإعلان الإلهي في الكلمة المقدســـة، ونتيجةً لإقناع الروح القدس، نقول: «عظيم هو سر التقوى: الله ظهر في الجسد» (اتيموثاوس ٣: ١٦).

أحبَّت المرأة الخاطئة التائبة المسيح كثيراً لأنها وثقت أنه غفر لها الكثير، وأمر لها بالسلام.

ومـفتاح حصولك على الغفران والسلام مع الله هو أن تؤمن بالمسيح المخلِّص، وتضع ثقتك فيه وفي فعالية كفارته، فتسترك وتمنحك غفران خطاياك، وتبدأ في التعبير العميق الصادق عن محبتك للمسيح.

ثانياً - الخدمة تعبير عن المحبة

المحبة لله علامة الحصول على الغفران، ولكنها ليســـت ســـبباً له.. كانت محبة المرأة الخاطئة للمسيح برهان الغفران الذي حصلت عليه، فقال المسيح عنها: «غُفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبَّت كثيراً». والقول «لأنها أحبَّت» تعبير برهاني وليس ســـببياً، مثل قولنا: «هذا الشخص فرحان جداً لأنه يضحك كثيراً». فلم يغفر المسيح للمرأة لأنها أُحبت كثيراً، لكنها عبَّرت عن امتنانها العميق بمحبة كثيرة بعد أن غفر لها الكثير.

الـغفران اختبار داخلـــي تعبِّر عنه أعمال المحبة الظاهرة. وعندما ننال الغفران نحب الله لأنه أحبنا أولاً (ايوحنا ٤: ١٩). ثم نعبِّر عن حبنا بأساليب منظورة.

أيقنت المرأة الخاطئة أن المســـيح يمكن أن يقبلها، وجذبتها كلماته ونبرة صوته العطوفة. ولعل هذه الخاطئة ســـبق لها أن سمعته أو سمعت عنه، فجاءت إلى بيت الفريسي لتستزيد من الاستماع له. يدفعنا لهذا الاســـتنتاج تســـاؤلنا: ما الذي يُدخل مثلها إلى بيت فريسي متكبِّر في وقت وليمة أمام مشاهير القوم وبســـطاء الناس، وهي المعروفة في بلدها بشرِّها؟.. لا بد أنها وجدت في المســـيـــح الرجاء والخلاص للمرفوضيـــن والمهمّشيـــن مثلها، وهو الذي عُرف عنه أنه محبٌّ للعشارين والخطاة، فخلَّصها إيمانُها. ولعل دخولها بيت الفريســـي كان إعلاناً لإيمانها وثقتها بالمســـيح، وكان كل ما فعلته من غســـل رجليه بدموعها تعبيـــراً عن محبةٍ لشخصٍ أدركت أنه يـــقبلها بيـــنما كل رجال الدين يرفضونها. وحتى الذين يتظاهرون بأنهم يقبلونها كانوا يعاملونها باحتقار.

بطرس مرة ثانية: ظهرت المحبة الكثيرة نتيجة الغفران الكثير في حياة الرسول بطرس الذي أنكر المســـيح ثلاث مرات، فنظر المســـيح إليه نظرة الشفقة والغفران، فخرج إلى خارج دار رئيس الكهنة،

وبكى بكاءً مُراً (لوقا ٢٢: ٦١). وبعد القيامة وجّه له المسيح سؤالاً ثلاث مرات أتبعه في كل مرة بتكليف: «أتحبني؟ ارع خرافي.. أتحبني؟ ارع غنمي.. أتحبني؟ ارع غنمي» (يوحنا ٢١: ١٥-١٧).

أنكر بطرس المسيح ثلاثاً فكلّفه المسيح بخدمته تكليفاً مثلثاً، وكأنه يقول له: أنت أنكرتني، لكني أعرف أنك تحبني. لقد كنتَ ضعيفاً، لكني أقبلك، وأغفر لك، وأطلب أن ترعى خرافي الصغيرة وأغنامي الكبيرة، فتكون مسؤولاً بالجميع. وتكليف المسيح لبطرس يعني أنه غفر له، وقبله، واستأمنه على خدمته، وكأنه يقول له: أحبك، ولا زلت أريدك أن تعبّر عن محبتك لي وأن تبرهنها بأن تخدمني.

يتردّد كثيرون في أن يشهدوا للمسيح قبل أن يتعمّقوا في معرفة المسيح وفي المعرفة عنه. والحقيقة هي أننا يجب أن نشهد للمسيح فنتقوّى وننمو في النعمة، كما شهدت المرأة السامرية للمسيح، دون حاجة إلى أن تحصل على دراسة لاهوتية. فقد مضت من فورها تشهد لأهل مدينتها بما جرى معها، قائلة: «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت» (يوحنا ٤: ٢٩).

إن كنت تدرك أن الله سامحك بالكثير، فعبّر عن حبك الكثير له بأن تحبه وتحب البشر الذين خلقهم على صورته. «ارمِ خبزك على وجه المياه فإنك تجده بعد أيام كثيرة (روحياً ومادياً)» (جامعة ١١: ١).. كُن مثل السامري الصالح الذي داوى اليهودي الجريح، المختلف معه في العقيدة والجنس. ويقول لك المسيح: «اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا» (لوقا ١٠: ٣٧). إن كنت قد قَبلتَ المسيح مخلِّصاً فعبّر عن حبك له بخدمة المحتاجين، والشهادة لهم عن المسيح. وليكن شعارك: «إذ الضرورة موضوعة عليَّ فويلٌ لي إن كنت لا أبشِّر» (١كورنثوس ٩: ١٦).

أما إن كنت خاطئاً مثل المرأة الخاطئة، فثِق أن المسيح يحبك ويريد أن يغفر لك كل خطاياك، فتبدأ معه بداية جديدة.. تعرّف على المسيح معرفة شخصية، وبيِّن محبتك الكثيرة له بكل أسلوب ممكن.

سؤالان

١ - اشرح العبارة التالية: «المحبة لله علامة على الحصول على الغفران، وليست سبباً له».

٢ - اذكر أمرين تقدر أن تبرهن بهما محبتك للمسيح.

٣ - امتياز سكنى المسيح

مثل البيت العامر بالمسيح

إِذَا خَرَجَ الرُّوحُ النَّجِسُ مِنَ الإِنْسَانِ يَجْتَازُ فِي أَمَاكِنَ لَيْسَ فِيهَا مَاءٌ يَطْلُبُ رَاحَةً وَلا يَجِدُ. ثُمَّ يَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي الَّذِي خَرَجْتُ مِنْهُ. فَيَأْتِي وَيَجِدُهُ فَارِغاً مَكْنُوساً مُزَيَّناً. ثُمَّ يَذْهَبُ وَيَأْخُذُ مَعَهُ سَبْعَةَ أَرْوَاحٍ أُخَرَ أَشَرَّ مِنْهُ فَتَدْخُلُ وَتَسْكُنُ هُنَاكَ. فَتَصِيرُ أَوَاخِرُ ذَلِكَ الإِنْسَانِ أَشَرَّ مِنْ أَوَائِلِهِ. هَكَذَا يَكُونُ أَيْضاً لِهَذَا الْجِيلِ الشِّرِّيرِ (متى ١٢: ٤٣-٤٥).

(ورد هذا المثل أيضاً في لوقا ١١: ١٤-٢٦)

مناسبة رواية المثل:

أجرى المســيح معجزات كثيرة أظهرت ســلطانه على عالم البشر وعالم الأرواح الشريرة، فقد شفى الناس من أمراضهم الجسـدية، وطرد الشياطين من أجسـادهم. ولكن شيوخ اليهود لم يؤمنوا بســماويّة معجزاته، وقال بعضهم إنها ســحر، وقال البعض الآخر إنها من عمل الشيطان، وقالوا جميعاً إنها ليست برهاناً كافياً على أنه من عند الله، فطلبوا منه معجزة من السـماء، كما أنزل موسـى المن الذي أكله بنو إسرائيل مدة أربعين سنة (هي سنوات تيهانهم في شبه جزيرة سيناء). فأجابهم: «جيلٌ شرير وفاسق يطلب آيــة، ولا تُعطى له إلا آية يونان النبي، لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، هكذا يكون ابن الإنســان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ» (متى ١٢: ٣٩، ٤٠). وفي هذا الرد أوضح المســيح أنهم فاسقون غير أمناء للعهد الذي قطعوه على أنفسهم بأن يكونوا أمناء لله، وقال إنه لن يعطيهم معجزة من النوع الذي طلبوه، ولكن معجزة قيامته بعد موته، ستكون البرهان على صدق رسالته.

ولم يكن المسيح أول من قام من الموت، لكنه أعظم من قام، لأن كل ميت قام مات ثانيةً بعد قيامته. أما المســيح فقد قام وصعد إلى الســماء، وهو حيٌّ يشفع فينا. ومن ســمائه سيأتي ديّاناً عادلاً للأحياء والأمـوات. وقد تحقَّقت نبوَّته عن نفسه، إذ صُلب يوم الجمعة، وقام من الموت صباح يوم الأحد، فكانت قيامته أعظم معجزاته.. ومضت بين موته وقيامته ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ طبقاً للحساب اليهودي، فقد كان اليــهود يحســبون الجزء من النهار نهاراً كاملاً والجزء من الليل ليلاً كاملاً. وكان التلمود (أقدس كتب لليهود بعد كتاب الله) يقول: «إضافة ساعة إلى يوم تُحسب يوماً آخر، وإضافة يوم إلى سنة يُحسب سنة أخرى». وبهذا حســب جزءاً من يوم الجمعة ٢٤ ســـاعة، وكل يوم السبت ٢٤ ساعة، وجزءاً من يوم الأحد ٢٤ ساعة، فكانت تلك ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ.

ثم قال المســيح لمنتقديه إن أهل نينوى ســيقفون أمام عرش الله الديان يدينون يهود عصر المسيح، لأنهم آمنوا بوعظ النبي يــونان، بينما لم يؤمن يهود عصر المســيح بوعظ المســيح، مع أنه أعظم من يونان.. ثم قال لهم إن ملكة التيمن (أي ملكة الجنوب) وهي ملكة سبا، ستقوم لتدين يهود عصر المسيح،

لأنها تجشَّمت متاعب السفر لتسمع حكمة سليمان (١ملوك ١٠: ١)، بينما رفض يهود عصر المسيح تعاليمه، مع أنه أعظم من سليمان.

ثم ضرب المسيح لسامعيه المثل الذي نتأمله الآن، وهو عن صاحب بيت اكتشف أن بيته مسكونٌ بروح نجس، فطرد الساكن وبدأ يكنس آثاره السيئة، ثم زيَّن البيت. ولكنه ارتكب خطأً جسيماً، هو أنه ترك البيت بدون علامة حياة، ولا حركة، ولا عمل نافع، وأهمل أن يسلِّمه لساكن جديد يشغله ويحرسه ويصونه.

وخرج الروح النجس المطرود إلى أماكن ليس فيها ماء، وطلب راحةً فلم يجد، لأنه لا يستريح إلا إذا وجد بشراً يؤذيهم، وليس في الصحراء من يؤذيه. فقرَّر أن يرجع ليستطلع حال البيت الذي كان يسكنه. ولما اقترب منه ودار حوله وجد أنه بلا ساكن. ثم اكتشف أنه صار أفضل حالاً مما تركه، فقد كان مكنوساً مزيَّناً، فقرَّر أن يصحب معه سبعة شياطين آخرين ليسكنوا معه، فصارت أواخر صاحب البيت أشر من أوائله، لأنه بعد أن كان عنده ساكن نجس واحد صارت عنده ثماني أرواح نجسة! كان الشيطان الأول وحده، لكن خطأ صاحب البيت في أنه بدأ إصلاحاً ولم يكمله أدَّى إلى نتائج وخيمة، فقد صارت الشياطين الثمانية معاً قوة متحكِّمة موجِّهة مدنِّسة.

ماذا قصد المسيح بهذا المثل؟

قصد أن بني إسرائيل استمروا يعبدون الله وفي الوقت نفسه يعبدون الوثن. ولكنهم بعد السبي البابلي (الذي استمر سبعين سنة) هجروا العبادة الوثنية، ولم يعودوا إليها أبداً، فيكونون بهذا قد أخرجوا الروح النجس. ولكنهم لم يسمحوا للمسيح أن يملك عليهم، فدخلت فيهم أرواح شريرة كثيرة أردأ من الأولى.. صحيحٌ أن قلوبهم اغتسلت من عبادة الوثن، لكنها لم تتعمَّر بنعمة الله. والمسيح في هذا المثَل لا يهاجم تنظيف البيت، لأن هذا واجب، لكنه يطالب بوجود الساكن الصالح، حتى لا يعود إليه الساكن الشرير القديم بحالة أشر. إن الإصلاح الجزئي، بترْك الخطية، دون الامتلاء بالفضيلة، هو إصلاح سلبي.

ويشبه حال الذين يُصلِحون من أخلاقياتهم، فيتوقفون مثلاً عن الغضب والسرقة والنميمة، ولكنهم لا يُدخِلون المسيح إلى قلوبهم، حال بني إسرائيل، فإنهم سرعان ما يسقطون في الكبرياء الروحية، ويرضون عن أنفسهم، فتكون أواخرهم أشرَّ من أوائلهم، وينطبق عليهم الوصف الرسولي: «لأنهم إذ كانوا بعدما هربوا من نجاسات العالم بمعرفة الرب والمخلِّص يسوع المسيح، يرتبكون أيضاً فيها فينغلبون، فقد صارت لهم الأواخر أشرَّ من الأوائل، لأنه كان خيراً لهم لو لم يعرفوا طريق البر، من أنهم بعدما عرفوا يرتدّون عن الوصية المقدَّسة المسلَّمة لهم» (٢بطرس ٢: ٢٠، ٢١).

وقصد المسيح أن يعلِّمنا أيضاً أن إصلاح أخلاقياتنا لا يعني أننا خلَصنا من خطايانا، فالإصلاح بدون التغيير الكامل بعمل الروح القدس يجلب اللعنة لا البركة، لأننا لا يمكن أن نفرِّغ حياتنا من الخطية بدون أن نملأها بنعمة المسيح. ولا يمكن أن يملأ فراغ حياتنا إلا الله نفسه.

وقصد المســـيـــح أيضاً أن يعلّمنا أنه لا مكان للحياد في حياتنا الروحية، فإن لم نكن عبيداً للمســـيح ســنكون عبيداً للشيطان، لأن لكل بيت رب بيت، يسكنه ويشغله ويحرسه ويصونه ويهتم به. فإن لم يكن المســيح ربَّ البيت ســـيكون الشيطان ربَّه.. فليكن المسيح رب حياتنا، لأنه قال: «من ليس معي فهو عليَّ» (لوقا ١١: ٢٣).

أولاً - إخلاء البيت ثم تسكينه

كلنا نرغب أن نصلح أمر حيـــاتنا وبيوتنا فنُخليها من الخطايا. وهذا ما فعله صاحب البيت إذ أخرج الروح النجس من بيته، طلباً للحياة الأفضل، لأنه رأى أن أول خطوات الإصلاح هي أن يطرد الشرير. ويقول المسيح إن الروح النجس خرج، مما يوضّح لنا أن إبليس لا يبقى في بيت أحد بغير رضاه، وهو لا يـــرغم أحداً على طاعته، لكنه يـــكتفي بأن يقترح الأكاذيب والخداع. وللبشر كامل الحرية أن ينفذوا اقتراحاته أو أن يرفضوها.

لم يُجبِر إبليس آدم وحواء ليأكلا من الشجرة الممنوعة، لكنه اقترح عليهما أن الأكل منها سيوصلهما إلى ســـعادة ورقي لا يـــريد الله أن يمنحهما لهما. وفوراً تغيَّرت نظرتهما إلى الشجرة، فرأيا أنها جيدة للأكل وبهجة للعيـــون وشهيَّـــة للنظر، فأكلا منها (تكوين ٣: ٦) وســـرعان ما اكتشفا أنه كذب عليهما وخدعهما وعرّاهما. وعجزا عن ستر نفسيهما، فافتقدهما الله بالأقمصة الجلدية التي سترت عريهما.

عندما جاء يـــوحنا المعمدان إلى اليهود من معاصري المســـيح يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا (لوقا ٣: ٣) «خرج إليـــه أورشليـــم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن معترفين بخطاياهم». فقال لـــهم: «أنا أعمّدكم بماءٍ للتوبة، ولكن الذي يـــأتي بعدي هو أقوى منّي، الذي لســـتُ أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمّدكم بالروح القدس ونار» (متى ٣: ٥، ٦، ١٦). فقبلوا منه معمودية الماء، وبهذا يكونون قد طردوا الروح الشريـــر .. لكنهم لم يقبلوا شهادة المعمدان للمســـيح، ورفضوا شهادة الروح القدس له. صحيحٌ أن ماء معمودية يوحنا غســـل أجســـادهم، ولكن حاجتهم الحقيقية كانت إلى غسل نفوسهم الداخلية بمعمودية «الروح القدس ونار».. لقد هيّأ المعمدان بيت بني إســـرائيل للســـاكن الجديد، فتاب السكير عن سكره، وترك الزاني زناه، ولكنهم لم يُدخِلوا المسيح قلوبهم، فصارت أواخرهم أشرَّ من أوائلهم.

ويـــشبِّه المسيح محاولاتنا إصلاح نفوسنا بأنها وضع رقعة من قماش جديد على ثوب عتيق، فيصير الحال أردأ. بينما الحاجة هي إلى ثوب جديد يقدّمه الله لنا مجاناً (لوقا ٥: ٣٦). نحتاج إلى ســـاكن جديد في بيوتنا ينظفها ويحفظها.

الحاجة إذاً هي إلى تغيير كامل يُجريه المســـيح في حياتك عندما تفتح قلبك له، فيحل فيه بالإيمان. وهـــو يقرع دائماً على باب قلبك ويقول لك: «هئنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح

الباب أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي» (رؤيا ٣: ٢٠). فهو الساكن القدوس الذي إن دخل القلب يُشبع الحياة.. الساكن الأول شرير يسلب صاحب البيت كل سلام، ويضيِّع منه كل فرح، ويملأ نفسه بالرعب. وعندما يشعر صاحب البيت بهذه الشرور ويطلب التغيير، يجب أن يسمح للقارع الجديد أن يدخل البيت ليُعمِّره بالمحبة والفرح والسلام.

وعندما يدخل المسيح قلبك يجب أن يكون هو المالك الوحيد، لأنه يغار عليك غيرة مقدسة تطالبك بأن تحبه وحده، ولا تُشرك معه في قلبك أحداً، لأن «الرب إلهك إله غيور» (خروج ٢٠: ٥) يطلب الولاء الكامل له، ولا يسمح للشرير أن يمسّك (١يوحنا ٥: ١٨)، فتفرِّغ البيت من الساكن الشرير بأن تخلع «الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور» (أفسس ٤: ٢٢). ولكنك لا تتوقف عند هذا التفريغ والخلع، بل تمضي إلى تعمير البيت بالساكن الجديد «وتتجدَّدوا بروح ذهنكم» (أفسس ٤: ٢٣) فتصبح أفكارك جديدة، وعواطفك مقدسة، وإرادتك خاضعة للرب «وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أفسس ٤: ٢٤).

ولكي يتَّضح لنا أننا خلعنا القديم وفي الوقت نفسه لبسنا الجديد، يجب أن نطرح عنا الكذب وأن نتكلم بالصدق كل واحد مع قريبه (أفسس ٤: ٢٥). ويجب أن لا تغرب الشمس على غيظنا حتى لا نعطي إبليس مكاناً، فنغفر ونتصالح مع المسيئين إلينا قبل أن ينتهي يومنا (أفسس ٤: ٢٦، ٢٧). و«لا يسرق السارق فيما بعد، بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه، ليكون له أن يعطي من له احتياج» (آية ٢٨)، و«لا تخرج كلمة رديية من أفواهكم، بل كل ما كان صالحاً للبنيان، حسب الحاجة، كي يعطي نعمة للسامعين» (آية ٢٩). و«ليُرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح وتجديف مع كل خبث. وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين متسامحين كما سامحكم الله أيضاً في المسيح» (آيتا ٣١، ٣٢).

لا بد أن نطرد الساكن القديم باتجاهاته الفاسدة وميوله الشريرة وأفعاله الأثيمة، ثم نعمِّر حياتنا بالساكن الجديد مع كل فضائله. «إذاً إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقةٌ جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كورنثوس ٥: ١٧).

ثانياً - الحذر من عودة الساكن الأول

من الغريب أن الساكن القديم الشرير قال: «أرجع إلى بيتي». فهل حقاً كان البيت بيته؟.. إنه لم يخلقه ولا تعب فيه، لكنه عاث فيه فساداً. فقوله: «أرجع إلى بيتي» اختلاقٌ وكذبٌ، لأنه الكذاب وأبو الكذاب. أما المستحق الوحيد أن يسكن بيتك فهو صاحبه الحقيقي الذي خلقك والذي يشفق عليك، والذي خاطبه المرنم بالقول: «نسجتني في بطن أمي. أحمدك من أجل أني قد امتزتُ عجباً. عجيبة هي أعمالك، ونفسي تعرف ذلك يقيناً» (مزمور ١٣٩: ١٣، ١٤). هو الذي يهتمّ ويعتني بك، والذي اشتراك بالفداء. هو الذي به تحيا وتتحرك وتوجد (أعمال ١٧: ٢٨). أنت تتنفس هواءه، وتشبع بغذائه وترتوي بمائه،

وتتمتع برعايته الأبوية الصالحة. وهو الذي اشتراك بفدائه. حقاً «اشتريتم بثمن، فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله» (اكورنثوس ٦: ٢٠). أنت فعلاً بيته الذي له حق امتلاكه مرتين، مرةً لأنه صنعك، ومرةً لأنه اشتراك.. مرةً بالولادة الجسدية، ومرة بالولادة الثانية من الروح القدس. فلتعطه حق الدخول والامتلاك، فيمنحك الحماية والضمان.

وعندما نُخلي البيت من الساكن الشرير ويعمره مالكه الحقيقي يجب أن نكون على حذر، لأن الساكن القديم الذي طُرد وأُجبر على الخروج سيشعر بالهزيمة، ويتحيَّن الفُرص ليسترجع ما كان يدَّعي أنه يملكه. لذلك «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه. فقاوموه راسخين في الإيمان» (ابطرس ٥: ٨، ٩). وهو ليس أسداً إنما يخدعنا بأنه أسد، فيزأر ليرعب، وهو في واقع الأمر لا يملك إلا صوته. لكنه يجول ملتمساً النائمين والغافلين ليبتلعهم. إنه لا يترك المؤمن الجديد في حاله الجديد يتمتع بحياته الجديدة، لكنه يحاربه ويحاول استعادته. فلنتوقَّع الحرب، ولنكن صاحين يقظين داخل دائرة نعمة الله، فقد حذَّرنا المسيح بقوله: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة» (متى ٢٦: ٤١).. وعندما يقول لك الشيطان إنك بيته، قُل له إنك هيكل الرب، وإن روحه يسكن فيك (اكورنثوس ٦: ١٩)، وستراه يركض مذعوراً، لأن المسيح صاحب البيت سيرعبه.

ثالثاً - بقاء المالك الجديد

يوجد ساكن شرير يجب طرده، ويوجد ساكن جديد يجب أن يملُك ويستمر امتلاكه وملكه، لأنه المالك الحقيقي الوحيد. ولكي يستمر المسيح سيداً لك وساكناً دائماً في قلبك أقدِّم لك ثلاث نصائح:

١ - اعرف حجم المشكلة:

الشيطان يهاجمنا دائماً، خصوصاً بعد قبولنا المسيح مخلِّصاً وفادياً. ولكن وعد المسيح لتلميذه بطرس هو لكل من فتح قلبه لخلاص المسيح: «الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة، ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك. وأنت متى رجعت ثبِّت إخوتك» (لوقا ٢٢: ٣١، ٣٢). وإدراكك لحجم المشكلة يجعلك تطيع الوصية الرسولية: «تقوَّوا في الرب وفي شدة قوته. البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس.. احملوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تقاوموا في اليوم الشرير. وبعد أن تتمِّموا كل شيء أن تثبتوا» (أفسس ٦: ١١، ١٣) «قاوموا إبليس فيهرب منكم» (يعقوب ٤: ٧)، فتقول: «إن كان الله معنا فمن علينا؟.. يعظم انتصارنا بالذي أحبَّنا» (رومية ٨: ٣١، ٣٧).

٢ - سيادة المسيح على الحياة كلها:

يجب أن يسيطر المسيح على كل أمور حياتك، طاعةً للنصيحة الرسولية: «أطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدِّموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية» (رومية ١٢: ١) فتضع جسدك بكامل رغبتك واختيارك على المذبح الإلهي ليصبح ملكاً للرب. كانت ذبيحة العهد القديم

تـذبح ثم توضع على المذبح. أما ذبيحة العهد الجديد فهي ذبيحة المؤمن الحي، الذي يقدِّم نفسه لله بكامل رضاه وإرادته قائلاً: «حبيبي لي وأنا له» (نشيد ٢: ١٦).

٣ - املأ وقتك بخدمة الرب:

عـندما يدخل المسيح قلبك ويغيِّر حياتك يجب أن تبدأ الشهادة لعمل النعمة فيك، وتقول: «لأني لست أسـتحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن» (رومية ١: ١٦)، وتطيع تكليف المسيح: «اذهب إلـى بيـتك وإلى أهلك وأخبِرهم كم صنع الرب بك ورحمك» (مرقس ٥: ١٩).. وهذه الخدمة والشهادة للرب تحفظك قوياً لأن قلبك سينشغل بخير النفوس الأبدي، وستنال المكافأة السماوية: «إن كان أحدٌ يـخدمني فليتبعني، وحيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي. وإن كان أحدٌ يخدمني يكرمه الآب» (يوحنا ١٢: ٢٦).

وما أكثر الخدمات التي يمكن أن تقدِّمها للرب وللمؤمنين، بالعمل والقدوة الحسـنة، متمثِّلاً بالمسيح، فيرى الناس المسيح فيك، وتفيح منك رائحته الذكية (٢كورنثوس ٢: ١٥).

فإن أردت أن يكون بيتك عامراً بالرب، فلتكن دوماً في خدمة الرب، تملأ حياتك بما ينفع الناس.

سؤالان

١ - كيف نتخلَّص من الساكن النجس؟

٢ - كيف نضمن استمرار المالك الجديد؟

٣ - امتياز الحياة ذات التحدِّيات

مثلا البرج المُكمل، والملك المستعد للحرب

وَكَانَ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ سَائِرِينَ مَعَهُ، فَالْتَفَتَ وَقَالَ لَهُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلا يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلادَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضاً فَلا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً. وَمَنْ لا يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَأْتِي وَرَائِي فَلا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً. وَمَنْ مِنْكُمْ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بُرْجاً لا يَجْلِسُ أَوَّلاً وَيَحْسِبُ النَّفَقَةَ هَلْ عِنْدَهُ مَا يَلْزَمُ لِكَمَالِهِ؟ لِئَلا يَضَعَ الأَسَاسَ وَلا يَقْدِرَ أَنْ يُكَمِّلَ، فَيَبْتَدِئَ جَمِيعُ النَّاظِرِينَ يَهْزَأُونَ بِهِ قَائِلِينَ: هَذَا الإِنْسَانُ ابْتَدَأَ يَبْنِي وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُكَمِّلَ!

وَأَيُّ مَلِكٍ إِنْ ذَهَبَ لِمُقَاتَلَةِ مَلِكٍ آخَرَ فِي حَرْبٍ لا يَجْلِسُ أَوَّلاً وَيَتَشَاوَرُ: هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُلاقِيَ بِعَشَرَةِ آلافٍ الَّذِي يَأْتِي عَلَيْهِ بِعِشْرِينَ أَلْفاً؟ وَإِلا فَمَا دَامَ ذَلِكَ بَعِيداً يُرْسِلُ سَفَارَةً وَيَسْأَلُ مَا هُوَ لِلصُّلْحِ. فَكَذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لا يَتْرُكُ جَمِيعَ أَمْوَالِهِ لا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذاً (لوقا ١٤: ٢٥-٣٣).

كان المسيح في طريقه إلى الصليب فتبعته جموعٌ سبق أن أطعمهم فشبعوا، وأبرأهم فشفوا، وربما تبعوه لأنهم أرادوا أن يأخذوا منه أكثر. وصحيحٌ أنه كلما سرنا وراء المسيح نأخذ منه أكثر، لكننا نخطئ لو حسبنا أن الأخذ هو كل شيء، لأن كل أخذٍ يقابله عطاء. إنه يعطيك مجاناً لكي تعطي الآخرين. وقد أعطاك ذاته لتعيش له ولخدمته. وعندما تكتفي بالأخذ دون العطاء تموت.. يمنحنا المسيح بركات ويطالبنا بحمل مسؤوليات، ويقول: «إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً.. فكذلك كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لوقا ١٤: ٢٦، ٣٣). وليس معنى هذا أن يكره الإنسان أحباءه، بل أن يكون للمسيح المقام الأول في حياتنا قبل العائلة والأصدقاء والعمل والمال وكل شيء، فهو اللؤلؤة الواحدة كثيرة الثمن الذي يستحق أن نهجر كل شيء في سبيل اتِّباعه (متى ١٣: ٤٥، ٤٦). كل ما نملكه بدون نعمة المسيح فانٍ، وفي نوره المجيد يخبو بريق كل شيء، ويصير مثل ضوء شمعة في نور الشمس، يبدو باهتاً كأن لا وجود له، بل يمكن الاستغناء عنه، لأن الشمس تمنح كل النور والدفء.

ونبَّه المسيح الجموع التي تبعته لتكلفة السير وراءه، فقد تبعه البعض دون أن يدركوا ثمن اتِّباعه. وسار البعض الآخر وراءه بحماس عاطفي حتى نالهم الاضطهاد فارتدّوا عنه. وسار البعض الثالث وراءه طمعاً في عطاياه، وعندما لم يعطهم ما طالبوا به هجروه.. وهو لا يريد جمعاً غفيراً يتبعه كالقطيع، بل يطلب مؤمنين يدركون أن «من أراد أن يُخلِّص نفسه يهلكها، ومن يُهلك نفسه من أجل المسيح يجدها» (متى ١٦: ٢٥).

ولا شك أن من يتبع المسيح يجب أن يدخل من الباب الضيق ويسير في الطريق الكرب (متى ٧: ١٤). ولم يقصد المسيح أن يضيف للباب الضيق ضيقاً ولا للطريق الكرب كرباً، ولم يُرِد أن يطفئ حماس الذين أرادوا اتِّباعه، بل قصد إبعاد العاطفيين الذين يقبلون الكلمة بفرح، ولكن عندما تصادفهم المتاعب يرتدّون،

كما أراد إبعاد التابعين المتعجّلين المندفعين الذين يجهلون تكلفة التلمذة له (لوقا ٩: ٥٧، ٥٨).

وفي حياتنا اليومية نجد كثيرين يبدأون ولا يكملون، فهناك من يشتري شيئاً بالتقسيط، ويدفع أول الأقساط ثم يعجز عن السداد، فيصبح أضحوكة جيرانه. وهناك من يدفع ثمن سيارة أو آلة تصوير ثم يعجز عن دفع نفقات تشغيلها، فتبقى عنده بلا فائدة. وهناك من ينذر نذوراً يعجز عن الوفاء بها، لذلك قال إمام الحكماء سليمان: «أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفي» (جامعة ٥: ٥).

ولكي يوصّل المسيح فكرة حساب التكلفة، وليبصِّر سامعيه بنفقة اتِّباعه، ضرب لهم مثَلَيْن: المثل الأول أن مَن يريد أن يبني برجاً يجب أن يجلس أولاً ويحسب نفقة البناء لئلا يضع الأساس ولا يقدر أن يكمل فيهزأ به الناس. ولعله وقت رواية هذا المثل كان يرى بناءً ناقصاً من المباني التي اعتاد أفراد عائلة الملك هيرودس أن يبدأوا بناءها دون أن يكملوها، فضرب بهم هذا المثل.. أما المثل الثاني فعن الملك الذي يجب أن يتشاور أولاً مع قادة جيشه قبل أن يشنّ حرباً، ليعرف إن كان عنده ما تحتاجه الحرب من رجال وعتاد ومؤن. ثم يقرر هل يحارب العدو أو يرضى بعقد معاهدة صلح معه.

أولاً - هدفنا أن نبني وأن ننتصر

الحياة مع المسيح بناءٌ كما أنها حرب، فكلما أردنا بناء أنفسنا في الإيمان لقينا المقاومة.. والحياة الإيمانية جهادٌ أكبر داخلي مع النفس، كما أنها جهاد أصغر مع المصاعب التي تقاومها من خارج النفس. هي مثل بناء برج أو جهاد في معركة حربية.. وكل من يريد أن يتبع المسيح يجب أن يعطيه المكان الأول في حياته قبل كل علاقاته الاجتماعية والاقتصادية، وعليه أن يصلب الجسد مع الأهواء والشهوات (غلاطية ٥: ٢٤) وعليه أن يحمل صليبه كل يوم ويسير وراء المسيح متتلمذاً له (لوقا ١٤: ٢٧). «لنطرح كل ثقل، والخطية المحيطة بنا بسهولة، ولنحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا، ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمّله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب» (عبرانيين ١٢: ١، ٢).

عندما تريد أن تبنى حياتك الإيمانية، وترفع قامة عائلتك وكنيستك، يجب أن تتوقّع الحرب. وكلنا يبني، سواء أردنا أم لم نرِد. قد يبني الإنسان بيتاً أرضياً. وقد يبني سجناً.. وكل أب متسلّط يجعل من بيته سجناً لزوجته وأولاده. وقد يبني ملهى يضيّع فيه حياته في شهواته وملذاته.. وقد يبني سفينة لا تستقر في مكان. ولكنه يمكن أن يبني هيكلاً للرب يفرح به، ويُفرِح به من هم حوله.. والحكيم هو الذي يبني برجاً روحياً يرتفع ويعلو كل يوم، فينمو في النعمة وفي معرفة ربنا يسوع المسيح (٢بطرس ٣: ١٨). فإن كنت تبني، لا تكتفِ ببناء كوخ فتصرف جهدك في بناءٍ متواضع، بل أقِم بناءً عظيماً. اعمل للمسيح بفكر كبير. لا تفكر بإمكانياتك أنت بل بعجائبه هو، ولا بقوتك المحدودة لكن بقدراته غير المحدودة.. كثيرون ينظرون إلى أنفسهم أنهم أصفار، وأن كل ما معهم مجرد خمس خبزات وسمكتين فيقولون للمسيح: «ولكن ما هذا

لمثل هؤلاء؟» (يوحنا ٦: ٥). ولكن ما أن يضعوا إمكانياتهم المحدودة في يد المسـيح حتى يُطعم بهم الآلاف، بل وتفيض اثنتا عشرة قفّة. ولا تقنع ببناء رمال على الشاطئ بل ادخل إلى العُمق، وابنِ على الصخر. عندئذ لا تخاف من رياح أو أمطار، لأنك مؤسَّس على المسيح صخر الدهور. كم من مؤمنين حزانى على أنفسهم وعلى بيوتهم وعلى كنائسهم، ويفكرون دوماً بمنطق اليأس، ولا يرون إلا نصف الكوب الفارغ.. وعلى هؤلاء أن يـرفعوا أنظارهم إلى المسيح رئيس الإيمان، ليكتشفوا أنه لا يأس معه (عبرانيين ١٢: ٢). «كحزانى ونحن دائماً فرحون. كفقراء ونحن نغني كثيرين. كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء» (٢كورنثوس ٦: ١٠).

عـندما يرتفع بناء البرج يراه الجميع «لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات» (مـتى ٥: ١٦). سيرى الناس عملك على أي حال، فليروا فيك شيئاً عظيماً من عمل نعمة المسيح. إنك معه بطل. «ليـقُل الضعيف بطلٌ أنا.. يعظم انتصارنا بالذي أحبنا» (يوئيل ٣: ١٠ ورومية ٨: ٣٧). «أنتم من الله أيها الأولاد، وقد غلبتموهم، لأن الذي فيكم أعظم من الذي في العالم.. لأن كل من وُلد من الله يغلب العالم. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا» (١يوحنا ٤: ٤ و٥: ٤).

ما أعظم المعجزات التي يمكن أن يُجريها المسـيح بواسطة المؤمنين الذين يسلِّمون نفوسهم له، ويبنون أنفسهم على إيمانهم الأقدس (يهوذا ٢٠). فلتكن نفوسنا كباراً حتى لو تعبت في مرادها الأجسام، لأننا نحلم للرب ونبني له بغير يأس، متذكرين تاريخ الرسل والقديسين الذين بنوا وربحوا أفراداً وشعوباً للرب.

ثانياً - يجب أن تحسب التكلفة

إن أردت أن تبني حياتك مثل برج يعلو لمجد الله فاحسـب تكلفة البناء، ثم تكلفة حراسـته، وتخيَّر طريقة الدفاع عنه.

١ - ليكن عندك خطة للبناء:

أعدَّ الله للمؤمنيـن خُطة حياة، وعلى كل مؤمن أن يسـأل: «ماذا تريد يا رب أن أفعل؟». ويقول الرسول بولس عن هذه الخطة: «لأننا نحن (المؤمنين) عمله (الله)، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أفسس ٢: ١٠).

وستجد خطة الله لحياتك في كتابك المقدس. اقرأ الكلمة لتعرف ماذا يريد الله منك.

٢ - ابدأ مبكراً بكل قلبك:

أطِع نصيحة إمام الحكماء سـليمان: «فاذكُر خالقك في أيام شبابك، قبل أن تأتي أيام الشر أو تجيء السـنون إذ تقول: ليـس لي فيـها سـرور» (جامعة ١٢: ١).. ضع كل قلبك على البناء، وأعطِه كل الانتباه، وارفع صلاة المرنم: «علِّمني يـا رب طريـقك أسـلكُ في حقِّك. وحِّد قلبي لخوف اسـمك» (مزمور ٨٦: ١١)، ولا تنسَ أن رجلاً ذا رأيين «هو متقلقل في جميع طرقه» (يعقوب ١: ٨).

٣ - ابدأ بالأساس:

قال الرسول بولس: «لا يستطيع أحدٌ أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضع، الذي هو يسوع المسيح» (اكورنثوس ٣: ١١). فيجب أن يكون المسيح هو المخلِّص والفادي وسيد الحياة.. وقال أيضاً: «مبنيِّين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل البناء مركّباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب» (أفسس ٢: ٢٠، ٢١). فالأساس هو المسيح الذي علَّمنا عنه رسله الكرام مما سمعوه من تعاليمه، ورأوه من معجزاته، بعد أن لمسته أيديهم لأنه الكلمة المتجسِّد (١يوحنا ١: ١)، ونقلوا تعاليمه إلى الناس من بعدهم، فقام أنبياء العهد الجديد ينشرون هذه التعاليم ويبنون الناس في الإيمان، ويعظونهم مشجِّعين، ويسلّونهم برواية تواريخ معاملات الله مع شعبه (اكورنثوس ١٤: ٣).. أما حجر الزاوية فهو المسيح الذي يربط جدران البناء معاً، فهو الذي يجمع أبناء الله المتفرّقين إلى بعضهم البعض، ويقرِّب المؤمنين الذين جاءوا من خلفيات مختلفة ليكونوا بناءً واحداً، مركبا معاً، يرتبط أحدهم بالآخر هيكلاً مقدساً في الرب. المسيح إذاً هو أساس الحياة الروحية، وتعاليمه هي أساس الإيمان.

٤ - اختَرْ أفضل مواد البناء:

بعد أن اخترتَ الأساس السليم ابْنِ بأفضل المواد. احترس من الأشياء التي لا تبني، والتي قال عنها الرسول بولس: «كل الأشياء تحل لي، لكن ليس كل الأشياء توافق. كل الأشياء تحل لي، ولكن ليس كل الأشياء تبني» (اكورنثوس ١٠: ٢٣). والذين يبنون على الأساس الصحيح يبنون ذهباً، أو فضةً، أو حجارةً كريمة، أو خشباً أو عشباً أو قشاً (اكورنثوس ٣: ١٢). فليكن بناؤك ذهباً وفضة وحجارة كريمة، واحترس من القش وما شابهه، فإن الرب في اليوم الأخير سيمتحن بالنار عمل كل واحد. فإن بقي ما عملته، بعد أن تكون قد بنيته على أساس المسيح، ستأخذ أجرة (اكورنثوس ٣: ١٣، ١٤).

والذهب والفضة والحجارة الكريمة هي كلمة الله، والصلاة. لا يمكن أن نبني نفوسنا بالأشياء الهشّة، إنما نبنيها بدراسة الكلمة والتعمّق فيها، فتمتلئ قلوبنا بها، وتصبح سراجاً لأرجلنا ونوراً لسبيلنا (مزمور ١١٩: ١٠٥). فلنقتدِ بالنبي إرميا الذي قال: «وُجد كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي» (إرميا ١٥: ١٦). ابنِ حياتك في مخدع الصلاة حيث يجهِّز لك الرب في محضره مائدة دسمة مُشبعة من كلمته (مزمور ٢٣: ٥)، فلا تصيبك الأنيميا الروحية فتخور في الطريق وتشتهي الخرنوب الذي تأكله الخنازير (لوقا ١٥: ١٦). اصعد على جبال الصلاة العالية ولا تسكن في وديان العالم المنخفضة، لأن الرب يدعوك أن تعلو معه إلى جبل التجلي، فترى ناموس موسى وتعاليم إيليا، لكنك فوق هذا كله تحظى برؤية المسيح الذي يبقى معك فتبقى معه.. ومعروفٌ أن التلاميذ الثلاثة الذين صعدوا مع المسيح إلى جبل التجلي رأوا مجده الأسنى، أما التلاميذ الذين بقوا في الوادي فقد أصابهم اليأس وهم يرون الروح النجس يصرع ولداً بائساً! (لوقا ٩: ٢٨-٤٣).

لا تبدأ البناء بقوتك الذاتية، بل اعتمِد على النعمة، وليكن شعارك: «مع المسـيح صُلبتُ فأحيا لا أنا، بل المسـيح يحيا فيَّ» (غلاطية ٢: ٢٠). في اعتمادك على حياة المسيح فيك ستكون مثل بطرس وهو يـمشي على الماء. فاحترس من أن تعتمد على قوتك الشخصية لئلا تبدأ تغرق (متى ١٤: ٢٨-٣٠). في حياة المسـيح فيك سـتختبر سلطانه وقوته، ويتحقَّق لك وعده: «من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها، لأني ماضٍ إلى أبي. ومهما سـألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن. إن سألتم شيئاً باسمي فإني أفعله» (يوحنا ١٤: ١٢-١٤).

إن وضعت أساساً متيناً، وبنيت عليه بأفضل مواد بناء، ودافعت عن نفسك بسيف الروح الذي هو كلمة الله، سيرتفع برجك الروحي لأن ربَّك سيؤيدك بقوته، فيُعجب بك جميع الناظرين ويقولون: هذا الإنسان بدأ وأكمل، لأنه آمن بالوعد الإلهي: «لا تخف لأني فديتك. دعوتك باسمك. أنت لي. إذا اجتزت في المياه فأنا معك، وفي الأنهار فلا تغمرك. إذا مشيت في النار فلا تُلذع واللهيب لا يحرقك» (إشعياء ٤٣: ١، ٢).

٥ - ابْنِ بيد، وامسك السلاح باليد الأخرى:

كـل من يبني برجاً يرفع بناء حياته وعائلته وكنيسته ومجتمعه لا بد يلقى المقاومة، وعليه أن يطبِّق نموذج رجال نحميـا «البانون على السـور بنوا، وحاملو الأحمال حملوا. باليـد الواحدة يعملون العمل، وبالأخرى يحملون السـلاح. وكان البانون يبنون وسـيف كل واحد مربوط على جنبه» (نحميا ٤: ١٧، ١٨)، فلم يكن البناء سهلاً، لأن إبليس عدوٌّ شرس، وهو يعلم أن بناء البرج سيهدِّد حصونه فلا بد يحارب ويقاوم ويهدد.

وفـي حياتك الروحية ستجد حرباً عليك من داخل نفسك، فإن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسـد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعل ما لا تريد (غلاطية ٥: ١٧). وسـتجد حرباً عليك من المجتمع الذي لا يـخاف الله، والذي تختلف قيمه عن قيم ملكوت السـماوات، والذي يُقال لنا عنه: «لا تحبوا العالم، ولا الأشياء التي في العالم. إن أحبَّ أحدٌ العالم فليست فيه محبة الآب، لأن كل ما في العالم شـهوة الجسد وشهوة العيون وتعظُّم المعيشة. ليس من الآب بل من العالم. والعالم يمضي وشهوته. وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» (ايوحنا ٢: ١٥-١٧).

فمن الواجب ومن الأسـلم لك أن تتسلَّح بسلاح الله الكامل، وتُمسك دوماً سيف الروح (أفسس ٦: ١٧) لأنـه أمضى من كل سيف ذي حدين، يخترق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ويميِّز أفكار القلب ونيّاته (عبرانيين ٤: ١٢).

ثالثاً - نصائح أساسية للبناء

هناك تكلفة ونفقة كبيـرة لبناء حياتك الإيمانية بناءً سـليماً ولحربك المنتصرة. وأقدم لك النصائح التالية لتعاونك:

١ - اترك كل ما لا يُرضي الله:

يُـجرِّب البنّاء أن يبني ما يُرضي الناس، ويهتم أحياناً بأحكامهم ووُجهات نظرهم في ما يبنيه. لكن عليه

أن يدرك أن رضى الرب على بناء حياته وحياة عائلته هو الأهم «فلا يقدر أحدٌ أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر» (متى ٦: ٢٤).. فليكن شعارك: «لو كنتُ بعد أُرضي الناس لم أكن عبداً للمسيح» (غلاطية ١: ١٠). اترُك كل ما تعلم أن الله يرفضه، وصلِّ كل يوم: «لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مرضيَّةً أمامك يا رب صخرتي ووليِّي» (مزمور ١٩: ١٤).

٢ - تدرَج في البناء:

ابدأ بالقاعدة لتصل إلى القمة. لا تحاول أن تبني الدور الثالث قبل الدور الأول، بمعنى أنك يجب أن تبدأ بالقيام بالواجبات البسيطة، مهما كانت بسيطة، حتى لو كانت غسل أرجل إخوتك. «يقاوم الله المستكبرين. وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (يعقوب ٤: ٦). لا تفكِّر في العظائم، بل كُن متواضعاً «غير مهتمِّين بالأمور العالية، بل منقادين إلى المتَّضعين. لا تكونوا حكماء عند أنفسكم» (رومية ١٢: ١٦). اخضع لصوت الله في كل ما يوجِّهك إليه، واسمح له أن يستخدمك حيث يريد، فيجهِّزك لعملٍ أكبر. ولا تنسَ أنك عندما تطيعه يكشف لك المزيد من إرادته، ويكلِّفك بخدمات متنوِّعة، ويقول لك: «نِعِمّا (اختصار: نِعْمَ ما فعلت، بمعنى: أحسنتَ) أيها العبد الصالح والأمين. كنتَ أميناً في القليل فأقيمك على الكثير» (متى ٢٥: ٢١).

٣ - توقَّع المقاومة:

كلما ارتفع بناؤك تصبح عرضةً لمقاومة الرياح العاتية، فقد قال المسيح لتابعيه: «لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم.. إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم، وإن كانوا قد حفظوا كلامي فسيحفظون كلامكم» (يوحنا ١٥: ١٩، ٢٠). ولا تنسَ أنه «وُهِب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (فيلبي ١: ٢٩).

٤ - كُن متأكداً من النصرة:

هدف المؤمن هو تمجيد الله الذي يمدّ يد محبته بكل تأييد ومساندة، فيعلو البناء ويرتفع بالرغم من المعطلات والمقاومات. النصرة هي لك وأنت تبني حياتك وحياة عائلتك وكنيستك ومجتمعك «لأن كل من وُلد من الله يغلب العالم. وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا» (ايوحنا ٥: ٤). «لذلك لا نفشل. . لأن خِفَّة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثِقَل مجد أبدياً. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى. لأن التي تُرى وقتية، أما التي لا تُرى فأبدية» (٢كورنثوس ٤: ١٦-١٨).

سؤالان

١ - لماذا طالبنا المسيح بأن نحسب حساب النفقة؟

٢ - ما معنى أن تتدرَّج في البناء؟

٤ - امتياز الحكمة

مثل البنّاء الحكيم

فَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هَذِهِ وَيَعْمَلُ بِهَا أُشَبِّهُهُ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الصَّخْرِ، فَنَزَلَ الْمَطَرُ وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ، وَوَقَعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ فَلَمْ يَسْقُطْ، لأَنَّهُ كَانَ مُؤَسَّساً عَلَى الصَّخْرِ. وَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالِي هَذِهِ وَلا يَعْمَلُ بِهَا يُشَبَّهُ بِرَجُلٍ جَاهِلٍ بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الرَّمْلِ، فَنَزَلَ الْمَطَرُ وَجَاءَتِ الأَنْهَارُ وَهَبَّتِ الرِّيَاحُ، وَصَدَمَتْ ذَلِكَ الْبَيْتَ فَسَقَطَ، وَكَانَ سُقُوطُهُ عَظِيماً! (متى ٧: ٢٤-٢٧).

(ورد هذا المثل أيضاً في لوقا ٦: ٤٦-٤٩)

ألـقى المسيح الموعظة على الجبل (إنجيل متى أصحاحات ٥-٧) بأسلوب وعظٍ يختلف عن أسلوب وعظ أهل زمانه الذين كانوا يعتمدون على النقل، شرح فيها بسـلطانه الشخصي كل الجوانب التي تهمُّ المؤمن، فبدأ بوصف السعداء، ثم قدَّم شريعة العهد الجديد التي تكمِّل شريعة موسى ولا تنقضها.

والموعظة على الجبل هي دسـتور الحياة المسيحية، الذي يبدأ بضرورة فحص دواخل النفس (متى ٥: ١-١٦)، فـنرى إن كنا مساكين بالروح (متى ٥: ٣) نحس بفقرنا الروحي واحتياجنا الدائم إلى رحمة الله.. وإن كنا حزانى على خطايانا فيكرمنا الرب ويعزينا بغفرانها (متى ٥: ٤)، وهكذا.. في هذه الموعظة أعلن الـمسيح أنه لم يأتِ لينقض شريعة موسى بل ليكملها (٥: ١٧-٢٠).. ثم تحدَّث عن واجبات المؤمن به من نـحو الناس، فقدَّم شريعة الصُّلح (متى ٥: ٢١-٢٦) وشريعة نقاوة القلب (٥: ٢٧-٣٢) وشريعة الحق (٥: ٣٣-٣٧) وشـريعة الحب (٥: ٣٨-٤٨).. ثم علَّم عن واجباتنا من نحو الله في شريعة الصدقة (٦: ١-٤) وشريـعة الصلاة (٦: ٥-١٥) وشريعة الصوم (٦: ١٦-١٨). ثم واجباتنا من نحو المال (٦: ١٩-٣٤)، ومن نحو غيـرنا من المؤمنيـن (٧: ١-٦)، ومن نحو انتظار اسـتجابة الصلاة (٧: ٧-١٢)، ومن نحو الأبدية فندخل من الباب الضيق (٧: ١٣، ١٤) ونحترس من الأنبياء الكذبة (٧: ١٥-٢٣).

ثم ختم المسـيح موعظته على الجبل بمثَل البنّاء الحكيم الذي يبني على الصخر، وهو الذي يسـمع كلمة الملكوت ويعمل بها، بالمفارقة مع الجاهل الذي يبني على الرمل، وهو الذي يسمع ولا يعمل. ومن المفرح أن نجد السـامع العامل، ولكن من المؤسـف أن نجد أيـضاً أصحاب العبادة الكلاميـة، الذين يـقتربون إلى الرب بأقوالهم، ويكرمونه بشفاههم، أما قلوبهم فبعيدة عنه (إشعياء ٢٩: ١٣ ومتى ١٥: ٨).. ويـقول المسـيح لكل البنّائين الحكماء: «أنتم أحبّائي إن فعلتم ما أوصيكم به» (يوحنا ١٥: ١٤). ويقول للبنّائين الجهلة: «لماذا تدعونني: يا رب، يا رب، وأنتم لا تفعلون ما أقوله؟» (لوقا ٦: ٤٦).

أولاً - أساسان وبناءان

خلق الله أبوينـا الأوّليـن على صورته، وأسـكنهما جنة عدن، ومنحهما إرادةً حرَّة، ودبَّر لهما كل ما يـسـاعدهما على حيـاة الطاعة، ولكنهما عصيـا ربهما. ولما كان الله محبة فتّش عليهما ودبَّر لهما الفداء، وأوضح لهما أن الكفارة هي السبيل الوحيد للخلاص، وأن هناك أساساً واحداً يصلح لبناء علاقة حيَّة مع الله،

هو نســل المرأة الذي يسحق رأس الحية (تكوين ٣: ١٥). وقد وصف الرسول بطرس هذا الأساس في قوله إنه المســيــح «الحجر الذي احتقرتموه أيها البناؤون، الذي صار رأس الزاوية. وليس بأحدٍ غيره الخلاص، لأن ليس اســمٌ آخر تحت السماء قد أُعطي بين الناس به ينبغي أن نخلُص» (أعمال ٤: ١١، ١٢). وكـل حكيم يبني على الأساس الوحيد السليم، أما الجاهل فهو الذي يختار لنفسه أساساً آخر دخيلاً زائفاً، ينهدم كل بناء يقوم عليه. فلنتأمل الأساسين والبنائين:

١ - بناء على أساس صخري:

والأســاس الصخري هو الأســاس الوحيد الذي يُقيم عليه الإنســان الحكيم بناء حياته. إنه المســيح وتعاليمه، لأنه «لا يســتطيع أحدٌ أن يضع أســاســاً آخر غير الذي وُضع، الذي هو يســوع المسيح» (١كورنثوس ٣: ١١). فكل وعود الغفران مبنيــّة على عمل المســيح الكفاري. هو المخلِّص والفادي، ويــجب أن يكون ســيد الحياة. وهو الحي الذي يقدِّم الفداء لكل إنســان، ويقول: «أصغيتُ إلى الذين لم يسألوا. وُجِدتُ من الذين لم يطلبوني. قلتُ: هئنذا لأمّة لم تُسَمَّ باسمي» (إشعياء ٦٥: ١).

ويعلِّمنا مثَل البنّاء الحكيم أن تعاليم المسيح مُلزِمة، وعملية، وقابلة للتطبيق بمعونة الروح القدس. فليس الإنجيل مجرد أخبار تُسمع، بل أوامر تُنفَّذ، لأنه يأمرنا «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريــحكم» (متى ١١: ٢٨). «إن أحبَّني أحد يحفظ كلامي» (يوحنا ١٤: ٢٣). «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُــمَلّ» (لوقا ١٨: ١). «أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيــكم. أحســنوا إلى مبغضيكم» (متى ٥: ٤٤). «اغفروا يُــغفَر لكم» (لوقا ٦: ٣٧). «ارْعَ خرافي.. ارْعَ غنمي» (يوحنا ٢١: ١٥، ١٦). «ثبِّت إخوتك» (لوقا ٢٢: ٣٢). والحكيم هو الذي يعمل بهذه الأوامر، فيبني بيته على أساس سليم دائم لا يتزعزع.

احتضنت فتاةٌ أمَّها وقالت لها بابتســامة كبيــرة: «ماما، أنا أحبك، وأنا مســتعدة أن أطيــع كل أمر تأمريــنني به.. هل تحتاجين إلى شيء أذهب لأشتريه؟ هل أجهِّز مائدة الغداء؟ هل أذهب لأُحضر أخي مــن المدرسة؟».. هذه الفتاة أقامت بناءً عظيماً من ثقة أمها بها. ولو أن الأم مرضت ستكون متأكدة أن هناك من ســيعتني بها وبعائلتها أثناء مرضها. كما بنَت الفتاة ذكريات سعيدة عندها من نحو أمها، وعند أمها من نحوها. وما قالته هذه الفتاة لأمها يــجب أن يــقوله لله كل مؤمن حكيم، وينفِّذه. فلنكن عاملين بالكلمة، لا سامعين فقط خادعين نفوسنا (يعقوب ١: ٢٢).

٢ - بناء على أساس رملي:

والرمل هو الأســاس المتســيِّب غير المتماسك، الذي لا يحتاج إلى مجهود في إقامة البناء عليه. إنه الأســاس الذي يبني عليه من يقولون لله: «ابعُد عنّا وبمعرفة طرقك لا نُسر» (أيوب ٢١: ١٤) «الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المســيح، الذي هو صورة الله» (٢كورنثوس ٤: ٤).

ويوضح هذا المثل أن الناس ينقسمون أمام أوامر المسيح إلى نوعين: حكيم مطيع مستعد لكل عمل صالح، وجاهل عاصٍ يقول في قلبه «ليس إله». ومن المؤسف أن هناك نقاط تشابه كثيرة بينهما، فكلاهما متديّنان يتعبّدان في بيت الله، وسمع كلاهما كلمات الموعظة على الجبل، ووصلهما نفس التعليم، وشعرا بحاجتهما إلى ضرورة البناء للاحتماء والاطمئنان، وكانت لكليهما فرصة البناء على أساس صخري، وكانا قادرين على البناء، وقاما به حتى اكتمل، وكان كلٌّ منهما واثقاً من البناء الذي أقامه.

ولكنهما اختلفا في اختيار أساس البيت، وهو رغم أهميته ليس ظاهراً لمن ينظر من الخارج، لكن الله يراه «لأن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب» (١صموئيل ١٦: ٧). أخذ الحكيم في اعتباره أهمية الأساس، وأصرّ أن يحفر ويعمّق حتى يرتفع بأساس سليم. أما الجاهل فلم يهتمّ بالعُمق، وكان متعجّلاً يريد أن يرتفع بناؤه بسرعة.

اهتمّ الجاهل بالمظهر الخارجي ليُرضي الناس، وهو ما ندعوه رياءً ونفاقاً. فقد فاق اهتمامه بالشكليات المنظورة اهتمامه بالتأسيس والتعميق الذي يؤهّل للصمود. ولم يصفه المسيح بأنه شرير، بل سمّاه «جاهلاً» وهي تسمية تعبّر عن الأسى عليه أكثر منها على الإدانة له. إنه شريك العذارى الجاهلات اللواتي ملأن مصابيحهن بالزيت ولكنهنّ لم يعملن حساب تأخُّر العريس (متى ٢٥: ١-١٣)، وهو شريك الغني الغبي الذي عمل حساب دنياه ونسي حساب آخرته (لوقا ١٢: ١٣-٢١)، ويشاركه كثيرون من الناس، ومنهم الأديب الأمريكي مارك توين الذي قال إن الآيات التي ضايقته من الكتاب المقدس لم تكن الآيات التي لم يفهمها، بل الآيات التي فهمها، لأنه لم يشأ أن يطبّقها في حياته!

وواضحٌ من بناء الجاهل أن شخصيته متسرّعة تحاول أن تأخذ بسرعة، فتفقد ما تحصل عليه بسرعة، إذ سرعان ما تظهر الشقوق الداخلية في حوائط البيت المؤسَّس على الرمل، فتهبط أرضيّته وينهار سقفه في مواجهة العوامل الطبيعية عند نزول المطر ومجيء الأنهار وهبوب العواصف، فيسقط ويكون سقوطه مدوياً!

ثانياً - امتحان حتمي

«فنزل المطر، وجاءت الأنهار، وهبّت الرياح». هذه ثلاثة أمور لا مفرّ من أن يواجهها كل بناء، ثبت أمامها البيت المبني على الصخر، وانهار أمامها البيت المبني على الرمل. وهي صعوبات تبيّن معدن الإنسان، إن كان أساسه على الصخر أو على الرمل، وتُعلِن ثبات العاقل، وتفضح نفاق الجاهل. وواضح أن تعقّل المؤمن لا يمنع إتيان الصعوبات عليه، لكن هذا التعقّل يساعده على احتوائها، والثبوت أمامها.

١ - امتحان من السماء:

جاء الامتحان الأول في صورة مطر نزل من فوق، يضرب الرأس، ويجرف ما تحت القدمين، فيكشف الوجوه ويزيل أقنعة الزيف! وهو يرمز إلى التجارب التي يسمح الله لنا بها، كمرض أو أزمة مالية أو فشل في مجال العمل، ويقصد به أن يرفع أنظارنا إليه. والحكيم هو الذي يثبت في الامتحان،

فإنه «طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكّى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبونه» (يعقوب ١: ١٢). أما الجاهل فينهار أمام هذا الامتحان، لأنه جاهل غير مطيع.

كان رجل أعمال في بدء حياته قريباً من الرب جداً، ولكن شواغل العمل استغرقته حتى ابتعد عن الرب مدة أربعين سنة. وحدث أن أُصيب بمرض ألزمه الفراش، فرقد على ظهره مدة أربعين يوماً أتاحت له فرصةً إجبارية للتأمل والصلاة، فقال: «أربعون سنة ابتعدتُ فيها عن ربي، ولكنه في محبته فتش عليَّ ورفع وجهي إلى أعلى مدة أربعين يوماً. ونظرت، فلم أجد سواه، فدعوته: ربي وإلهي! وأدركت أن المرض الذي أصابني كان برهاناً على محبة الرب لي واهتمامه بي».

وامتحان السماء بركة دائمة للعاقل والجاهل، لأن الله لا يمتحن العقلاء ليفشّلهم، بل ليقرِّبهم إليه أكثر وليزيدهم حكمة. وامتحان السماء للجهال هو إحدى الطرق التي يقرع بها المسيح باب قلوبهم ليتوبوا ويطلبوا وجهه، ولو أن أكثر الناس ساهون! كم من مرة يمنح الله الإنسان نجاحاً فيفرح بالعطية ولا يُعير المعطي الوهّاب انتباهاً، وهذا هو الهلاك الذي يُفسد في الظهيرة (مزمور ٩١: ٦)، فيُنزل الرب مطره ليوقظ الإنسان لمسؤوليات حياته الأبدية، ويقول له: «اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم.. هوذا الآن وقت مقبول. هوذا الآن يوم خلاص» (عبرانيين ٣: ١٥ و٢كورنثوس ٦: ٢).

٢ - امتحان من الأرض:

«جاءت الأنهار» وهي ترمز إلى الأشرار من البشر حولنا، الذين يسخرون منّا أو يوقعون بنا الأذى. وقد تجيئنا الأنهار من أعدائنا أو من داخل عائلاتنا، كما باع أبناء يعقوب أخاهم يوسف عبداً لتجّار قافلةٍ مسافرة إلى مصر. ويصف المرنم الامتحان الأرضي الذي يجيئنا من المحيطين بنا بقوله: «أكثر من شعر رأسي الذين يبغضونني بلا سبب» (مزمور ٦٩: ٤). فإن كانت هناك بغضة بلا سبب، فكم تكون البغضة لو كان هناك سبب! وسواء كانت البغضة بسبب أو بغير سبب فإن الله يعلِّم العاقل أن يحتمي به أكثر، ويلفت نظر الغافل الجاهل أن يطلب الحماية من الملجأ الوحيد، فيقول العاقل والجاهل معاً: «أحبّك يا رب يا قوتي. الرب صخرتي وحصني ومنقذي. إلهي صخرتي به أحتمي. ترسي وقرن خلاصي وملجإي. أدعو الرب الحميد فأتخلّص من أعدائي» (مزمور ١٨: ١-٣).

٣ - امتحان غامض:

«هبَّت الرياح» وهي ترمز إلى الغامض المجهول الذي لا نعرف مصدره، ولا نتوقّعه كالكوارث الطبيعية من فيضانات وزلازل وبراكين، فإن «الريح تهبُّ حيث تشاء، وتسمع صوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا أين تذهب» (يوحنا ٣: ٨). وقال الشاعر العربي «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن».

تدهمنا المصاعب كما دهمت أيوب، ولم يكن يعرف لها سبباً، لكنها برهنت أنه كان حكيماً بنى بيت إيمانه على صخر. ويتساءل المؤمن مع داود: «إلى متى تنساني يا رب كل النسيان؟ إلى متى تحجب

وجهك عني؟ إلى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم؟ إلى متى يرتفع عدوّي عليّ؟» (مزمور ١٣: ١، ٢). وتزيد المصاعب الغامضة المؤمن تمسُّكا بالرب، وفي الوقت نفسه تهدم بيت الجاهل على رأسه.

ثالثاً - نتيجتان

ارتفع بناءان، أحدهما بسرعة دون مراعاة لمواصفات البناء الهندسية، ودون اعتبار لقوة تحمُّل الأساس. وبُني الثاني بتأنٍ. وراقب الناس البيتين يرتفعان. وربما صفَّقوا للبنّاء الذي ارتفع بناؤه بسرعة مع أنه بنى على الرمل فوق سطح الأرض، وربما انتقدوا الذي بنى ببطء، مع أنه حفر وعمَّق حتى وصل إلى الصخر. ولكن عندما جاءت ساعة الامتحان على البيتين ظهر الاختلاف في مصيرهما! «فنزل المطر، وجاءت الأنهار، وهبَّت الرياح» ووقعت على البيتين، فثبت الأول لأنه كان مؤسساً على الصخر. أما الثاني فسقط وكان سقوطه عظيماً.

كم هو مؤلم أن يبني الإنسان ثم ينهدم بيته. لكننا نشكر الله المحب الذي لا يُسرُّ بموت الشرير، بل بأن يرجع عن طريقه ويحيا (حزقيال ٣٣: ١١)، فهو «يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يُقبِلون» (١تيموثاوس ٢: ٤). إنه في محبته يقرع على باب الجاهل الذي بنى على الرمل منبِّهاً ومنذراً ليعطيه فرصة ثانية ليبني من جديد بطريقة حكيمة. ولعله يتعلم من الحكيم الذي بنى على الصخر.

فإن كنت إلى الآن تبني على الرمل، وتكتفي بمدح الناس، ولا تفكر في يوم الحساب، ندعوك للتوبة، ونذكِّرك بوعد المسيح: «من يُقبِل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يوحنا ٦: ٣٧). إنه يدعو أصحاب البيوت التي سقطت يوم الامتحان قائلاً:«إلى متى أيها الجهّال تحبّون الجهل؟.. ارجعوا عند توبيخي. هئنذا أُفيض عليكم روحي. أُعلِّمكم كلماتي» (أمثال ١: ٢٢، ٢٣). ثم يمنح صاحب البيت المنهدم فرصة إعادة البناء.

ولكي تكون نتيجة بنائنا مشرِّفة لننتبه للنقاط التالية:

١ - اهتم بالأساس:

أساس بنائك هو علاقتك الشخصية بالمسيح، والتي فيها تقول عنه «الذي أحبَّني وأسلم نفسه لأجلي» (غلاطية ٢: ٢٠). وعلى هذا الأساس تثق أن المسيح غفر خطاياك وستر عيوبك، لأن «دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (١يوحنا ١: ٧).

وكل من يقبل دعوة المسيح الشخصية «هلمَّ ورائي» ويتجاوب معها يبني حياته على أساس سليم، كما فعل زكا العشار الذي كان قد بنى بيتاً أرضياً، وكان يمتلك ثروة كبيرة، ولكنه كان يعاني من فراغ روحي عظيم. ولما سمع أن المسيح آتٍ إلى بلده تسلَّق شجرة جميز ليراه، فقد كان قصير القامة. ورآه المسيح فدعا نفسه إلى بيت زكا. وعندما أعلن زكا توبته قال المسيح عنه: «اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضاً ابن إبراهيم، لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلِّص ما قد هلك» (لوقا ١٩: ١-١٠).

٢ - تأكد من سلامة البناء:

كُن متيقِّظاً وأنت تبني وتعلو، فإن إبليس سـيحاول جاهداً أن يحوّل اهتمامك إلى مشغوليات جانبية، تصرف نظرك عن أولويـة بناء حياتك.. سـيجرِّبك أن تتحارب مع جيرانك الذين يبنون على الصخر وعلى الرمل، وفي انشغالك بالاختلافات تتعوَّج حوائط مبناك. فلتكن صلاتك: «اختبرني يا الله واعرف قلـبي. امتحنّي واعرف أفكاري، وانظر إن كان فيَّ طريـق باطل، واهدني طريـقاً أبديـاً» (مزمور ١٣٩: ٢٣، ٢٤). اطلب من الله أن يعدّل أي انحراف أو عوج أو انحناء في حياتك.

٣ - أعطِ كل المجد للرب:

أعط الفضل لله صاحب الفضل، فكلما ارتفع بناؤك على أسـاس سليم اعترف أن فضل القوة هو لله لا منك، فإنه «إن لم يـبنِ الرب البيت فباطلاً يتعب البنّاؤون. إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسـهر الـحارس» (مزمور ١٢٧: ١). «هكذا قال الرب: لا يـفتخرنَّ الحكيـم بحكمته، ولا يـفتخر الجبار بجبروته، ولا يـفتخر الغني بغناه. بل بهذا ليـفتخر المفتخر: بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب الصانع رحمةً وقضاءً وعدلاً في الأرض، لأني بهذا أُسرُّ، يقول الرب» (إرميا ٩: ٢٣، ٢٤).

سؤالان

١ - ما هو الامتحان الثلاثي الذي تجوزه بيوتنا الروحية؟

٢ - ماذا كان يـكون تعليقك وأنت تشاهد البيتين يعلوان بسـرعتين مختلفتين؟ وما هو تعليقك بعد دراسة هذا المثل؟

٥ - امتياز الثمر

مثل شجرة التين

وَقَالَ هَذَا الْمَثَلَ: كَانَتْ لِوَاحِدٍ شَجَرَةُ تِينٍ مَغْرُوسَةٌ فِي كَرْمِهِ، فَأَتَى يَطْلُبُ فِيهَا ثَمَراً وَلَمْ يَجِدْ. فَقَالَ لِلْكَرَّامِ: هُوَذَا ثَلاثُ سِنِينَ آتِي أَطْلُبُ ثَمَراً فِي هَذِهِ التِّينَةِ وَلَمْ أَجِدْ. اِقْطَعْهَا! لِمَاذَا تُبَطِّلُ الأَرْضَ أَيْضاً؟ فَأَجَابَ: يَا سَيِّدُ، اتْرُكْهَا هَذِهِ السَّنَةَ أَيْضاً حَتَّى أَنْقُبَ حَوْلَهَا وَأَضَعَ زِبْلاً. فَإِنْ صَنَعَتْ ثَمَراً، وَإِلا فَفِيمَا بَعْدُ تَقْطَعُهَا (لوقا ١٣: ٦-٩).

مناسبة رواية المثل:

كان المسيح يلقي إحدى مواعظه عندما أخبره سامعوه أن بيلاطس الوالي قتل بعض أهل الجليل وخلط دماءهم بدماء ذبائحهم. ولعله فعل ذلك لأنهم ثاروا ضده، أو لعلهم رفضوا أن يدفعوا الجزية بحُجَّة أن الحاكم أجنبيّ عنهم في الجنسيَّة والدّين، فلا يحقُّ له أن يحكمهم ولا أن يتقاضى منهم جزية، وبحُجَّة أنهم لا يعترفون بملكٍ عليهم إلا الله. وفي ثورتهم احتموا داخل الهيكل، وأخذوا يقدّمون ذبائحهم لله، وهم يعتقدون أن بيلاطس سيتردَّد في قتلهم لأنه سيراعي حُرمة الهيكل وقداسته. ولكن بيلاطس لم يحترم شعباً ولا هيكلاً، وأمر بقتلهم حيث هم داخل الهيكل، فسالت دماؤهم مختلطة بدماء ذبائحهم. وكان أهل الجليل مشهورين بأنهم أقل أهل فلسطين تحضُّراً، كما كانوا كثيري الثورات على الحكام وأقل خضوعاً لهم.

لم يبرِّر المسيح الجليليين الذين قُتلوا، ولا برَّر بيلاطس، لكنه أجاب إجابةً حكيمة وعميقة أوضحت أن آلام البشر لا تعني دائماً أنهم أشرار، كما أوضحت أن الله يطيل أناته على بعض الأشرار فلا يعاقبهم فوراً، ليعطيهم فرصة للتوبة. بل إن بعض الأشرار قد يحقِّقون نجاحاً علمياً وعملياً بينما يفشل بعض المؤمنين، كما اشتكى المرنم وقال: «غِرتُ من المتكبِّرين إذ رأيتُ سلامة الأشرار» (مزمور ٧٣: ٣).. وقال المسيح إن الله لم يسمح بقتل هؤلاء الجليليين لأنهم أكثر أهل الجليل شراً، ولكن لنتعلَّم من موتهم ضرورة التوبة، لأن الذين لا يتوبون لا بدَّ يهلكون. ثم إن طريقة موت الإنسان لا تحدِّد مصيره الأبدي، بل تحدده الطريقة التي يعيش بها.

ثم ذكر المسيح لسامعيه نموذجاً آخر من المصائب التي تحل بالبشر، ولكنها لا تعني أن الذين نزلت بهم أردأ حالاً من غيرهم، فذكر سقوط برجٍ في سلوام، خارج أسوار أورشليم على ثمانية عشر شخصاً فقتلهم. وقال إن هذا لا يعني أن هؤلاء القتلى كانوا أكثر من غيرهم شراً. ثم كرر نداءه بضرورة التوبة، وضرب مثَل التينة التي أعطاها صاحبها كل فرصة للإثمار، ثم طلب منها الثمر ولم يجده.. وهي مثَلٌ للبشر الذين يُنعم الله عليهم بكل ما يمكِّنهم من العمل الصالح، ولكنهم لا يفعلون إلا الخطايا.

لماذا اشتكوا للمسيح؟

ولـعل سامعي المسيح رفعوا شكواهم له من بيلاطس وأخبروه بقتل الجليليين، لأنهم انتظروا منه أن يكون المخلِّص السياسي الآتي لينقذهم من نير الرومان. ولكنه دعاهم للتوبة لأن مملكته ليست من هذا العالم، بل هي روحية تسعى لتغيير حياة الناس.

أو لعلهم قدَّموا شكواهم له ليشرح لهم سرَّ ألم المؤمنين مع أنهم يقدِّمون ذبائحهم لله، وليوضِّح لهم لماذا نجح بيلاطس الشرير في قتل العابدين. ومشكلة الألم مشكلة كبيرة غامضة.

وربما أرادوا أن يناقشوا قضية فكرية تُبعِد عنهم نظرة المسيح الفاحصة. وعادةً عندما يخطئ الإنسان ويعذبه ضميره يهرب من الحديث المباشر عن صلته بالرب إلى حديثٍ فقهي عقائدي يبتعد به عن مواجهة نفسه الأمّارة بالسوء، كما فعلت المرأة السامرية عندما واجهها المسيح بأنها تعيش مع رجل ليس هو زوجها، فقالت له: «يا سيد، أرى أنك نبي. آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجَد فيه» (يوحنا ٤: ٢٠) فأجابها إن المطلوب ليس مكان العبادة بل روح العابد، الذي يجب أن يعبد الرب بالروح والحق. وبهذا حوَّل انتباهها إلى علاقتها الشخصية بالله.

أولاً - مع كل امتياز مسؤولية

كان لواحد شجرة تين مغروسة في كرمه، وكانوا يزرعون أشجار العنب عادةً على المنحدرات لتحصل على أكبر نسبة من التهوية والتعرُّض لأشعة الشمس. وقد وجدت شجرة التين (التي تحدَّث عنها المسيح في المثَل) كل ما تحتاجه من شمس ومن أكسجين، فتمتَّعت بكل امتياز طبيعي، وبكل عناية من الزارع وسط أشجار كرمه. ومع أن شجرة التين العادية تثمر بعد سنتين، إلا أن صاحب الكرم منح هذه الشجرة ثلاث سنوات قبل أن يطلب منها ثمراً، مما يعني أنه وفَّر لها كل ما يؤهِّلها للغرض من زرعها، وهو الإثمار.

ثم جاء صاحب الكرم وقال للكرام: «هوذا ثلاث سنين آتي أطلب ثمراً في هذه التينة ولم أجد، اقطعها. لماذا تبطِّل الأرض أيضاً؟». لقد أخذت هذه الشجرة وقتاً كافياً، وظروفاً مناسبة، وعناية كبيرة، ولكنها لم تثمر. أخذت ولم تعطِ، وخُدِمت ولم تخدم، فعطَّلت الأرض وعطَّلت غيرها. والحُكم العادل عليها هو أن تُقطع، لأن مع كل امتياز مسؤولية، وكل من يأخذ ولا يعطي لا بد أن يموت، كالبحر «الميت». ولصاحب الكرم كل الحق أن يقطع ما لا يثمر، كما قال المسيح: «كل غصنٍ فيَّ لا يأتي بثمر ينزعه، وكل ما يأتي بثمر ينقّيه ليأتي بثمر أكثر» (يوحنا ١٥: ٢).

تحدَّث الله على فم النبي إشعياء أنه زرع كرماً من أفضل الأنواع على أكمة خصبة، ونزع الأشواك من حوله، وانتظر منه ثمراً، فنقر معصرة ليعصر فيها العنب الذي سينتجه. ولكن الكرم صنع عنباً

رديئاً.. وتساءل الله: «ماذا يُصنع لكرمي وأنا لم أصنعه له؟.. فالآن أعرّفكم ماذا أصنع بكرمي.. أجعله خراباً.. وأوصي الغيم أن لا يمطر عليه» (إشعياء ٥: ١-٦).

ولا بد أن نســـأل كل زوج وأب، وكل زوجة وأم، وكل ابن وابنة: لقد منحكم الله امتياز الوجود في عـــائلة، فهل أنتم مثمرون؟ هل يحب أفراد العائلة بعضهم بعضاً؟ هل يقدمون خدمة لمجتمعهم؟.. إن الله يـــفتِّش في حياتكم وعلاقاتكم: هل هي مثمرة؟ لا تنســوا أن الإنســـان الســعيد هو الذي يبدأ بالعطاء «متذكرين كلمات الرب يســـوع أنه قال: مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أعمال ٢٠: ٣٥) وهو ما تحقَّقه القديس فرنسيس الأسيسي، فقال: «إننا في العطاء نأخذ».

ثانياً - يمنحنا الله فرصة ثانية

منح الله شجرة التين ثلاث سنوات لتثمر. وقال بعض المفسرين إن هذه السنوات الثلاث ترمز لثلاث مراحل من حياة الإنســـان: مرحلة طفولته، وشبابه، وشيخوخته.. وقال القديس أغســطينوس إنها ترمز لثلاث مراحل من عمر البشرية: مرحلة الشريعة غير المكتوبة من آدم إلى موســـــى، ومرحلة الشريعة المكتوبة من موسى إلى المسيح، ومرحلة النعمة من عصر المسيح إلى نهاية الدهر.

عطّلت التينة غير المثمرة الأرض، فقال العدل إنها يجب أن تُقطع، ولكن الرحمة قالت: «يا ســـيد، اتركها هذه الســـنة أيضاً حتى أنقب حولها وأضع زبلاً. فإن صنعت ثمراً (فهذا هو المرجو). وإلا ففيما بعد تقطعها».. وواضحٌ أن الشفيع هو المســـيح الذي يشفع في البشر، والذي قال: «لم يرســـل الله ابنه ليدين العالم، بل ليخلُص به العالم» (يوحنا ٣: ١٧).

وقد قبل الله توســـلات خليله إبراهيم، عندما مثل أمام المولى يسأله العفو عن سدوم وعمورة، فوجد أن الله مـــستعد أن ينقذ المدينتين لو كان بهما عشرة أبرار (تكوين ١٨: ٢٢-٣٣). وقد أُبيدت المدينتان، لا لأن الله رفض توسُّلات خليله، ولكن لأن المدينتين كانتا خاليتين من عشرة أشخاص صالحين.

وقـبل الله توسلات كليمه موسى وهو يطلب نجاة بني إسرائيل من الهلاك الشامل الذي كان الله سيوقعه بـــهم لأنهم عبدوا العجل، فصلى موسى: «قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة.. والآن إن غفرت خطيتهم.. وإلا فامحُني من كتابك الذي كتبت» (خروج ٣٢: ٣٠-٣٣). وقبل الله توسُّلات موسى، وغفر لشعبه.

فـــما أعظم رحمة الله التي تمنع عنّا ما نستحقه من عقاب، وما أمجد نعمته التي تمنحنا ما لا نستحقه من بركة. وفي كلمات الكرّام نســمع صوت الرحمة تمنع عن التيـــنة غيـــر المثمرة عقاباً بالقطع هي تســـتحقه، وتمنحها فرصة ثانية عامرة بالعطاء والبركات، هي في الحقيقة لا تستحقها في نفسها، ولكن لأجل تعب الكرام وجهده ومحبته لعمل يـــديه، وانتظاره لثمر يفرح قلبه. وهذا ما يفعله الله معنا «وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء في ما بعد لا لأنفســـهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كورنثوس ٥: ١٤، ١٥).. فلنسكن في دائرة محبة المسيح، ولنشبع به فنثمر.

بـطَّلت التينة الأرض عندما امتصَّت العصارة ولم تثمر. ولكن الكرام رأى أن يمنحها فرصة ثانية، هي سنة كاملة، ثم أنعم عليها بنعمة التنقية في أن ينقب حولها ليرفع الأحجار التي تعطل امتداد الجذور، ولينزع الأشواك الضارة والحشائش التي تمتص غذاء التينة. ثم أنعم عليها بالمعونة الفائقة في أن يضع حولها زبلاً (وهـو السماد الطبيعي القوي). فإن صنعت ثمراً كان هذا خيراً لها ولصاحب الكرم. وهو ثمرٌ لا فضل لها فيه، لأنها تكون قد عملت المطلوب. وإن لم تثمر يُنفَّذ فيها حكم القطع الذي تستحقه.

يـعطيك الرب دوماً فُرصاً للإثمار، ويهيئ لك جوّ العمل الصالح، فهو شمس البر الذي يشرق عليك بنوره ودفئه، وهو ماء الحيـــاة الذي يروي عطشك في برية الحياة، وهو المن الذي يشبع جوعك فتثمر «لأن ثمر الروح هو في كل صلاح وبرٍّ وحق. مختبريـــن ما هو مرضيٌّ عند الرب» (أفســس ٥: ٩، ١٠). فإذا ضيـّعت الفرصة الأولى لا تنزعج، لأن الرب يريد أن يعطيك فرصة ثانية، ويتيح لك أيضاً معونته العظيـــمة لتثمر. «يعود يرحمنا. يدوس آثامنا. وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (ميخا ٧: ١٩).

١ - لا بد أن ينقب الله حولك:

وهذا يـنقي حيـــاتك من معطلات النمو الروحي التي تمنع إتيانك بالثمر. وقد تزعزع عملية التنقية استقرارك، فهناك استقرار في ما تعوَّدنا أن نفعله، حتى إن كان خاطئاً ويقود إلى الهلاك. فقد تستقر بك الأحوال الاجتماعيـــة، أو المالية، أو الصحية فتطمئن. وفي دفء هذا الاطمئنان تكتفي بالتمتع بالعطايا الـــموهوبة لك وتنســى الوهاب، وتظن أنك حصلت عليـها باجتهادك، لكن «لا بالقدرة ولا بالقوة، بل بروحي، قال رب الجنود» (زكريا ٤: ٦).. ينقب الرب حولك ليوقظك فتدرك أن الاستقرار الحقيقي هو عنده وحده. «كما يحرِّك النسر عشّه وعلى فراخه يرفّ، ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه، هكذا الرب» (تثنية ٣٢: ١١) وما أكثر المؤمنين الذين يتكلون على أنفســهم ويكتفون بحالهم ويرضون بما هم عليه، فيشبهون شعب موآب «مستريحٌ موآب منذ صباه، وهو مستقرٌّ على دُرديّه (ما ترسَّب منه أو عكَره)، ولم يُفرغ من إناء إلى إناء، ولم يذهب إلى الســبي. لذلك بقي طعمه فيه، ورائحته لم تتغيَّر (إلى ما هو أفضل)» (إرميا ٤٨: ١١).

ولا شك أن شجرة التيـــن لم تكن مســتريحة للنَّقب حولها، كما أن تأديب الأب لابنه لا يُفرح قلب الابن، و«كل تأديب في الحاضر لا يُرى أنه للفرح بل للحزن. وأما أخيراً فيعطي الذين يتدربون به ثمر بر للسلام» (عبرانيين ١٢: ١١).

٢ - يمدُّك الله بالمساندة:

قال: «أضع زبلاً» ســماداً يقوّي الشجرة غير المثمرة فتثمر. ويمدُّك الله بالنعمة التي تغذي وتقوي،

وواضح أن الله يعطي المؤمن ما يعاونه في حياته الروحية، فإنه «لم يتجنّد أحدٌ قط بنفقة نفسه» (١كورنثوس ٩: ٧). وحين تتقوى حياة المؤمن الروحية تنعكس على تصرفاته، فلا يحب العالم، لأن «العالم يمضي وشهوته، وأما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» (١يوحنا ٢: ١٧). ويساند الله المؤمن بصُحبته الكريمة، تحقيقاً لوعد المسيح: «أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (متى ٢٨: ٢٠).

إن كانت قد ضاعت منك الفرصة الأولى، اغتنم الفرصة الثانية التي تقدّمها لك نعمة الله.. ولا تنسَ أن الفرصة الثانية لن تدوم إلى الأبد، فقد قال الله للخطّائين قبل الطوفان: «روحي لا يدين في الإنسان إلى الأبد» (تكوين ٦: ٣). «بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون» (لوقا ١٣: ٣، ٥).

سؤالان

١ - اشرح هذه العبارة: «طريقة موت الإنسان لا تحدّد مصيره الأبدي، بل تحدده الطريقة التي يعيش بها».

٢ - علّق على العبارة التالية: «الرحمة تمنع عنا ما نستحقه، والنعمة تمنحنا ما لا نستحقه».

٦ – امتياز الصلاة

مثلا صديق نصف الليل، والأرملة المُلحّة

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: مَنْ مِنْكُمْ يَكُونُ لَهُ صَدِيقٌ وَيَمْضِي إِلَيْهِ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُولُ لَهُ: يَا صَدِيقُ، أَقْرِضْنِي ثَلاثَةَ أَرْغِفَةٍ، لأَنَّ صَدِيقاً لِي جَاءَنِي مِنْ سَفَرٍ وَلَيْسَ لِي مَا أُقَدِّمُ لَهُ. فَيُجِيبَ ذَلِكَ مِنْ دَاخِلٍ وَيَقُولَ: لا تُزْعِجْنِي! اَلْبَابُ مُغْلَقٌ الآنَ وَأَوْلادِي مَعِي فِي الْفِرَاشِ. لا أَقْدِرُ أَنْ أَقُومَ وَأُعْطِيَكَ. أَقُولُ لَكُمْ: وَإِنْ كَانَ لا يَقُومُ وَيُعْطِيهِ لِكَوْنِهِ صَدِيقَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ لَجَاجَتِهِ يَقُومُ وَيُعْطِيهِ قَدْرَ مَا يَحْتَاجُ. وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ: اسْأَلُوا تُعْطَوْا. اطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَقْرَعُ يُفْتَحُ لَهُ. فَمَنْ مِنْكُمْ وَهُوَ أَبٌ يَسْأَلُهُ ابْنُهُ خُبْزاً أَفَيُعْطِيهِ حَجَراً؟ أَوْ سَمَكَةً أَفَيُعْطِيهِ حَيَّةً بَدَلَ السَّمَكَةِ؟ أَوْ إِذَا سَأَلَهُ بَيْضَةً أَفَيُعْطِيهِ عَقْرَباً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلادَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الآبُ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ، يُعْطِي الرُّوحَ الْقُدُسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ (لوقا ١١: ٥–١٣).

وَقَالَ لَهُمْ أَيْضاً مَثَلاً فِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلا يُمَلَّ: كَانَ فِي مَدِينَةٍ قَاضٍ لا يَخَافُ اللَّهَ وَلا يَهَابُ إِنْسَاناً. وَكَانَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَرْمَلَةٌ. وَكَانَتْ تَأْتِي إِلَيْهِ قَائِلَةً: أَنْصِفْنِي مِنْ خَصْمِي. وَكَانَ لا يَشَاءُ إِلَى زَمَانٍ. وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ: وَإِنْ كُنْتُ لا أَخَافُ اللَّهَ وَلا أَهَابُ إِنْسَاناً، فَإِنِّي لأَجْلِ أَنَّ هَذِهِ الأَرْمَلَةَ تُزْعِجُنِي أُنْصِفُهَا لِئَلا تَأْتِيَ دَائِماً فَتَقْمَعَنِي. وَقَالَ الرَّبُّ: اسْمَعُوا مَا يَقُولُ قَاضِي الظُّلْمِ. أَفَلا يُنْصِفُ اللَّهُ مُخْتَارِيهِ الصَّارِخِينَ إِلَيْهِ نَهَاراً وَلَيْلاً، وَهُوَ مُتَمَهِّلٌ عَلَيْهِمْ؟ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعاً! وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ، أَلَعَلَّهُ يَجِدُ الإِيمَانَ عَلَى الأَرْضِ؟ (لوقا ١٨: ١–٨).

هذان مثلان من واقع الحياة، يعلّماننا ضرورة الصلاة، وامتياز الالتجاء إلى الله وقت الضيق «لنتقدّم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة، ونجد نعمةً عوناً في حينه» (عبرانيين ٤: ١٦). والمثلان متشابهان في المعنى، ويصفان الاحتياج الذي يُلجئ صاحبه إلى اللجاجة والإلحاح في الطلب بدون خجل بالرغم من الرفض، الأمر الذي قد يضايق المطلوب منه، ولكن الطالب ينال مراده.. في كل مثل منهما نجد ثلاث شخصيات، اثنتان ظاهرتان على مسرح الأحداث، والثالثة كامنة في خلفية المثل.

في المثل الأول (مثل صديق نصف الليل) نجد ثلاثة أصدقاء: الزائر والمضيف والجار. الصديق الذي جاء، والصديق الذي احتاج، والصديق الذي أعطى. وهذه صورة مبهجة للضيافة الكريمة التي لا تجد ما تقدمه للضيف، فتلحّ على صديق أن يعطي ما تكرم به الضيف، وتصف روعة الصداقة وأهميتها. ولذلك أوصانا الحكيم: «لا تترك صديقك وصديق أبيك.. الجار القريب خير من الأخ البعيد» (أمثال ٢٧: ١٠).

ويقدّم المثل الثاني (الأرملة المُلحّة) ثلاث شخصيات: ظالماً لا نراه، وأرملة مظلومة وقاضياً ظالماً تطالبه بإنصافها، وتلحّ عليه حتى ينصفها. وهذه صورة مؤلمة للظلم الإنساني.

يقول المثل الأول إن شخصاً وصل في نصف الليل إلى بيت صديقه طالباً الضيافة. وكان المسافرون يبدأون السفر عند انكسار حدّة الحر، فيبلغون وُجهتهم في وقت متأخر. لهذا وصل الصديق إلى بيت صديقه في منتصف الليل، ففتح له ليستضيفه. ولكن صاحب البيت خجل لأنه لا يملك خبزاً يقدّمه لضيفه، فقد كانت العادة أن يخبز أهل البيت كل صباح، خبز كل يوم بيومه. ولضرورة القيام بواجب الضيافة قصد المضيف بيت جارٍ له وطلب ثلاثة أرغفة: رغيفاً لإطعام الضيف، وآخر للمضيف ليؤاكله ويؤنسه من باب كرم الضيافة، وثالثاً لملاك المائدة (حسب تعليم التلمود).. وكان سبب إلحاح المضيف في طلب ثلاثة أرغفة من جاره: أنه يطلب من صديق، وأنه لا يطلب لنفسه بل لصديق ثالث، ثم أنه يطلب الحدّ الأدنى.

وكان أهل القرى يتركون أبواب بيوتهم مفتوحةً طول النهار، ولا يغلقونها إلا ليلاً، فلا يطرق الباب أحدٌ إلا للضرورة القصوى. وكان البيت العادي يتكوَّن من غرفة واحدة، لها باب واحد وكُوَّة واحدة. وكانوا يخصِّصون ثلث مساحة الغرفة للنوم والثلثين الآخَرين للدواجن والحيوانات. وكان أهل البيت ينامون متجاورينَّ تحت غطاء واحد، فإذا استيقظ أحدٌ فإنه يُقلق كل أهل البيت ودواجنهم وحيواناتهم!.. ولهذا حاول الجار أن يعتذر عن فتح الباب لصديقه الذي يطلب الأرغفة. ولكن إلحاح جاره اضطرَّه أن يقوم ويفتح ويعطيه طلبه ليُكرم ضيفه قبل أن يصحو كل الجيران! ولا بد أن زوجته وأولاده استيقظوا على كل حال!

ويقدِّم المثل الثاني (مثل الأرملة الملحَّة) أرملة مظلومة اضطرَّها الظلم للإلحاح في طلب الإنصاف. فقد اعتدى ظالمٌ عليها وليس لها من يدافع عنها. وعندما لجأت إلى القاضي اكتشفت أنه لا يحترم القوانين الأخلاقية، ولا يهتم بالرأي العام، بل إنه يعلن أنه لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً. ولم يكن عندها ما ترشوه به، فلم يكن أمامها إلا أن تلحّ في الطلب، فظلت تلح على خلاف الرجاء، حتى تضايق وأنصفها ليتخلَّص من إلحاحها.

ربما يُضحكنا مثل «صديق نصف الليل» بمفاجآته، ولكن مثل «القاضي الظالم» يحزننا بشخصياته الظالمة والمظلومة.. ولكن المثلين يعلِّماننا أهمية الصلاة في كل حين بدون ملل.

مناسبة رواية المثَل:

روى المسيح مثل صديق نصف الليل لما طلب منه تلاميذه أن يعلِّمهم الصلاة، كما علَّم المعمدان تلاميذه. وخير تعليم هو تعليم المعلّم الذي يمارس ما يعلّمه. وكان التلاميذ قد رأوا المسيح يصلي بطريقة تختلف عن طريقة معلِّمي اليهود، الذين كانوا يصلّون ثلاث مرات يومياً، طاعة لوصية التلمود: «محظورٌ على الإنسان أن يصلي أكثر من ثلاث مرات في النهار، لأن الله يملُّ من الصلاة كل ساعة». وكان المعلمون اليهود يصلّون صلوات محفوظة، يؤدّونها في الشوارع ليراهم الناس. وكان اليهودي العادي متحفِّظاً في الحديث مع الله لخوفه من قداسته وعظمته.

أما المسيح فكان يصلي في أُنس كامل بالله، ولأوقات طويلة، وباستمرار. صلى وقت معموديته فانفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة (لوقا ٣: ٢١)، وقيل عنه: «وفي الصبح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء، وكان يصلي هناك» (مرقس ١: ٣٥)، وكان يعتزل في البراري ويصلي (لوقا ٥: ١٦)، وقضى الليل كله في الصلاة قبل أن يختار الاثني عشر تلميذاً (لوقا ٦: ١٢)، وكان يصلي على انفراد (لوقا ٩: ١٨)، وصلى على جبل التجلي (لوقا ٩: ٢٨، ٢٩).

وإجابةً لطلب التلاميذ علَّمهم الصلاة الربانية (لوقا ١١: ١-٤)، ثم روى لهم مثل صديق نصف الليل (آيات ٥-٨)، ثم أكَّد لهم استجابة الصلاة (آيتا ٩، ١٠)، وأن الله أبٌ محب (آيات ١١-١٣).. وبعد ذلك بوقت قصير ضرب لهم مثل القاضي الظالم ليشجعهم على الاستمرار في الصلاة.

والمعنى المقصود من المثلين أنه إن كانت اللجاجة جعلت النائم يصحو ويعطي، وجعلت الظالم يُنصف، فكم بالحري الله! إنه ينصف مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً. ويصوِّر المثلان المفارقة بين الصديق والقاضي الظالم من جهة، والله من جهة أخرى. فإن الله محسنٌ كريم، وهو ليس كالصديق الذي قال لصديقه إنه يزعجه، وليس كالقاضي الظالم الذي لم يتحرَّك إلا باللجاجة.

في هذين المثلين نجد المحتاج، ونسمع صلاته، ونرى استجابة الله له.

أولاً - احتياج شديد

في كل وقت يواجه كل البشر احتياجات، مثل المسافر المحتاج إلى مكان للمبيت وإلى طعام، ومثل صاحب البيت المحتاج للقيام بواجبات الضيافة من نحو ضيفه، ومثل الأرملة المظلومة التي تحتاج إلى العدالة. ويقول الله: «ادعُني في يوم الضيق أنقذك فتمجدني» (مزمور ٥٠: ١٥)، ويقول: «يدعوني فأستجيب له. معه أنا في الضيق، أنقذه وأمجده. من طول الأيام أُشبعه وأُريه خلاصي» (مزمور ٩١: ١٥، ١٦)، ويقول: «ويكون أني قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع» (إشعياء ٦٥: ٢٤).

وقد علَّمنا المسيح أن نصلي الصلاة الربانية في قوله عنها: «متى صلَّيتم فقولوا» (لوقا ١١: ٢) كما علَّمنا أن تكون نموذجاً لصلواتنا في قوله: «فصلّوا أنتم هكذا» (متى ٦: ٩). وتعلِّمنا الصلاة الربانية أن الله أبونا، وأننا أولاده، وفي شدة احتياجنا نتوجَّه إليه، فنرفع ثلاث طلبات خشوعية نبدأها بطلب تقديس اسمه بين البشر الذين يجب أن يهتفوا «قدوس قدوس قدوس رب الجنود. مجده ملء كل الأرض» (إشعياء ٦: ٣)، ثم نطلب إتيان ملكوته بأن يملك على قلوبنا وقلوب كل البشر، ثم نطلب أن تنفذ مشيئته الصالحة على الأرض كما ينفذها الملائكة السمائيون. ونطلب منه طعام يومنا، وغفران خطايانا، ونصرتنا على التجارب.. ثم نختم صلاتنا بأن له المُلك، إذ يتقدَّس اسمه في أفكارنا وكلامنا وأفعالنا، ونعلن أن له القوة عندما يأتي ملكوته في قلوبنا وعلى عالمنا، ونعترف بأن له المجد عندما تتحقق مشيئته في الأرض كما هي محققة في السماء.

وبسبب احتياج المؤمنين الدائم يجب أن يصلّوا بعضهم من أجل بعض، طاعةً للأمر الرسولي: «صلّوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا» (يعقوب ٥: ١٦).. ويحتاج القادة والقسوس وخدام الله أكثر من غيرهم إلى العون الإلهي بسبب عملهم ومسؤولياتهم. فيجب أن يواظب الشعب على الصلاة من أجلهم، كما طالب الرسول بولس المؤمنين: «واظبوا على الصلاة ساهرين فيها بالشكر، مصلّين في ذلك لأجلنا نحن أيضاً، ليفتح الرب لنا باباً للكلام، لنتكلم بسرّ المسيح» (كولوسي ٤: ٢-٤).

ويعلّمنا المثلان أنه ينبغي أن نكون دوماً في روح الصلاة، على صلة مستمرة بالرب، وفي حالة تعبُّد دائم كما قال داود: «أما أنا فصلاة» (مزمور ١٠٩: ٤)، وأن نتحدث إلى الله بانتظام، فقد قال المسيح: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُملّ» (لوقا ١٨: ١) وقال الرسول بولس: «صلّوا بلا انقطاع» (١تسالونيكي ٥: ١٧).

ويعلمنا المثلان أن نصلي بلجاجة، فنطلب بدون خجل رغم ما يبدو أحياناً أن استجابة صلاتنا مرفوضة.. لقد كانت لجاجة طالب الأرغفة أقوى تأثيراً من الصداقة، لأنها نجحت في ما لم تنفع فيه الصداقة، وكانت أقوى من كسل الجار الذي لم يكن يريد أن يستيقظ لئلا يوقظ أولاده النائمين، وكانت أقوى من ظلم القاضي.

ثانياً - طلب بلجاجة

كان الصديق يعلم أن لجاجته في الطلب ستوقظ جاره ليسعفه بالأرغفة المطلوبة، فألحّ على جاره بسبب حرَج موقفه أمام زائر نصف الليل، فنال ما طلب.. ولم يكن عند الأرملة وسيلة تحصل بها على الإنصاف عند القاضي الظالم إلا اللجاجة التي لا تقبل التراجع، فأنصفها. ولم ينَل المصليان في المثلين استجابة طلبهما لأن الطلب كان منطقياً، بل لأنهما ألحّا في الطلب، وأن الشخص الذي اتّجها إليه هو الذي يملك حلَّ مشكلتهما.

ويعلم كل مؤمن أن الله صديق وأب، يعرف ما نحتاجه من قبل أن نسأله (متى ٦: ٨). كما يعلم أنه إله عادل ينصف المسكين ويحامي عن اليتيم والأرملة، فيدرك أن الله لا بد يستجيب الصلاة. وتقدم لنا كلمة الله نماذج كثيرة للصلوات بلجاجة.. فقد صارع يعقوب مع الملاك قائلاً: «لا أطلقك إن لم تباركني» (تكوين ٣٢: ٢٦) حتى باركه. وطلب موسى من الله أن يغفر خطايا الشعب الذي عبد العجل الذهبي، فاستجاب له وعفا عنهم (خروج ٣٢: ٣١، ٣٢).

وكل من يتأمل السيدة المؤمنة «حنّة» وهي تصلي في الهيكل قد يظن أنها سكرانة (كما ظنّ عالي الكاهن)، ولكن الله رأى مرارة نفسها وهي تلحّ في الطلب، فاستجاب صلاتها وأعطاها ابناً هو صموئيل، فعادت به إلى كبير الكهنة تقول: «لأجل هذا الصبيّ صليتُ، فأعطاني الرب سُؤلي الذي سألته من لدنه. وأنا أيضاً قد أعرتُه للرب. جميع أيام حياته هو عاريّةٌ (مُعارٌ) للرب». فصار صموئيل رجلاً عظيماً لله (١صموئيل ١: ١٢-٢٨).

ثالثاً - استجابة مفرحة

ونتعلَّم من مثلي صديق نصف الليل والقاضي الظالم ضرورة استجابة الصلاة، فقد قال المسيح تعليقاً على مثل صديق نصف الليل: «اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم، لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يُفتح له». (لوقا ١١: ٩، ١٠). وهذا يعني أن الله يحب العطاء، وهو لا ينزعج من طلباتنا ليلاً ونهاراً لأن الليل عنده مثل النهار، وهو يعطي دوماً بسخاء ولا يعيِّر (يعقوب ١: ٥).. ثم قال المسيح: «فمن منكم وهو أبٌ يسأله ابنه خبزاً أفيعطيه حجراً؟ أو سمكة أفيعطيه حيةً بدل السمكة؟ أو إذا سأله بيضةً أفيعطيه عقرباً؟ فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه!» (لوقا ١١: ١١-١٣).. لا يأس في الصلاة: اسأل. اطلُب. اقرع.

إن «طلبة البار تقتدر كثيراً في فعلها. كان إيليا إنساناً تحت الآلام مثلنا، وصلى صلاةً أن لا تمطر فلم تمطر ثلاث سنين وستة أشهر، ثم صلى أيضاً فأعطت السماء مطراً، وأخرجت الأرض ثمرها» (يعقوب ٥: ١٦-١٨).

فإن كان الصديق يتوقَّع المعروف من صديقه، وإن كانت الأرملة المظلومة تتوقع الإنصاف من القاضي الظالم، ألا يجب على أولاد الله أن يتوقَّعوا أفضل الأشياء من أبيهم السماوي؟ ستنال خبزاً لا حجراً، وسمكة لا حيَّة، وبيضة لا عقرباً.. وفوق هذا كله ستنال ملء الروح القدس «لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم» (متى ٦: ٣٢، ٣٣).

ونتعلم من المثلين أنه إن كان الصديق قد نجح في الحصول على ثلاثة أرغفة من إنسان مثله، فكم يمكننا أن ننجح في الحصول على ما نحتاجه من الله، الذي يحب أن يستجيب، وقد وعدنا بالاستجابة، كما أكد لنا المسيح: «إن ثبتُّم فيَّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم» (يوحنا ١٥: ٧).

وقال المسيح تعليقاً على مثل القاضي الظالم: «أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً، وهو متمهِّلٌ عليهم؟ أقول لكم: إنه ينصفهم سريعاً» (لوقا ١٨: ٧، ٨). فالإنصاف سريع من وِجهة نظر الله، لكنه يبدو أحياناً متأنياً من وُجهة نظر البشر، لأن حركة ساعة الله تختلف عن حركة ساعات البشر! والاستعجال أمر نسبي. وكلما نضج الإنسان صار أكثر قدرةً على الانتظار.. فلنستمر في الصلاة، ولنطرح عنا الشكوك، ولنثق في محبة الله التي تعطي الجميع بسخاء «مُلقين كل همِّكم عليه لأنه هو يعتني بكم» (١بطرس ٥: ٧).

وحين يبدو أن الله متمهِّلٌ في الاستجابة يكون هذا لحكمةٍ عنده، ولخطَّة صالحة لمصلحتنا، لأن إرادته دائماً صالحة وكاملة، وأفكاره أسمى من أفكارنا. لقد تأخَّر المسيح في استجابة طلب الأختين مريم ومرثا، فوصل إلى بيت عنيا بعد موت لعازر بأربعة أيام. وكانت حكمة تأخيره أنه أراد أن يُجري

معجزة إقامة من الموت، ويعلن من خلالها أنه القيامة والحياة، وأن كل من يؤمن به وإن مات فسيحيا (يوحنا ١١: ١١، ٣٥).. وتأخَّر المسيح في استجابة طلبة امرأة فينيقية طلبت منه شفاء ابنتها المريضة، ليس رفضاً منه لطلبها، بل ليُظهر قوة إيمانها. وعندما ألحَّت في الطلب أعطاها سؤلها، وقال لها: «يا امرأة، عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدين». فشُفيت ابنتها من تلك الساعة (متى ١٥: ١٨).

تأخير استجابة الصلاة:

١ - يتأخر الله علينا لنقيِّم احتياجنا:

هل حقاً نحتاج ما نطلبه؟ فما أكثر ما نطلب أشياء لا نحتاجها، لكننا فقط نريدها. وهناك فرقٌ بين ما تحتاج إليه وما ترغب في الحصول عليه، لأن في الاحتياج عوز، لكن الرغبة تحب أن تحصل على المزيد. وما أجمل الحكمة في قول أحد المؤمنين: «السماء تُصرّ أن ترفض إعطاءنا ما لا نُصِرُّ نحن على أخذه». فهل إذا تأخرت الاستجابة سنتوقَّف عن الطلب، أم سنستمر نسهر ونصلي؟ قال المسيح: «هكذا ملكوت الله: كأن إنساناً يلقي البذار على الأرض، وينام ويقوم ليلاً ونهاراً، والبذار يطلع وينمو، وهو لا يعلم كيف» (مرقس ٤: ٢٦، ٢٧).. فهل نقوم ليلاً ونهاراً نصلي، منتظرين طلوع البذار ونموّه وإثماره؟

٢ - تتأخر الاستجابة لنستمر في طلب الرب:

فنقترب منه أكثر، كما أوصانا «يا ذاكري الرب لا تسكتوا، ولا تدعوه يسكت، حتى يثبِّت ويجعل أورشليم تسبيحةً في الأرض» (إشعياء ٦٢: ٦، ٧). لا يريدنا الرب أن نأخذ ونجري، بل يحب أن يرانا ماثلين في حضرته، كما قال المرنم: «انتظاراً انتظرت الرب، فمال إليَّ وسمع صراخي» (مزمور ٤٠: ١).. ولا شك أن تأخير الاستجابة يعلِّمنا طول الأناة وانتظار الرب، فتتقوى حياتنا الروحية، كما قيل: «ولما فَتَح الختمَ الخامس رأيتُ تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله، ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم، وصرخوا بصوت عظيم قائلين: حتى متى أيها السيد القدوس والحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض؟ فأُعطوا كلُّ واحد ثياباً بيضاً، وقيل لهم أن يستريحوا زماناً يسيراً أيضاً حتى يكمل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضاً العتيدون أن يُقتلوا مثلهم» (رؤيا ٦: ٩-١١).

٣ - وتتأخر الاستجابة حتى نفرح بالحصول على ما انتظرنا أن نحصل عليه:

كما قيل: «فتأنَّوا أيها الإخوة إلى مجيء الرب. هوذا الفلاح ينتظر ثمر الأرض الثمين متأنياً عليه حتى ينال المطر المبكر والمتأخر. فتأنَّوا أنتم وثبِّتوا قلوبكم لأن مجيء الرب قد اقترب» (يعقوب ٥: ٧، ٨).

٤ - وتتأخر الاستجابة لأن الرب يريد أن يجيبها بطريقة أفضل مما طلبناها:

حين أُلقي يوسف الصدِّيق في الجب لا بدَّ أنه صلى أن يرقِّق الله قلوب إخوته عليه فيخرجونه من الجب ويعيدونه لأبيه. لكن الله تأنى في استجابة صلاته ليحييه ويحيي عائلته من سني الجوع، فأدرك

أخيراً أن إخوته قصدوا به شراً، أما الرب فقصد بشرّ إخوته خيراً ليحيي شعباً كثيراً (تكوين ٥٠: ٢٠). وقد تكرر الأمر مع الرسول بولس، فقال: «من جهة هذا (المرض) تضرَّعتُ إلى الرب ثلاث مرات أن يفارقني» (٢كورنثوس ١٢: ٨). ولم يفارقه المرض، إلا أن الله استجاب له بطريقة أخرى، إذ منحه نعمةً رفعته، في قوله له: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمل» (٢كورنثوس ١٢: ٩).

فتعالوا نصلي في كل حين ولا نمل، لأن إلهنا يستجيب المصلي الذي يطلب وجهه. وهو ليس كالصّديق المتضايق من الإلحاح، ولا مثل القاضي الظالم، لكنه المحب الألزق من الأخ (أمثال ١٨: ٢٤) والعادل الذي يحب أن يعطي.

سؤالان

١ - اذكر وجه الاختلاف ووجه الشبه بين الله من جانب، والصّديق وقاضي الظلم من الجانب الآخر.

٢ - اذكر نموذجاً من استجابة صلاة حدثت معك.

٧ – امتياز الفرح

مثل العشاء العظيم

إِنْسَانٌ صَنَعَ عَشَاءً عَظِيماً وَدَعَا كَثِيرِينَ، وَأَرْسَلَ عَبْدَهُ فِي سَاعَةِ الْعَشَاءِ لِيَقُولَ لِلْمَدْعُوِّينَ: تَعَالَوْا، لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ. فَابْتَدَأَ الْجَمِيعُ بِرَأْيٍ وَاحِدٍ يَسْتَعْفُونَ. قَالَ لَهُ الأَوَّلُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ حَقْلاً وَأَنَا مُضْطَرٌّ أَنْ أَخْرُجَ وَأَنْظُرَهُ. أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِيَنِي. وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ خَمْسَةَ أَزْوَاجِ بَقَرٍ وَأَنَا مَاضٍ لأَمْتَحِنَهَا. أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِيَنِي. وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ بِامْرَأَةٍ فَلِذَلِكَ لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَجِيءَ.

فَأَتَى ذَلِكَ الْعَبْدُ وَأَخْبَرَ سَيِّدَهُ بِذَلِكَ. حِينَئِذٍ غَضِبَ رَبُّ الْبَيْتِ وَقَالَ لِعَبْدِهِ: اخْرُجْ عَاجِلاً إِلَى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَزِقَّتِهَا وَأَدْخِلْ إِلَى هُنَا الْمَسَاكِينَ وَالْجُدْعَ وَالْعُرْجَ وَالْعُمْيَ. فَقَالَ الْعَبْدُ: يَا سَيِّدُ، قَدْ صَارَ كَمَا أَمَرْتَ، وَيُوجَدُ أَيْضاً مَكَانٌ. فَقَالَ السَّيِّدُ لِلْعَبْدِ: اخْرُجْ إِلَى الطُّرُقِ وَالسِّيَاجَاتِ وَأَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلِئَ بَيْتِي، لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الرِّجَالِ الْمَدْعُوِّينَ يَذُوقُ عَشَائِي (لوقا ١٤: ١٦–٢٤)

(ورد مثل مشابه في متى ٢٢: ١–١٤)

مناسبة رواية المثل:

بلغت علاقة الفريسيين بالمسيح حدّاً بعيداً من الخلاف، بسبب اختلاط المسيح بالخطاة وقبوله لهم، ولأنه علّم تعاليم مفرحة جديدة تخالف تعاليمهم المتزمّتة المتجهّمة، ومنها أنه كان يقوم بأعمال الرحمة في أيام السبوت فاتّهموه بكسر وصية السبت.. ومع ذلك فقد دعا أحد الفريسيين المسيح ليتناول طعاماً في بيته، وقبل المسيح الدعوة لأنه وجدها فرصة مناسبة لتقديم تعليمه إلى من يحتاجونه.

ولعل الفريسي أراد أن يعبّر للمسيح عن مشاعر التوقير والاحترام، وقد يكون أنه أراد أن يرى معجزة تجرى في بيته، وربما أراد أن يستفتيه في قضية عقائدية، أو لعله أراد أن يكرم نفسه في عيني ضيوفه بأن يقدّم لهم الواعظ الناصري ليسمعوه ويسألوه ويحاوروه، ونرجو ألاّ يكون قد دعاه ليوقعه في شَرَك.

ويبدو أن ضيوف الفريسي كانوا يراقبون المسيح ليشتكوا عليه. ووجد المسيح أمامه مريضاً مصاباً بالاستسقاء، ومن أعراض هذا المرض ورم الجسد بسبب احتباس الماء فيه. فسأل المسيح الحاضرين إن كان شفاء المريض حلالاً في يوم السبت، فلم يجاوبوه، فشفى المريض. ثم سألهم: «من منكم يسقط حماره أو ثوره في بئر ولا ينشله حالاً في يوم السبت؟» فلم يقدروا أن يجاوبوا سؤاله.. وهكذا أرسى المسيح قاعدة أن الرحمة تتفوّق على الشريعة، وأن السبت «إنما جُعِل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت. إذاً ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (مرقس ٢: ٢٧، ٢٨).

ولاحظ المسيح أن المدعوّين للطعام في بيت الفريسي يختارون المتكآت الأولى، وهي الأقرب إلى صدر المائدة، وهو مكان رب البيت، وعن يمينه يجلس ضيف الشرف. فعلّمهم عن التواضع، وطالبهم بالاتكاء في المتّكأ الأخير، حينئذ يقدمونهم إلى مكان أرفع.

ولاحـظ أيضاً أن كل المدعوين من أصدقاء الداعي، فطلب منه أن يدعو الفقراء، والجُدع المشوَّهين، والعُرج والعمي، الذين لا يقدرون أن يكافئوا صاحب البيت، فيكافئه الرب في قيامة الأبرار.

ولابد أن جو الوليمة توتّر بعد تعليم المســـيح هذا، فأراد أحد المتّكئين أن يغيّر الموضوع ليلطّف جوّ المكان، فعلّق على حديث المســيح بقوله: «طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله». وقد عبّر بهذا القول عن فكر اليهود في أن ملكوت الله الذي يبدأ عند مجيء المســيّا المخلّص المنتَظر سيكون ملكوتاً زمنياً، يـــبدأ باحتفال عظيم ووليمة دســمة، اعتماداً على تفســيرهم لنبوّة إشعياء «ويصنع ربُّ الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة ســمائن.. على دردِيٍّ ســـمائن مُمخَّة، دردِيٍّ مُصفّى» (إشعياء ٢٥: ٦).. تُرى هل سأل صاحب التعليق نفسه إن كان قد جهّز قلبه لتلك الوليمة السماوية، وإن كان قد قبِل الدعوة لـحضورها. وهل سأل نفسه: ما هي فائدة الوليمة الدسمة إن لم يكن قد قبِل الدعوة لحضورها؟.. لا شك أن صاحب التعليـــق لم يفهم طبيعة ملكوت الله، «لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشُرباً، بل هو بر وســلام وفرح في الروح القدس» (رومية ١٤: ١٧). فروى المسيح له وللحاضرين مثل العشاء العظيم، وهو أن إنساناً عظيماً دعا كثيرين ليستعدوا لحضور وليمة عشاء، وأعلنهم بموعد الحفل. ويبدو أنهم قبلوا الدعوة مبدئيـــاً، لأن صاحب الوليـــمة كرّر لهم الدعوة ليخبرهم بحلول وقت العشاء. وكانت العادة أن صاحب الدعوة يذكّر مدعوّيه بســاعة العشاء قبل العشاء مباشرةً. ولكن المدعوّين اســتعفوا من الذهاب، وكأنهم اتفقوا على رفض الدعوة! قال واحد إنه اشترى حقلاً وهو مضطرٌ أن يـذهب ويراه. فكيف اشتراه دون أن يـــراه؟! وقال الثاني إنه اشترى خمســة أزواج بقر ويريد أن يمتحنها، فهل يمتحنها في الليل؟! وما الفائدة من امتحان أبقاره بعد شرائها؟! لقد كانا مشغوليـــن بالعمل الذي يُعمي عيني صاحبه عن الأهم.. أما الثالث فقال إنه تزوّج، ولا يقدر أن يذهب إلى العشاء. وكانت شريعة موســى تقول: «إذا اتّخذ رجلٌ امــرأةً جديدة فلا يخرج في الجند، ولا يُحمل عليه أمرٌ ما. حُراً يكون في بيته سنةً واحدةً، ويسُرُّ امرأته التي أخذها» (تثنيـــة ٢٤: ٥). وهذا يعني أن الشريعة تعفيه من المســؤوليات العســكرية نحو وطنه، والمسؤوليات العائلية نحو سبطه.

وقد شعر الأوّلان بتقصيرهما، فطلبا أن يعفيهما صاحب الدعوة، بقولهما: «أســألك أن تعفيني». لكن الثالث لم يشعر بالتقصير، لأنه اعتمد على إعفاء الشريعة له، وقال: «لا أقدر أن أجيء».

وكان المفهوم، زمن روايــة المثل، أن رفض ملكٍ دعوة ملكٍ آخر يــعني إعلان الحرب على الملك الـــداعي. ولهذا غضب الداعي على رافضي دعوته، بعد أن أعدّ كل شيء، وأمر عبده أن يــخرج إلى شوارع المدينة وأزقّتها ليدعو المساكين من جُدع مشوّهين، وعُرج وعُمي. ففعل العبد، وعاد يقول لسيده إن كل من دعاهم جاءوا، ولكن لا زال حول المائدة مكان. فأمره أن يخرج إلى الســياجات حيث يسكن أفقر فقراء المديــنة ليــلحَّ عليـــهم ليحضروا للعشاء حتى يمتلئ بيته. وهكذا تمتّع بالوليمة كل من قبل الدعوة، بينما خسرها المدعوّون الأوّلون لأنهم رفضوها.

وواضحٌ أن المسيح قصد بمثله هذا أن الله هو العظيم صاحب البيت، لأنه ضرب هذا المثل بعد القول: «طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله». وقصد بالوليمة الإيمان بالمسيح وقبول خلاصه، فالمسيح هو خبز الحياة، ومن يُقبِل إليه لا يجوع، ومن يؤمن به لا يعطش أبداً (يوحنا ٦: ٣٥). والاجتماع حول المسيح في بيت الآب يجمع الأحبّاء المبتهجين بالمصالحة مع الله، وبالغفران، وبمواعيد الله، وبتعزيات الروح القدس، وبرجاء الحياة الأبدية. وفي الالتفاف حول الوليمة تظهر محبة المسيح للمؤمنين، ومحبتهم له.

ومن المؤسف أن هناك من يرفضون الوليمة، رغم دعوتهم إليها. وقد قصد بهم المسيح قادة اليهود الذين رفضوه رغم معرفتهم بالكتب المقدسة التي تنبأت عنه، وكأنهم يقولون له: «ابعُد عنا وبمعرفة طرقك لا نُسرّ» (أيوب ٢١: ١٤). وقد ادّعى هؤلاء القادة أنهم أول المدعوين لملكوت الله بعد أن دعاهم يوحنا المعمدان لقبول خلاص المسيح الذي هو حمل الله رافع خطية العالم (يوحنا ١: ٢٩)، ولكنهم رفضوه وقالوا: «ألعلّ أحداً من الرؤساء أو الفريسيين آمن به؟» (يوحنا ٧: ٤٨)، ففتح الله باب وليمة خلاصه لكل البشر، من خطاة ومضطهَدين ومهمَّشين ومرفوضين من المجتمع، وقال المسيح: «لم آتِ لأدعو أبراراً، بل خطاة إلى التوبة.. لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلّص ما قد هلك» (مرقس ٢: ١٧ ولوقا ١٩: ١٠).

ملحوظة: روى المسيح «مثل العشاء العظيم» في بيت أحد الفريسيين في بداية خدمته، وروى مثلاً مشابهاً في مناسبة أخرى، أثناء تعليمه للفريسيين في أسبوع الآلام (متى ٢٢: ١-١٤).

ونتعلم من هذا المثل عدة دروس:

أولاً - ملكوت الله وليمة

في هذا المثل أعلن المسيح أن قبول خلاصه ومُلكه على حياتنا يوم فرح ووليمة كالوليمة التي أُقيمت بمناسبة عودة الابن الضال من أرض ضلاله (لوقا ١٥: ٢٣).. ليست المسيحية كئيبة فهي بشارة فرح أعلنها الملاك: «ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب: أنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّصٌ هو المسيح الرب» (لوقا ٢: ١٠). وليست المسيحية مخيفة تلوِّح بالعقاب، فهي ترفع راية المحبة والسلام وتفتح أبواب الرجاء أمام المتعبين اليائسين الذين قبلوا تعليم المسيح الذي بدأ موعظته على الجبل بكلمة «طوبى» (يا لسعادة!) ووصف المطوَّبين أصحاب السعادة بأنهم المساكين بالروح والحزانى والودعاء والجياع والعطاش إلى البر والرحماء والأنقياء القلب وصانعو السلام والمضطهَدون من أجل البر (متى ٥: ٣-١٢). وكان يعلن دائماً ترحيب السماء وفرحها بالخاطئ التائب، وفرح الخاطئ التائب بتوبته وعودته إلى أحضان الله (لوقا ١٥). وأعلن المسيح قبوله للص التائب على الصليب (لوقا ٢٣: ٤٣). وكان تعليم المسيح الذي ينبّر عن الملكوت المفرح مختلفاً عن وعظ المعمدان الذي نبّر على دينونة الله، وأكّد لأتباعه أنه لا يمكن لشيء أن يسلب فرح الملكوت منهم، ووعدهم: «اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يوحنا ١٦: ٢٤).

وتـحدَّث المسيح كثيراً عن أن ملكوت الله يشبه حفل عرس فقال: «يشبه ملكوت السماوات إنساناً ملكاً صنع عُرســاً لابنه» (متى ٢٢: ٢)، وقال: «يشبه ملكوت الســماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهنّ وخرجن للقاء العريس» (متى ٢٥: ١). ويشبِّه سفر الرؤيا مجيء المسيح ثانية ليأخذ المؤمنين إليه بأنه حفل عرس، فيقول المؤمنون المســتعدون لمجيئه ثانيةً: «لنفرح ونتهلل ونعطِه المجد، لأن عُرس الحمل (المسيح حمل الله) قد جاء، وامرأته (الكنيسة) هيَّأت نفسها» (رؤيا ١٩: ٧).

قــدَّم وليمة الفرح هذه الداعي الغني الكريم المحب، الذي دعا من لا يستحقون. في المرة الأولى وجَّه الدعوة للذين رفضوها بعد أن وعدوا بحضورها، لأنهم غافلون متكبِّرون. وفي ســخائه لم يُلغِ العشاء، وأراد أن يشبع به آخرون، فوجَّه الدعوة مرَّةً ومرة لمدعوِّين آخرين من كل مكان «ولكن كثيرون أولون يكونون آخِرين، والآخرون أوَّلين» (مرقس ١٠: ٣١). ولم يكن الآخرون مستحقين ولا مستعدين، لأنهم فقراء من جُدع مشوَّهيــن، وعُرج وعُمي لم يكن يخطر على بالهم أن صاحب الوليمة ســيدعوهم إليها! «كما هو مكتوب: ما لم ترَ عين ولم تســمع أذن ولم يخطر على بال إنســان ما أعدَّه الله للذين يحبونه، فأعلنه الله لنا نحن بروحه» (اكورنثوس ٢: ٩، ١٠).

تحمَّل الداعي كل التكلفة وقدَّم العشاء العظيم مجاناً، فوصلت دعوته إلى آدم ومعه كل البشر ليأكلوا من شجرة الحيــاة ويــمتنعوا عن الأكل من «شجرة معرفة الخير والشر» وهي الدعوة التي عصوها. ولكن المســيــح يعد بها كل من يطيع، ويقول: «ها أنا آتي ســريعاً وأجرتي معي لأجازي كل واحد كما يكون عمله. أنا الألف والياء، البداية والنهاية، الأول والآخِر. طوبى للذين يصنعون وصاياه لكي يكون سلطانهم علـى شجرة الحياة» (رؤيا ٢٢: ١٢-١٤).. ثم وصلت نوحاً، ومعه كل العالم القديم ليحتموا بالفلك، عندما قال الله: «ها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأُهلك كل جسد.. ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبــنوك وامرأتك ونساء بنيك معك» (تكوين ٦: ١٧، ١٨).. ثم وصلت إبراهيم، ومعه كل الجنس المختار لــيحتموا في عناية الخالق الفادي، عندما قال الله له: «اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك، فأجعلك أمَّةً عظيمة، وأباركك وأعظِّم اسمك وتكون بركة» (تكوين ١٢: ١، ٢).. ولا تزال هذه الدعوة تتكرَّر اليوم للجميع ليؤمنوا بالمسيح المخلِّص وبعمله الكفاري لأجلهم: «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس» (أعمال ٢: ٣٨).

أُرســلت دعوة العشاء العظيــم مرتيــن: «يقول للمدعوين تعالوا». وقد جاءت دعوة الله لمعاصري المســيح مرة على لسان المعمدان، والثانية بلسان المسيح. وهي تتكرَّر لنا اليوم من المسيح الواقف على باب قلوبنا يــقرع ليُــشبعنا بعشائه، قائلاً: «هئنذا واقف على الباب وأقرع. إن ســمع أحدٌ صوتي وفتح الباب، أدخل إليــه وأتعشَّى معه وهو معي» (رؤيــا ٣: ٢٠)، فإن العشاء العظيــم جاهز «كل شيء قد أُعدّ»، وعلى المدعوين أن يقبلوا الدعوة ليأكلوا.. وهو عشاء وفير و«يوجد أيضاً مكان» «حســب كرم الملك» (أستير ١: ٧) لكل من يقبل الدعوة.

وهناك ثلاثة أسباب على الأقل جعلت المسيح يقول إن الوليمة هي وليمة عشاء:

١ - العشاء هو الوجبة الرئيسية:

كان طعام الإفطار بسيطاً، يتناوله الإنسان بسرعة قبل أن يخرج إلى عمله، وكان الغداء بسيطاً وسريعاً يتناوله الإنسان في محل عمله. أما العشاء فكان الوجبة الرئيسية الدسمة، التي يجتمع فيها ربُّ الأسرة بأهل بيته. ويقدم الرب لنا أشهى وليمة روحية وصفها المرنم بالقول: «ترتِّب قدامي مائدة» (مزمور ٢٣: ٥). فهي مرتَّبة ووفيرة ودسمة، تشبعنا، فندعو آخرين معنا: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مزمور ٣٤: ٨).

٢ - يتناول الإنسان عشاءه مستريحاً بعد انتهاء عمل اليوم:

ويوجِّه صاحب العشاء دعوته لهذه الوجبة بعد أن يكون ضيوفه قد انتهوا من أعباء عمل يومهم.. إنها وجبة دسمة بعد عناء يوم عمل، وقد آن أوان الراحة الذي يدعونا المسيح إليه بقوله: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (متى ١١: ٢٨)، ففي حضرة المسيح تجد الراحة الكاملة.

٣ - العشاء وليمة أُنس ومحبة:

كانت وجبة العشاء تسمح للضيوف أن يتحادثوا ويتسامروا ويستمتعوا بالوقت معاً دون أن يقلقهم شيء عاجل يجب أن يؤدّوه. وقد قصد المسيح أن العشاء العظيم ليس مجرد أكل وشرب، ولكنه أنس ومودّة، يقول لنا الله فيه: «استمعوا لي استماعاً، وكلوا الطيِّب، ولتتلذَّذ بالدسم أنفسكم. هلموا إليَّ. اسمعوا فتحيا أنفسكم. وأقطع لكم عهداً أبدياً» (إشعياء ٥٥: ٢، ٣).

واليوم يدعوك الرب لوليمة عشاء، فيها الشبع الحقيقي لحياتك، وفي قبولها تتمتَّع بالأُنس بالله الذي هو محبة. و«في هذا هي المحبة: ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبَّنا، وأرسل ابنه كفَّارة لخطايانا» (١يوحنا ٤: ١٠).

ثانياً - الذين يرفضون الوليمة

قال رجل حكيم: «يفعل الناس في حياتهم الروحية ما لا يفعلونه أبداً في حياتهم اليومية». فعندما توجَّه لنا دعوة لحفل نقبلها، ولكن عندما يدعونا الله للتوبة والتمتُّع بالعشرة معه نتردد ونعتذر. ومساكين أولئك الذين لا يدركون مقدار ما يخسرونه روحياً عندما يرفضون الدعوة للعشاء الروحي العظيم.

كان اليهود أول المدعوين للوليمة، ولكنهم رفضوا الدعوة، فقُدِّمت للأمم، وقال المسيح لليهود: «إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمَّة تعمل أثماره» (متى ٢١: ٤٣). واليهود في مثَل العشاء العظيم هم الأغنياء بشريعة موسى ومواعظ الأنبياء. وقد ظنوا أنفسهم أبراراً لأن عندهم شريعة لا توجد عند غيرهم، ومنهم الفريسي الذي افتخر بصلاحه، فرفض الله افتخاره بتقواه، وأعلن قبوله للعشار الخاطئ الذي صرخ: «اللهم ارحمني أنا الخاطي» فنزل إلى بيته مبرَّراً (لوقا ١٨: ٩-١٤). وما أكثر من

يقولون مع ملاك كنيسة لاودكية: «إني أنا غني وقد استغنيت، ولا حاجة لي إلى شيء» فقال المسيح له: «لستَ تعلم أنك أنت الشقي والبائس وفقير وأعمى وعريان.. فكُن غيوراً وتُب» (رؤيا ٣: ١٧، ١٩).

قدّم الرافضون أعذاراً متنوّعة سخيفة وواهية. ومن الغريب أن الناس مستعدون للاعتذار أكثر من استعدادهم لقبول دعوة الله.. اعتذر واحد بأنه اشترى حقلاً، ومشتري الحقل شغلته الماديات والممتلكات، وقال فيه القس إبراهيم سعيد إنه «في الحقيقة لم يشترِ الأرض، ولكنه باع نفسه للأرض»!.. واعتذر الثاني بأنه اشترى عشر بقرات، فشغلته التجارة والمعاملات.. والذي تزوّج شغلته الأمور العاطفية.

وهناك عامل مشترك في كل هذه الاعتذارات التي قدّمها المدعوّون الأوّلون، هو أن ملكوت الله كانت له المكانة الثانية في حياتهم، وفي حالة الشخصين الأوّلين جاء عملهما قبل ملكوت الله، وكانت العائلة عند الثالث أهم من الملكوت.. ولم يرفضوا لأسباب شريرة، فلا خطأ في شراء الأرض أو الأبقار، ولا عيب في الزواج. لكن الخطأ كان في ترتيب الأولويات ووضع أيٍّ من هذه قبل المسيح، فإن الحسن هو عدو الأحسن. ولم يشعر المعتذرون بقيمة الوليمة، ولا كانوا جائعين لها، لأنهم ظنوا أن الحقول والأبقار والاهتمامات العاطفية تشبع كل احتياجاتهم. لمثل هؤلاء يقول المسيح: «من أحبَّ أباً أو أماً أكثر منّي فلا يستحقني. ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني» (متى ١٠: ٣٧، ٣٨).

ويعتذر بعض الناس اليوم عن عدم قبول دعوة الله المشبعة بأعذار واهية، فيقولون مثلاً إن من بين رجال الدين وروّاد الكنائس أشخاصاً سيئين، وهذا يبعدهم عن عبادة الله.. ولكن من يرفض الصحة لأن بعض الأطباء مرضى؟ ومن يحكم على موسيقى بيتهوفن أنها سيئة لأن عازفاً أساء عزفها؟

ويقول آخرون إن أمور الحياة تشغلهم بسبب غلاء المعيشة وكثرة المسؤوليات العائلية.. ولكن «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» (متى ١٦: ٢٦).

وما أرهب نتيجة الرفض، فإن صاحب الوليمة غضب وقال: «ليس أحدٌ من أولئك الرجال المدعوّين يذوق عشائي».. وفي المثل المشابه الذي رواه المسيح في أسبوع الآلام قال إن عقوبة الذين رفضوا دعوة الملك كانت: «فلما سمع الملك (باعتذاراتهم) غضب وأرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم» (متى ٢٢: ٧). أما المدعو الذي رفض أن يلبس الحُلّة الملوكية فقد عاقبه الملك بقوله: «اربطوا رجليه ويديه، وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ٢٢: ١٣).

أليس غريباً أن يرفض الإنسان امتياز الشبع والأُنس والراحة، ويحصل على البكاء وصرير الأسنان والهلاك؟ «فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم، لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب» (أعمال ٣: ١٩).

ثالثاً - الذي يدعو للوليمة

ونتوقف عند شخصية هامة في المثل، هي شخصية العبد الذي أرسله سيده في ساعة العشاء ليقول للمدعوين: «تعالوا، لأن كل شيء قد أُعِدّ» فذهب وقدّم لهم الدعوة. ولا بد أن العبد تألم وتأسف عندما رفض المدعوون الأوّلون الدعوة، ولكنه علم أن الرّفض ليس موجّهاً له بل لسيده، فـ«أتى ذلك العبد وأخبر سيده بذلك». فأصدر السيد أمره مرة ثانية للعبد: «اخرُج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقّتها، وأدخِل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمي». فأطاع دون أن يسأل إن كان مثل هؤلاء مستحقين أن يجلسوا على مائدة سيده. وعاد بعد أن دعاهم يقول لسيده: «يا سيد، قد صار كما أمرت. ويوجد أيضاً مكان». فعاد السيد يأمره ثالثة: «اخرُج إلى الطرق والسياجات وألزِمهم بالدخول حتى يمتلئ بيتي». ففعل بغير تردد!

وكل مؤمن ذاق حلاوة عشاء الرب، ونال خلاصه العظيم يصبح عبداً للرب، لأن المسيح اشترى من المؤمنين أنفسهم بفدائه الكريم، وله كل الحق أن يكلّفهم بخدمته. وهم يفرحون بطاعة تكليفه لهم كل يوم، ويقومون فوراً بكل ما يطلبه منهم.

وعلى كل مؤمن أن يوصّل دعوة الرب الخلاصية للمحيطين به قائلاً مع الرسول بولس: «الضرورة موضوعة عليَّ، فويلٌ لي إن كنتُ لا أبشِّر» (١كورنثوس ٩: ١٦).. هكذا فعل إشعياء النبي. لقد عرف أنه عبدٌ للرب. وعندما سمع دعوةً عامةً من الرب تقول: «مَن أُرسل ومن يذهب من أجلنا؟» عرف أن الدعوة موجّهة إليه هو شخصياً، فأجاب: «هئنذا أرسِلني» (إشعياء ٦: ٨). وكل مؤمن يعلم أنه عبدٌ للرب، كما قال الرسول بولس إنه «عبدٌ ليسوع المسيح المدعو رسولاً، المفرز لإنجيل الله» (رومية ١: ١) فقال: «فإذ نحن عالمون مخافة الرب نُقنِع الناس.. إذاً نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله» (٢كورنثوس ٥: ١١، ٢٠).

دعونا نقبل دعوة العشاء العظيم فنشبع بخلاص المسيح المخلِّص، ثم ندعو الجميع ليشبعوا كما شبعنا، وليفرحوا كما فرحنا. «هكذا قال السيد الرب: هوذا عبيدي يأكلون.. هوذا عبيدي يشربون.. هوذا عبيدي يفرحون.. هوذا عبيدي يترنمون من طيبة القلب» (إشعياء ٦٥: ١٣، ١٤).

سؤالان

١ - ما هي المناسبة التي روى المسيح فيها مثل العشاء العظيم؟

٢ - اشرح كيف تقوم بدور العبد كما تراه في مثل العشاء العظيم.

٨ - امتياز المجازاة

(أ) **المجازاة للجميع**	- مثل الساعات المختلفة	متى ٢٠: ١-١٦
(ب) **المجازاة للساهرين**	- مثل العذارى الحكيمات	متى ٢٥: ١-١٣
(ج) **المجازاة للعاملين**	- مثل الوزنات	متى ٢٥: ١٤-٣٠

(أ) المجازاة للجميع

مثل العاملين في ساعات مختلفة

فَإِنَّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ يُشْبِهُ رَجُلاً رَبَّ بَيْتٍ خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأْجِرَ فَعَلَةً لِكَرْمِهِ، فَاتَّفَقَ مَعَ الْفَعَلَةِ عَلَى دِينَارٍ فِي الْيَوْمِ وَأَرْسَلَهُمْ إِلَى كَرْمِهِ. ثُمَّ خَرَجَ نَحْوَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ وَرَأَى آخَرِينَ قِيَاماً فِي السُّوقِ بَطَّالِينَ، فَقَالَ لَهُمُ: اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضاً إِلَى الْكَرْمِ فَأُعْطِيَكُمْ مَا يَحِقُّ لَكُمْ. فَمَضَوْا. وَخَرَجَ أَيْضاً نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ وَالتَّاسِعَةِ، وَفَعَلَ كَذلِكَ. ثُمَّ نَحْوَ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ خَرَجَ وَوَجَدَ آخَرِينَ قِيَاماً بَطَّالِينَ فَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا وَقَفْتُمْ ههُنَا كُلَّ النَّهَارِ بَطَّالِينَ؟ قَالُوا لَهُ: لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْجِرْنَا أَحَدٌ. قَالَ لَهُمُ: اذْهَبُوا أَنْتُمْ أَيْضاً إِلَى الْكَرْمِ فَتَأْخُذُوا مَا يَحِقُّ لَكُمْ. فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ قَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ لِوَكِيلِهِ: ادْعُ الْفَعَلَةَ وَأَعْطِهِمُ الأُجْرَةَ مُبْتَدِئاً مِنَ الآخِرِينَ إِلَى الأَوَّلِينَ. فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِينَاراً دِينَاراً. فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضاً دِينَاراً دِينَاراً. وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ قَائِلِينَ: هؤُلاَءِ الآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ النَّهَارِ وَالْحَرَّ! فَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: يَا صَاحِبُ مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟ فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ. أَوَمَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَالِي؟ أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟ هكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ، وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ، لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ (متى ٢٠: ١-١٦).

مناسبة رواية المثل:

جـاء شاب غني، كان رئيساً لأحد المجامع (كما يظهر من لوقا ١٨: ١٨)، وبحماسة وتواضع سجد أمام المســيح (كما يظهر من مرقس ١٠: ١٧). ولعله كان قد ســمعه يقول: «أتيتُ لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفـضل» (يوحنا ١٠: ١٠) فسأله: «أيها المعلم الصالح، أيّ صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟».. فذكّره المســيـــح ببعض الوصايا العشر التي لا بد أنه كسـرها، حتى يُشعره بحاجته للتوبة التي توصّله إلى الحياة الأبدية، فقال له: «لا تقتل. لا تزنِ. لا تسـرق. لا تشهد بالزور. أكرم أباك وأمك، وأحِبَّ قريبك كنفسك». ولعله ظنّ أن المطلوب هو معرفة الوصايا، كما أن ضميره لم يكن حسّـاسـاً، فقال: «هذه كلها حفظتُها منذ حداثتي، فماذا يعوزني بعد؟». فعاد المسيح يضع إصبعه على نقطة ضعف أخرى في حياة ذلك الشاب، لعله يـنتبه إليها فيعترف بها ويتوب عنها، وقال له: «اذهب وبع أملاكك وأعطِ الفقراء، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني». فلما سمع الكلمة «مضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة» (متى ١٩: ١٦-٢٢).

ولما سـمع بطرس هذه الإجابة قارن نفســه بذلك الشاب، فرأى أنه أفضل منه، لأنه ترك شباك صيده وتبع المســـيح ليصير صياداً للناس، فسأل المسيح: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا؟» فأجابه أن من يـضحّي بأي شيء من أجله يـأخذ مئة ضعف، ويـرث الحيـــاة الأبدية (متى ١٩: ٢٩).

ثم ضرب مثَل صاحب الكرم الذي استأجر فعلة ليعملوا في كرمه لساعات مختلفة، وفي نهاية اليوم منحهم جميعاً أجراً متساوياً، ليؤكد لسامعيه أن الأجر والحياة الأبدية يُعطَى لكل المؤمنين سواء كانوا أولين أم آخرين، وأنه لا يحقُّ لأحدٍ أن يدَّعي أنه يستحق الحياة الأبدية لأنه ضحى لأجل المسيح، أو لأنه أكثر من غيره عطاءً للرب.

في هذا المثل قال المسيح إن ملكوت السماوات يشبه صاحب الكرم الذي خرج في مطلع اليوم إلى السوق، حيث يتواجد الفَعلة ليستأجر بعضهم. فوجد مجموعةً أرسلهم للعمل في كرمه، وقال لهم: «أعطيكم ما يحقُّ لكم» (آية ٤). وكان أجر العامل الذي يشتغل طيلة اليوم ديناراً واحداً. ولما كان محصول العنب قد نضج ووجب قطافه قبل موسم المطر، فقد احتاج صاحب الكرم إلى عمال آخرين كثيرين، فخرج في ذلك اليوم إلى السوق أربع مرات، في الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة من النهار، وفي كل مرة وجد عُمّالاً لم يستأجرهم أحد، فطلب منهم أن يذهبوا للعمل في كرمه، ولم يتَّفق معهم على أجر. ولا بد أنهم توقَّعوا أجراً أقل من دينار، لأنهم لم يشتغلوا اليوم كله.

وكان يوم الأجير يبدأ من طلوع الشمس وينتهي بمغيبها. وكان اليهود يعتبرون شروق الشمس الساعة الأولى من النهار (السادسة صباحاً بتوقيتنا)، ويحسبون الغروب الساعة الثانية عشرة (السادسة مساءً بتوقيتنا)، فيكون أن صاحب الكرم استأجر عمالاً في الساعة السادسة والتاسعة صباحاً، والثانية عشرة ظهراً، والثالثة والخامسة بعد الظهر، بحسب توقيتنا.

وعندما انتهى اليوم بغروب الشمس أعطى الجميع أجراً متساوياً، لا ظُلم فيه للأولين لأنه اتَّفق معهم على الأجر، وإنما فيه إنعام على المتأخرين.

أولاً - كل من يدعو الرب يخلص

يعلِّمنا هذا المثَل أن كل الذين يقبلون دعوة الله في أي مرحلة من مراحل العمر متساوون في نوال خلاصه والحياة الأبدية، لأن «كل من يدعو باسم الرب يخلُص» (يوئيل ٢: ٣٢ وأعمال ٢: ٢١). ولم يتوقَّع أصحاب الساعة الحادية عشرة أن يأخذوا أجراً مساوياً للأجر الذي أخذه الذين اشتغلوا في الكرم أكثر منهم، ولكن إحسان صاحب الكرم منح الجميع بركته.. ويرجع هذا التساوي إلى أن خلاص نفوسنا لا يتوقَّف على ما نفعله نحن، بل على ما فعله المسيح لأجلنا على الصليب، فهو عطيةٌ وإنعامٌ منه، ومن عمله وحده. فإذا احتمينا بكفارته نخلُص «لأنكم بالنعمة مُخلَّصون بالإيمان، وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد. لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمالٍ صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أفسس ٨: ٢-١٠).. «كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا ليس من دمٍ ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجلٍ، بل من الله» (يوحنا ١: ١٢، ١٣).

وبعد قبول دعوة الله لنا نجد أنفسنا تلقائياً نقوم بالأعمال الصالحة التي سبق فجهَّزها لنا لنعملها. فهو لا يُـنعم علينا بالحياة الأبدية لأننا عملنا في كرمه، لكن لأننا قبلنا دعوته. أما عملنا في كرمه فهو ثمر إيماننا. وهو تشريف لا يشتري لنا خلاصنا، لكنه يبرهن أننا خلُصنا، لأنه «من ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧: ١٦، ٢٠). و«متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا إننا عبيد بطالون» (لوقا ١٧: ١٠).

وتساوي المؤمنين في الحصول على الحياة الأبدية لا يعني أنهم متساوون في الجزاء السماوي «لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد» (١كورنثوس ١٥: ٤١). صحيحٌ أن المسيح هو الأساس الواحد والوحيد الذي يبني عليه المؤمنون إيمانهم، ولكنهم يبنون هيكلهم الروحي بمواد مختلفة. البعض يبنون بمواد ذهبية وغيرهم بمواد فضية وغيرهم بحجارة كريمة، وغيرهم يبنون خشباً أو عشباً أو قشاً. وفي اليوم الأخير تمتحن النار الإلهية عمل كل واحد، ما هو. فإن بقي عمل أحدٍ قد بناه على المسيح، الذي هو الأساس الواحد، يأخذ أجرة. أما من احترق عمله فسيخلَص، ولكنه سيخسر مكافأة العمل الصالح (١كورنثوس ٣: ١١-١٥). ولا شك أن الذي يقيم مبنى من ذهب ينال جزاءً سماوياً أفضل من الذي يبني بالقش.

ثانياً - تحذير من التذمُّر

عندما ساوى صاحب الكرم بين العاملين في كرمه تذمر الذين عملوا النهار كله، فقال لقائد المتذمِّرين: «أم عينك شريرة لأني أنا صالح؟». وهناك أسباب كثيرة تمنعنا من التذمر على صاحب الكرم:

١ - اهتمام الرب بكرمه:

وكرم الرب هو شعبه (إشعياء ٥: ٧). وهو يحتاج دوماً إلى فعلة، ويكرمنا بأن يدعونا كل وقت للعمل فيه، كما أمرنا المسيح: «ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضَّت للحصاد، والحاصد يأخذ أجرة، ويجمع ثمراً للحياة الأبدية، لكي يفرح الزارع والحاصد معاً» (يوحنا ٤: ٣٥، ٣٦). وكل من يعمل ينال أجراً سماوياً.

٢ - ينال كل مَن يعمل أجراً:

فتَّش صاحب الكرم عن الفعلة. ويتنازل الرب ويدعو كل مستعدٍّ للعمل لديه ليتبارك العامل والعمل. إنه يطلب العاملين وأجرته معه ليجازي كل واحد.. وما أعظم الجزاء السماوي العادل لكل من يترك شيئاً ويضحي به في سبيل الله غير ناظر للمكافأة، وهو يقول: «إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية، لكي أربح المسيح» (فيلبي ٣: ٨). وما أسعد من يحترس، فلا يقول: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا؟» وكأن الله مديون له! ولا يجب أن نحسد إخوتنا الذين ينالون إنعامات أكثر منا، كما لم يكن يحق للذين دُعوا أولاً وتعبوا وقتاً طويلاً أن يطالبوا بجزاء أكبر من جزاء الذين دُعوا أخيراً وتعبوا وقتاً قصيراً، فإن الجزاء هو الحياة الأبدية لجميع من يقبل دعوة الله ويخدمه. وخلاص الله هو عطية لكل مؤمن.

٣ - يعطي صاحب الكرم المتقدّمين والمتأخرين فرصة:

يــرحّب الله بالخطاة التائبين الذين يقبلون دعوته، ويكافئهم بأن يمنحهم حياةً أبدية، حتى لو قبلوا دعوته فــي وقت متأخر من عمرهم.. نعم توجد فرصة للتوبة في كل لحظة من لحظات الحياة، فينال التائب أجراً ســـماوياً. يقبل بعض الناس دعوة التوبة في عمر الشباب، والبعض الآخر في مرحلة الرجولة، والبعض الثالث عندما يبلغون الشيخوخة، والبعض وهم على فراش الموت، فيقول المسيح لهم جميعاً: «لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة» (يوحنا ١٤: ١، ٢).

كان الــلص المصلوب التائب من أصحاب الســاعة الحاديــة عشرة، فقد أعلن توبته في اللحظات الأخيرة من حياته، وقال لزميله المصلوب معه: «أولا أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أما نحن فبعدلٍ، لأننا ننال اســتحقاق ما فعلنا. وأما هذا (المســيــح) فلم يفعل شيئاً ليس في محله». ثم قال للمســيــح: «اذكرني يــا رب متى جئت في ملكوتك» لأن عيني إيمانه رأتا في المصلوب رباً صاحب ملكوت، فقال له المســـيح: «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لوقا ٢٣: ٤٠-٤٣). وكان الفردوس للص التائب إنعاماً من الله لا يــســتحقّه، لأنه كان يســتحق الهلاك الأبدي «لأن أجرة الخطية هي موت. أما هبة الله فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا» (رومية ٦: ٢٣).

ولا شك أن كل لحظة من لحظات الحياة فرصة للتوبة، ولو أن أحد الحكماء قال إن ٢٠+٤٠ أفضل من ٤٠+٢٠، ولما ســئل: «كيف يكون هذا مع أن حاصل الجمع في الحالتين هو ٦٠؟» أجاب: «عندما يتوب إنســان في عمر العشرين ويســير مع الله أربعين سنة، يكون أفضل حالاً من الإنسان الذي يتوب في عمر الأربعين، ويسير مع الله عشرين سنة، لأنه يكون قد عاش حياة أفضل وأسعد!». صدق الرجل الحكيم! لذلك يدعونا الوحي: «اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم.. هوذا الآن وقت مقبول. هوذا الآن يوم خلاص» (عبرانيين ٣: ١٥ و٢كورنثوس ٦: ٢). وما أحكم قول النبي إرميا: «جيّد للرجل أن يحمل النير في صباه» (مراثي ٣: ٢٧)، فاغتنم الفرصة لتتوب وتخدم الله لتنال الأجر الآن قبل أن تنتهي أيام العمر.

ومن المؤســف أن بعض من يظنّون أنفسهم متقدّمين يتذمّرون على قبول الله للمتأخرين، كما تذمّر يهود عــصر المسيح عليه لما زار زكا العشار وأكل في بيته لأنه «دخل ليبيت عند رجل خاطئ» (لوقا ١٩: ٧)، لأنــهم ظنّوا أنفسهم أصحاب الفرصة الأولى، ونسوا أن الرب يرحّب بكل من يقبل دعوته ويعمل في كَرْمه، ويمنحه أجراً سماوياً، كما فرح الأب بعودة ابنه الضال، ولو أن ابنه الأكبر تذمّر على أبيه لأنه استقبل أخاه الراجع من ضلاله، وأخذ يلومه على قبوله والاحتفاء بعودته (لوقا ١٥: ٢٥-٣٢).

٤ - الآخِرون أوّلون:

علّق المســيــح قبل روايــة هذا المثل، وبعد أن رواه، بالقول: «ولكن كثيرون أوّلون يكونون آخِرين، وآخِرون أوّليــن.. هكذا يــكون الآخِرون أوليــن، والأولون آخِرين» (متى ١٩: ٣٠ و٢٠: ١٦).. فهناك أولون في نظر أنفسهم وفي نظر الناس ولكنهم آخِرين في نظر الله. وهناك أوّلون في وصول الدعوة إليهم،

مثل بني إســـرائيل، لكنهم صاروا آخِرين لأن الأمم سبقوهم إلى ملكوت الله (متى ٢١: ٣١ ويوحنا ١: ١١، ١٢). وهـناك أوّلون في الفرصة الممنوحة لهم ليعرفوا الله مثل أهل الناصرة، ولكنهم كانوا آخِرين فـي نوال فوائد هذه المعرفة (متى ١٣: ٥٤-٥٨). وهناك أوّلون في الغنى والحصول على ممتلكات هذا العالم ولكنهم يكونون آخِرين في الحياة الأبدية، مثل الغني الذي لم يلتفت للعازر (لوقا ١٦: ١٩-٢٥).

ثالثاً - تحذير من الكسل

ســـأل صاحب الكرم الفعلة: «لماذا وقفتم ههنا كل النهار بطالين؟» (آية ٦). ولا زال المسيح يسألنا اليوم هذا الســؤال نفســه: «لماذا لا تعملون في كرمي؟». هذا سؤال مهم جداً لأن الوقت مقصَّر، فليس عند صاحب الكرم وقت يـضيّـعه الفعلة العاطلون عن العمل، وهو الذي قال: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسـلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يســتطيع أحدٌ أن يعمل» (يوحنا ٩: ٤). إنه مستعجل في جمع محصوله قبل هطول الأمطار.

والـحقيقة الواضحة هي أن الخطاة يمضون إلى مصيرهم الأبدي المحزن بينما المؤمنون يهتمون بما هو لأنفســـهم. فلماذا لا يعملون بينما الاحتياج شديد؟ النفوس الموشكة على الهلاك تصرخ: «اعبُر إلى مكدونيــة وأعنّا» (أعمال ١٦: ٩)، ومؤمنون كثيــرون لا يــردّون، لأن بعضهم خاملــون، وبعضهم مـشغولون بتفاهات، وبعضهم أصحاب أولويات خاطئة، وبعضهم يقولون إن الناس غير جاهزين للأمور الروحية أو أنهم غير مهتمين بخلاص نفوســهم. وقد يعتذرون عن عدم الخدمة بحُجَّة أن المسؤولين في الـكنيسة لم يعطوهم فرصة، وكأن قادة الكنيسة يقدرون أن يكمّموا أفواه الناس فلا تشهد للمسيح.. مع أن الكرم واسع وجاهز للحصاد.

ولكن كم نشكر الله من أجل الفعلة الذين عندما سُئلوا: «لماذا وقفتم هنا؟» أطاعوا الدعوة فوراً. ومنذ وصـولهم إلى الكرم عملوا بدون توقُّف، فنالوا أجرهم بالرغم من قِلّة ساعات عملهم، لأن صاحب الكرم كريـمٌ وصالح، لا يـُطالب أحداً من فَعلته بالمســتحيل، فهو يعرف ظروفهم، وهو يطعم العاملين عنده ويكافئهم، ولا يوجد صاحب عمل أفضل ولا أكرم منه.

فـي هذا العالم يظلم أصحاب العمل عمّالهم أحياناً، فقد تقدّم خدمةً لإنسان يتنكّر لها، وقد تخدم إنساناً اليوم وقت حاجته فيتقاعس عن خدمتك وقت حاجتك، لأن البشر لا يكافئون إخوتهم البشر حقَّ مكافئتهم، بل إنهم قد يـســيئون إليهم. أما الله فإنه لا يظلم أحداً، ويقول: «يا صاحب، ما ظلمتك. أما اتّفقت معي على دينار؟ فخُذ الذي لك واذهب، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أوَما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي؟».

فما هو مال الرب؟.. إنه الأرض وملؤها، والمســكونة والســاكنون فيها، لأن له البهائم على الجبال الألـوف، وهو يملك كل شيء (مزمور ٥٠: ٧-١٢).. إنها الآن ساعة لنعمل مع الله، ونقوم ونذهب إلى

كرمه المتَّسع، وهو الكريم السخي الذي يدعو: «هلمَّ فأرسلك» (خروج ٣: ١٠)، وأجرته معه ليكافئ كل العامليـــن. فهيا بنا نعمل عمل الرب بدون رخاوة و«كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك» (جامعة ٩: ١٠)، لأن الذين لا يعملون يدمِّرون مواهبهم، مثل الرجل الذي أخذ وزنته وطمرها، بينما كان يمكنه أن يستغلها (متى ٢٥: ٢٤).

تحدث قسـيـس في إحدى عظاته عن فلاح اشترى محراثين، شغَّل واحداً منهما فكان يلمع، وحفظ الثاني في مخزنه فعلاه الصدأ. وتأثرت سـيدة مؤمنة مما سـمعت، فقالت للقسيس: «أحتاج إلى مكنسة لأنظِّف غرف مدرسـة الأحد، وأحب أن أعرف أسـماء المرضى في كنيستنا لأزورهم وأصلي معهم، لأني لا أريد أن أكون محراثاً صدئاً».. فلنطلب من الرب أن يجعلنا محاريث لامعة.

إن المؤمنيـن الذين لا يعملون يشبهون الفراشة التي تطير فخورة بألوانها الزاهية، أما الذين يعملون فـيشبهون النحلة التي تطير لتجمع الرحيق لتصنع منه عسلاً مغذياً ومشبعاً. وينتظر الله منا أن تكون لنا التقوى الجميـلة الزاهيـة الألوان، وأن نبرهن قوة عملها فينا بأن نكون بركة للآخرين. وكل من يخدم يحقِّق نفسـه ويشبع قلبه، لأنه يرى نفوسـاً ترجع إلى الرب فيفرح، وتفرح معه النفوس التائبة وملائكة السماء.. والنفوس المحتاجة للرب كثيرة من حولنا.

ربـما كنا مشغولين بأشياء كثيرة، ولكنها بالتأكيد أقل قيمة وأهمية من خدمة الرب. فدعونا نعمل في كرم الـرب، فننال بركاته العظيـمة جداً المذخَّرة لكل عامل مُخلص. ولا زال صاحب الكرم يـنادي: «اذهبوا أنتم أيـضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم». فهيا اخدمه لتأخذ منه ما يحقُّ لك «والحاصد يأخذ أجرة ويجمع ثمراً للحياة الأبدية، لكي يفرح الزارع والحاصد معاً» (يوحنا ٤: ٣٦).

سؤالان

١ - ما هو الأجر الذي يتساوى فيه كل العاملين في كرم الرب؟

٢ - اشرح العبارة التالية: «كان اللص المصلوب التائب من أصحاب الساعة الحادية عشرة».

(ب) المجازاة للساهرين

مثل العذارى الحكيمات

حِينَئِذٍ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ عَشْرَ عَذَارَى أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ الْعَرِيسِ. وَكَانَ خَمْسٌ مِنْهُنَّ حَكِيمَاتٍ وَخَمْسٌ جَاهِلاتٍ. أَمَّا الْجَاهِلاتُ فَأَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَلَمْ يَأْخُذْنَ مَعَهُنَّ زَيْتاً، وَأَمَّا الْحَكِيمَاتُ فَأَخَذْنَ زَيْتاً فِي آنِيَتِهِنَّ مَعَ مَصَابِيحِهِنَّ. وَفِيمَا أَبْطَأَ الْعَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنِمْنَ. فَفِي نِصْفِ اللَّيْلِ صَارَ صُرَاخٌ: هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ فَاخْرُجْنَ لِلِقَائِهِ! فَقَامَتْ جَمِيعُ أُولَئِكَ الْعَذَارَى وَأَصْلَحْنَ مَصَابِيحَهُنَّ. فَقَالَتِ الْجَاهِلاتُ لِلْحَكِيمَاتِ: أَعْطِينَنَا مِنْ زَيْتِكُنَّ فَإِنَّ مَصَابِيحَنَا تَنْطَفِئُ. فَأَجَابَتِ الْحَكِيمَاتُ: لَعَلَّهُ لا يَكْفِي لَنَا وَلَكُنَّ، بَلِ اذْهَبْنَ إِلَى الْبَاعَةِ وَابْتَعْنَ لَكُنَّ. وَفِيمَا هُنَّ ذَاهِبَاتٌ لِيَبْتَعْنَ جَاءَ الْعَرِيسُ وَالْمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى الْعُرْسِ وَأُغْلِقَ الْبَابُ. أَخِيراً جَاءَتْ بَقِيَّةُ الْعَذَارَى أَيْضاً قَائِلاتٍ: يَا سَيِّدُ يَا سَيِّدُ، افْتَحْ لَنَا. فَأَجَابَ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُنَّ: إِنِّي مَا أَعْرِفُكُنَّ. فَاسْهَرُوا إِذاً لأَنَّكُمْ لا تَعْرِفُونَ الْيَوْمَ وَلا السَّاعَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا ابْنُ الإِنْسَانِ (متى ٢٥: ١-١٣).

مناسبة رواية المثل:

دخل المسيح مدينة أورشليم يوم أحد السعف (الشعانين) كملك سلام راكباً على حمار، فهتفت له الجماهير: «أوصنا لابن داود (بمعنى: خلِّصنا). مبارك الآتي باسم الرب. أوصنّا في الأعالي» (متى ٢١: ٩). ودخل الهيكل وطهَّره من الباعة والصيارفة، وهو يقول: «مكتوب: بيتي بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (متى ٢١: ١٣).. ثم وبَّخ المسيح نفاق قادة الدين اليهود، وقال لهم سبع مرات: «ويل لكم» (متى ٢٣: ١٤). وفي اليوم التالي دخل الهيكل وقال عنه: «إنه لا يُترك ههنا حجرٌ على حجر لا يُنقَض». فسأله التلاميذ: «متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟» (متى ٢٤: ٢، ٣). فروى لهم علامات خراب أورشليم، ثم علامات مجيئه ثانية. وضرب لهم مثَلين: مثل العذارى الحكيمات والجاهلات، ومثل المسافر الذي أعطى عبيده وزنات ليتاجروا بها.

وكان أول المثَلين عن حفل عرس، وهو مأخوذ من البيئة والعادات اليهودية، رواه المسيح ليوضح لسامعيه حقائق روحية سامية، فقال إن عشر عذارى كنَّ في بيت صديقة لهنَّ ستتزوج، مع كل واحدة منهنَّ مصباح. وحدث أن تأخر العريس فنعسن جميعهن ونمن، وانتهى زيت كل المصابيح. وكانت خمسٌ منهنَّ حكيمات جئن معهن بزيت إضافي يُبقي مصابيحهنَّ مضيئة إن تأخَّر العريس.. بينما اكتفت الخمس الأخريات (ويدعوهنَّ المسيح جاهلات) بما في مصابيحهنَّ من زيت، لأنهن كنَّ يترجَّين أن يأتي العريس مبكراً ومصابيحهن مضيئة. وأخيراً جاء العريس مع أصدقائه وهم يصيحون بابتهاج: «العريس قادم، فاخرُجن للقائه» فاستيقظت العذارى العشر بسرعة، وأصلحن مصابيحهن لأن تشغيل المصباح كان يحتاج إلى تنظيف، وأضافت الحكيمات زيتاً إلى مصابيحهن. واكتشفت الجاهلات انتهاء زيت مصابيحهنَّ، فحاولن استعارة زيت من الحكيمات، فاعتذرن لأن ما معهنَّ لا يكفي إلا لهنَّ.

فذهبت العذارى الخمس إلى الباعة لشراء مزيد من الزيت، فتأخرن. ووصل موكب العروسين إلى بيت العريس وأُغلق الباب. ولما وصلت العذارى الخمس متأخرات لم تكن لهنَّ فرصة الاشتراك في الاحتفال.

وقال المسيح تعليقاً على هذا المثل: «اسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الإنسان». فلا يعرف أحدٌ موعد مجيء المسيح ثانيةً، ولكن على كل حكيمٍ أن يكون مستعداً لهذا المجيء.

كان علماء الدين اليهود يقولون إن لكل يهودي الحق أن يترك درس الشريعة ليشترك في مباهج احتفال عرس، وهناك مثَل عبري يقول: «على كل يهودي من عمر ست سنين إلى عمر ستين سنة أن يجري وراء الاحتفال بالعرس». وكانت العادة في يوم العرس أن تنتظر العروسُ عريسها في بيتها مع صديقاتها، وعددهن عشر على الأقل. ويجيء العريس مع أصدقائه إلى بيت العروس في وقت غير محدّد ليأخذها إلى بيته ومعها أصحابها، ويسير موكبهما أطول مدة ممكنة في شوارع القرية ليحصلا على أكبر قدر من التمنّيات الطيبة من أهل البلد. وكان هناك قانون يمنع السير ليلاً لمن لا يمتلك مصباحاً منيراً، كما كان قانونٌ آخر يمنع دخول أي شخص مهما كان مقامه إلى بيت العريس بعد دخول موكب العروسين إليه مع أصحابهما فيُغلق الباب. وكل مستعد ساهر يتمتع بالاحتفال، وكل جاهل غافل يحرم نفسه منه.

ونتعلم من مثل العذارى الحكيمات والجاهلات عدة دروس:

أولاً - أفراح ملكوت الله

الحياة مع الله احتفالات فرح روحي.. جاء يوحنا المعمدان «لا يأكل ولا يشرب» بمعنى أنه كان ناسكاً متقشّفاً معتزلاً في الصحراء يقول: «أنا صوتُ صارخٍ في البرية: قوّموا طريق الرب» (يوحنا ١: ٢٣). أما المسيح فقد عاش وسط الناس، وشاركهم أفراحهم وتحنّن عليهم، وكان يقبل الخطاة ويأكل معهم، فقيل عنه إنه «أكولٌ وشرّيب خمر. محبٌّ للعشارين والخطاة» (متى ١١: ١٨، ١٩). وهو هنا يشبّه ملكوته بحفل عرس، فالحياة المسيحية حياة بهجة دائمة، وفرح لا يُنطَق به ومجيد.

١ - إنه ملكوت القبول:

هو دعوة حُبِّية موجَّهة للجميع ليتمتعوا باحتفالات بهيجة مستمرة بالرب، تشبه الاحتفال بالعرس وبدء بيت جديد، كما وصف كاتب الرؤيا السماء بأنها «أورشليم الجديدة.. مهيَّأة كعروس مزيَّنة لرجلها» (رؤيا ٢١: ٢). وكل من يقبل دعوة الرب يقبله الرب، ويضمّه إلى ملكوت أفراحه، ويغفر جميع ذنوبه، فيبارك الرب (مزمور ١٠٣: ٣). وكل من يقبل دعوة المسيح وخلاصه يختبر فرح الغفران، فيُنشِد:

ما أبهج اليوم الذي	آمنتُ فيه بالمسيح
أضحى سروري كاملاً	ورنَّ صوتي بالمديح:
حُبّي لفاديَّ المجيد	يوماً فيوماً سيزيد
عمرٌ جديد. يومٌ سعيد	يوم اختصاصي بالوحيد

الإحساس بالذنب يطحن الإنسان فتيبس عظامه، لكن خبر الغفران المفرح يُسمّنها (أمثال ١٥: ٣٠)، «فترون وتفرح قلوبكم وتزهو عظامكم كالعُشب، وتُعرف يدُ الرب عند عبيده» (إشعياء ٦٦: ١٤)، لأنه «إن اعترفنا بخطايـــانا فهو أمين وعادل، حتى يغفر لنا خطايانا ويطهِّرنا من كل إثم» (١يوحنا ١: ٩) فيفرح الخاطئ الذي قبلته نعمة المســيح، وتفرح الملائكة والجار والصديق، وكل نفس سالكة في الحق والطريق، ويفرح الآب الســماوي بابنه رب الفدا!.. تصوَّر معي كم سيكون فرح عائلة وجيران خاطئ تاب فنال سـعادة الغفران ومباهج الحياة الإيمانية الصحيحة.. الأب القاســي ســيصبح رقيقاً، والزوج الخشن ســيصير مُحبّاً، والجار المشاكس ســيتغيَّر إلى صانع سلام، لأنه «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كورنثوس ٥: ١٧).

٢ - إنه ملكوت أُنسٍ بالله:

فهو احتفال الأصحاب بالمناسبة السعيدة وبالصُّحبة المفرحة، كما قال المسيح: «سأراكم أيضاً فتفرح قلوبكم، ولا يــنزع أحدٌ فرحكم منكم.. اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يوحنا ١٦: ٢٢، ٢٤).. في ملكوت الله يســير المؤمن كل اليوم مع أبيه السماوي، ويتأكد من صدق الوعد «أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (متى ٢٨: ٢٠). وهذا الاحتفال نصيــب كل من فرح بغفران خطايا الماضي، وأصبح حاضره اســتمتاعاً دائماً بالرب، لأنه يقوم بخدمة المســيح الذي يقول: «مَن يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعــملها يعملها هو أيضاً، ويعمل أعظم منها» (يوحنا ١٤: ١٧). وهذا الأُنس بمحضر الرب والاستمتاع به يقود إلى ثبوت فرح المســيح الكامل في المؤمن (يوحنا ١٥: ١١).. وفرح المؤمن بالأُنس بربِّه يبدأ بدخوله إلى ملكوت الله ولا ينتهي أبداً، لأنه يبدأ هنا على الأرض ليستمرَّ في السماء بلا نهاية.

٣ - إنه ملكوت النور:

فلا بد أن العذارى يــحملن مصابيــحهن المضيئة التي تقشع ظلام الليل وتبدد كل خوف وتُظهِر كل حق. قال المسيح: «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة، بل يكون له نور الحياة» (يوحنا ٨: ١٢). وصاحب نور الحياة الذي اســتنار بالمســيح يمســك مصباحه لينير لنفسه ولغيره، فإنهم «لا يـوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة، فيضيء لجميع الذين في البيت. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحســنة ويمجدوا أباكم الذي في الســموات» (متى ٥: ١٥، ١٦). وتعلن مصابيحنا المضيئة الممتلئة بزيت النعمة أننا ساهرون مستعدون لمجيء العريس. «لتكن أحقاؤكم مـمنطقة، وسُرُجكم موقدة» (لوقا ١٢: ٣٥) «لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء، أولاداً لله بلا عيب، في وسط جيل معوَّج وملتوٍ، تضيئون بينهم كأنوارٍ في العالم، متمسِّكين بكلمة الحياة» (فيلبي ٢: ١٥، ١٦). وخيرٌ للعينين أن تنظرا الشمس، كما قال سليمان الحكيم (جامعة ١١: ٧).

ثانياً - المسيح آتٍ ثانيةً

كانت العذارى العشر ينتظرن مجيء العريس، ولكنهن لم يكنَّ كلهن مستعدات. فلما تأخَّر موكب العريس «نعسن جميعهن ونمن» ولم تتمكن من حضور حفل العرس إلا خمسٌ منهنَّ!

كان اليهود (ولا يزالون) يتوقَّعون مجيء المسيح مخلصاً سياسياً، يعيد لهم أمجاد مملكة سليمان. وعندما جاء كان أكثرهم غير مستعدين.

واليوم نعلم كلنا أن المسيح آتٍ ثانيةً، ونرجو أن لا يكون حالنا كحال اليهود الذين كان أغلبهم غير مستعدين، لأن المسيح أوصانا: «اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم.. كونوا أنتم مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان» (متى ٢٤: ٤٢، ٤٤).. «اسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي فيها يأتي ابن الإنسان» (متى ٢٥: ١٣).. وأوصانا الرسول بطرس: «لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قومٌ التباطؤ، لكنه يتأنى علينا، وهو لا يشاء أن يهلك أناس بل أن يُقبِل الجميع إلى التوبة. ولكن سيأتي كلص في الليل يوم الرب، الذي فيه تزول السماوات بضجيج، وتنحل العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها» (٢بطرس ٣: ٩، ١٠).

انتظر تلاميذ المسيح مجيئه ثانيةً أثناء حياتهم، وأدّوا مهمَّتهم العظيمة التي كلَّفهم بها، لأنه وعدهم: «ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم، وتكونون لي شهوداً في أورشليم، وفي كل اليهودية، والسامرة، وإلى أقصى الأرض.. ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم. وفيما كانوا يشخصون إلى السماء وهو منطلق، إذا رجلان قد وقفا بهم بلباس أبيض وقالا: أيها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء» (أعمال ١: ٨-١١).

علينا أن نتوقَّع مجيء المسيح ثانيةً في كل لحظة، لأن الرائي يقول: «هوذا يأتي مع السحاب، وستنظره كل عين والذين طعنوه، وينوح عليه جميع قبائل الأرض» (رؤيا ١: ٧).. سينوح البعض بدموع الفرح لأنهم مستعدون لمجيئه كما كانت العذارى الحكيمات. وسينوح البعض الآخر حزناً لأنهم غير مستعدين كالعذارى الجاهلات.. وما أعظم مكافأة المستعدين لمجيئه ثانية، فإن «المستعدات دخلن معه إلى العرس» وتمتَّعن ببهاء الوجود معه. فطوبى للساهر وقت مجيء المسيح، فإنه يُدخله الحفل ويقول له: «نعمّا (اختصار: نِعْمَ ما فعلت، بمعنى: أحسنتَ) أيها العبد الصالح والأمين. كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك» (متى ٢٥: ٢١).

دعونا نفحص أنفسنا ونمتحنها. هل نحن مستعدون لمجيء المسيح ثانيةً؟.. كان هناك تشابه ظاهري بين الحكيمات والجاهلات، فكلهن معهن مصابيح. لكن الفرق عميق وداخلي، ولا يظهر إلا في وقت الامتحان.

يرمز المصباح إلى عمل الإنسان وشهادته للرب، ويرمز الزيت إلى الروح القدس. فلنسأل أنفسنا: هل نحن مولودون من الله؟ هل نحن شبعانون من نعمته؟ هل امتلأنا بروحه؟ لا يجب أن نغترَّ بمظاهر العبادة الخارجية، فهناك تشابه ظاهري بين الحكيم الذي بنى على الصخر والجاهل الذي بنى على الرمل، ولكن الفرق ظهر يوم الامتحان (متى ٧: ٢٤-٢٧) وفي يوم الامتحان يُكرَم المرء أو يُهان!

ثالثاً - حاضرنا يحدِّد مستقبلنا

يحدِّد حاضرُنا مستقبلَنا. وقد كشفت صرخة نصف الليل: «هوذا العريس مقبلٌ، فاخرُجن للقائه» ما عند كل واحدة من العذارى. وستكشف الصرخة نفسها ما بناه كل واحد منا في الأيام التي تسبق مجيء المسيح ثانيةً. وقتها سنكتشف ثلاثة أمور:

١ - هناك أشياء لا يمكن أن نؤجِّل الحصول عليها إلى اللحظات الأخيرة:

لم تستطع الجاهلات الحصول على مزيد من الزيت في اللحظات الأخيرة. فاحصل الآن على نعمة الله المخلِّصة، واستمع إلى صوت الله الذي ينبِّهك إلى هذا بطرق متنوِّعة. قد يربت على كتفك بحنان، وقد يضربك بعصا تأديبه. إنه يحذرك بصوت منخفض خفيف أحياناً، وقد يحدثك بالرعد. «قد تناهى الليل وتقارب النهار. فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور» (رومية ١٣: ١٢).

وعظ نوحٌ قومه مدة مئة وعشرين سنة، وكانت كل دقَّة مسمار في الفلك دعوةً لمعاصريه ليتوبوا عن شر أفعالهم.. وقبل الطوفان مباشرةً دخل الفلك كل من صدَّقوا دعوة نوح، أما المستهزئون الذين طالما ضحكوا عليه فقد رفضوا الدخول، لأنه لم يسبق لهم أن رأوا أحداً يبني سفينة على اليابسة، ولا سمعوا في كل التاريخ السابق بحدوث طوفان مثل الطوفان الذي يهدِّدهم نوحٌ به. وأغلق الله باب فلك نوح، وجاء الطوفان، وحدَّد حاضرُ الناجين والمستهزئين مستقبلَهم. فالذين دخلوا نجوا، والذين رفضوا الدخول غرقوا.. ولا بد أن بعضهم حاول أن يدخل الفلك بعد أن رأى الخطر، ولكن الفرصة كانت قد ضاعت. والمسيح هو فُلك نجاتنا، الذي إن احتمينا بكفارته الكريمة ننجو بفضل ذبحه العظيم.

٢ - هناك أشياء لا نقدر أن نستعيرها من غيرنا:

لا يأكل شخصٌ آخر أو يشرب لك بدلاً منك، بل عليك أنت أن تشرب من الماء الحي لنفسك، وأن تأكل من خبز الحياة لتشبع أنت. يمكن أن يكون أبوك قد بنى كنيسة، ولكن هذا لا يعني أنك ستدخل السماء. فيمكن أن تولد في بيتٍ تقي لكن هذا لا يجعل منك ابناً لله، فإن البنوية لله مسألة فردية، وعلاقتك بالرب أمرٌ شخصي.

٣ - هناك أشياء لا نحصل عليها إلا من مصدرها الصحيح:

فمن المسيح وحده تأخذ زيت نعمتك، وليس من عند إخوتك المؤمنين، لأنه لا يوجد من يعطي «الزيت»

إلا الذي أرســـل الروح القدس ليحل على تلاميذه، بحسب وعده: «أطلب من الآب فيعطيكم معزّياً آخر ليـمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يسـتطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم» (يوحنا ١٤: ١٦، ١٧). فلنأتِ إلى المســيح لنحصل منه على زيت النعمة.

يشبه ملكوت الله حفل عرس، يدعوك الله إليه. فهل تحب أن تحتفل اليوم بخلاص نفســك؟ هل تحب أن تنال غفران خطاياك؟ هل تحب أن يُكتب اسمك في سفر الحياة لأنك تنتمي للمسيح؟.. يمكنك اليوم أن تحصل على زيت النعمة، لأن عند الرب كفايتك من كل شيء، وهو يمنحك الكل مجاناً، وبســخاء، ولا يعيِّر (يعقوب ١: ٥).. ســيعطيك إن كنت تقول له: الآن أفتح قلبي لك يا سيدي، فادخل فيه واملك على حياتي لتجعل مني إنساناً حكيماً مستعداً لكل عمل صالح.

سؤالان

١ - لماذا يشبه ملكوت الله حفل عرس؟

٢ - اذكر بعض الأشياء التي لا يمكن أن تحصل عليها في اللحظة الأخيرة.

(ج) المجازاة للعاملين

مثل الوزنات

وَكَأَنَّمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ دَعَا عَبِيدَهُ وَسَلَّمَهُمْ أَمْوَالَهُ، فَأَعْطَى وَاحِداً خَمْسَ وَزَنَاتٍ، وَآخَرَ وَزْنَتَيْنِ، وَآخَرَ وَزْنَةً – كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ. وَسَافَرَ لِلْوَقْتِ. فَمَضَى الَّذِي أَخَذَ الْخَمْسَ وَزَنَاتٍ وَتَاجَرَ بِهَا، فَرَبِحَ خَمْسَ وَزَنَاتٍ أُخَرَ. وَهكَذَا الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَتَيْنِ رَبِحَ أَيْضاً وَزْنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ. وَأَمَّا الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَةَ فَمَضَى وَحَفَرَ فِي الأَرْضِ وَأَخْفَى فِضَّةَ سَيِّدِهِ. وَبَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ أَتَى سَيِّدُ أُولئِكَ الْعَبِيدِ وَحَاسَبَهُمْ. فَجَاءَ الَّذِي أَخَذَ الْخَمْسَ وَزَنَاتٍ وَقَدَّمَ خَمْسَ وَزَنَاتٍ أُخَرَ قَائِلاً: يَا سَيِّدُ، خَمْسَ وَزَنَاتٍ سَلَّمْتَنِي، هُوَذَا خَمْسُ وَزَنَاتٍ أُخَرُ رَبِحْتُهَا فَوْقَهَا. فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَالأَمِينُ. كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. اُدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ثُمَّ جَاءَ الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَتَيْنِ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ، وَزْنَتَيْنِ سَلَّمْتَنِي. هُوَذَا وَزْنَتَانِ أُخْرَيَانِ رَبِحْتُهُمَا فَوْقَهُمَا. قَالَ لَهُ سَيِّدُهُ: نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الأَمِينُ. كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. اُدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ. ثُمَّ جَاءَ أَيْضاً الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَةَ الْوَاحِدَةَ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ قَاسٍ تَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ تَزْرَعْ، وَتَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَبْذُرْ، فَخِفْتُ وَمَضَيْتُ وَأَخْفَيْتُ وَزْنَتَكَ فِي الأَرْضِ. هُوَذَا الَّذِي لَكَ! فَأَجَابَ سَيِّدُهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ وَالْكَسْلاَنُ، عَرَفْتَ أَنِّي أَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ أَزْرَعْ وَأَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ أَبْذُرْ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَضَعَ فِضَّتِي عِنْدَ الصَّيَارِفَةِ، فَعِنْدَ مَجِيئِي كُنْتُ آخُذُ الَّذِي لِي مَعَ رِباً. فَخُذُوا مِنْهُ الْوَزْنَةَ وَأَعْطُوهَا لِلَّذِي لَهُ الْعَشْرُ وَزَنَاتٍ. لأَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ يُعْطَى فَيَزْدَادُ، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ. وَالْعَبْدُ الْبَطَّالُ اطْرَحُوهُ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ، هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ (متى ٢٥: ١٤–٣٠).

مناسبة رواية المثل:

هذا هو المثَل الثاني الذي رواه المسيح تعليقاً على سؤال التلاميذ: «ما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟» (متى ٢٤: ٣). وقد تأملنا أول المثَلين (مثل العذارى الحكيمات والجاهلات) الذي علَّمنا ضرورة الاستعداد لمجيء المسيح ثانيةً. ونتأمل الآن ثاني المثَلين الذي يعلِّمنا ضرورة الاجتهاد في خدمة الرب إلى أن يجيء، طاعةً لقول الحكيم: «كل ما تجده يدك لتفعله، فافعله بقوّتك» (جامعة ٩: ١٠)، ولقول الرسول: «كونوا راسخين، غير متزعزعين، مُكثرين في عمل الرب كل حين، عالمين أن تعبكم ليس باطلاً في الرب» (١كورنثوس ١٥: ٥٨).

وقد أعطانا المسيح مسؤولية الكرازة للعالم. ويقول تقليد قديم إن المسيح عندما صعد إلى السماء بعد صلبه وقيامته، اجتمع حوله الملائكة وسألوه إن كان كل الخطاة قد تابوا، وإن كان كل المرضى قد نالوا الشفاء، فقال: «لقد تركتُ المسؤولية لتلاميذي، وأعطيتهم كل ما يمكّنهم من أداء المهمّة».

لذلك يـــأمرنا الوحي: «ليكن كل واحد بحســب ما أخذ موهبة يخدم بها بعضكم بعضاً كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوّعة» (ابطرس ٤: ١٠).. وأنت مسؤول أن تعمل وتربح.

يقول هذا المثل إن رجل أعمال عزم على الســـفر، فاستدعى عبيده وأعطاهم وزنات ليتاجروا بها، فأعطى الأول خمس وزنات، وأعطى الثاني وزنتيـــن، وأعطى الثالث وزنة واحدة (الوزنة أجر عامل مــدة عشر سنوات).. وكان رجل الأعمال منصفاً في ما فعل، لأنه أعطى «كل واحد على قدر طاقته». وظهر حكمه الســليم على رجاله يوم رجع ليحاســـبهم، فالذي أخذ الخمس الوزنات تاجر وربح خمس وزنات أخر، وصاحب الوزنتيـــن ربح أيـضاً وزنتيـــن، فكان ربح كل منهما مئة بالمئة.. ولا شك أن صاحب المال كان أكثر كرماً مع العبد الثالث، فقد منحه فرصة العمل وأعطاه وزنةً واحدة، مع أنه كان لا يستحقُّ، لأنه كان خاملاً كسولاً.

بـدأ المسيح المثل بالقول: «كأنما إنسان مسافر» لأن الله يترك المؤمنين يتصرَّفون وكأنه غائب، فقد أعطاهم حريــة الإرادة والحركة. وما أحكم القول: «الله هو الضيــف غيـــر المنظور على كل مائدة، والســامع الصامت لكل حديث». فهو يرانا ويســمعنا حتى إن كنا لا نراه بعيون أجســادنا، ولا نسمعه بآذاننا الطبيــعيـــة. وقد يُخيَّل لنا أحياناً أنه ائتمننا على أشياء كثيرة ثم تركنا ولم يعُد يراقبنا، أو أنه لن يــعود ليــحاســبنا. ولكن الحقيقة أنه الحاضر الذي يبدو غائباً لنفعل نحن ما نريد، ولكن لا بد أن يعود ليسألنا أن نعطي حساباً عمّا فعلنا.

أولاً - كلنا وكلاء

الأرض وما عليـــها وكل من عليها ملكٌ للرب، ولكنه وكّل البشر على كل شيء، وهذا امتياز هو في الوقت نفسه مسؤولية كبرى. استأمن الرب الأبوين على أولادهما، واستأمن المعلِّم على تلاميذه، واستأمن الطبيب على مرضاه، واســـتأمن الغني على غِناه، واستأمن الرئيس على مرؤوسيه. وسيأتي الوقت الذي فيه يطالبنا أن نقدِّم له الحساب.. وقد أراد الله أن يعلِّم هذا الدرس الهام لبني إسرائيل، فقال لهم: «الأرض لا تُباع بتَّةً، لأن لي الأرض، وأنتم غرباء ونزلاء عندي» (لاويـــين ٢٥: ٢٣)، وقال: «لي الفضة ولي الذهب، يقول رب الجنود» (حجي ٢: ٨)، وقال المرنم: «للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها، لأنه على البحار أسَّســـها، وعلى الأنهار ثبَّتها» (مزمور ٢٤: ١، ٢). ويقول الوكيل الحكيم: «إن عشنا فللرب نعيش، وإن مُتنا فللرب نموت. فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن» (رومية ١٤: ٨).

يملك الســـيد الوزنات كلها، وقد استأمن رجاله الثلاثة على استخدامها، ويمكنه أن يقول لكل منهم: «أيُّ شيء لك لم تأخذه؟» (١كورنثوس ٤: ٧).. ومع أنه كان يعلم أن العبد الثالث كسول ومتذمر، إلا أنه أعطاه وزنةً، فإن الله «يشرق شمســـه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥: ٤٥).

فكل الناس وكلاء السيد، وهو يحبهم جميعاً، ويعطيهم كلَّهم، ويمنحهم فرصة إثبات أمانتهم، وينتظر منهم أن يكونوا سامعين عاملين بالكلمة (يعقوب ١: ٢٢)، وأن يكون إيمانهم عاملاً بالمحبة (غلاطية ٥: ٦). ويقول الرسول بولس: «فليحسبنا الإنسان خُدَّام المسيح ووكلاء سرائر الله، ثم يُسأل في الوكلاء لكي يوجد الإنسان أميناً» (١كورنثوس ٤: ١، ٢). ولا يضع الله مسؤولية على أحدٍ تفوق قدراته، ولا يترك أحداً بدون امتياز ومسؤولية.

ومع أننا جميعاً متساوون في محبة الرب لنا، إلا أننا لسنا متساوين في نوعية الفُرص الممنوحة لنا، لأننا مختلفون في الإمكانيات ومتنوّعون في القدرات، فعند بعض الناس خمس وزنات، ولكن الله لا يحتقر صاحب الوزنة الواحدة، فقد أعطاه وسيطالبه بقدر ما أعطاه، ويقول لهم جميعاً: أنتم وكلائي.

وقد أعطانا الله مواهب طبيعية، فمنحنا الحياة والجسد وما يطعم الجسد ويكسوه، وأعطانا الماء والهواء، ومنحنا العمر والوقت، وفي كل صباح جديد يهبنا أربعاً وعشرين ساعة. وقد أكرمنا بأن وُلدنا في عائلات علَّمتنا الأخلاقيات الأساسية التي ربَّينا عليها منذ صغرنا، وأعطانا وطناً ونظاماً سياسياً يهتم بالتعليم والقضاء ويوفر لنا الأمن. كما أنه وهبنا نعمة العقل الذي يميّزنا عن سائر مخلوقاته، ومنحنا فُرص العمل «وهو يفعل خيراً: يعطينا من السماء أمطاراً وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبنا طعاماً وسروراً.. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد» (أعمال ١٤: ١٧ و١٧: ٢٨).

ومنحنا مواهب روحية فوق طبيعية، فإنه «لكل واحدٍ منّا أُعطيت النعمة حسب قياس هبة المسيح. لذلك يقول: إذ صعد إلى العلاء سبى سبياً وأعطى الناس عطايا» (أفسس ٤: ٧، ٨). «قاسماً (الروح القدس) لكل واحد بمفرده كما يشاء» (١كورنثوس ١٢: ١١). «ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا. أنبوّة فبالنسبة إلى الإيمان (والنبوّة هي إعلان الحقائق الروحية لبنيان الكنيسة وتوضيح الواجبات والأمور القادمة)، أم خدمة ففي الخدمة (وهي عمل الشمامسة الذين أشرفوا على إطعام المساكين). أم المعلم ففي التعليم (مثل التعليم في مدرسة الأحد، لإقناع العقول)، أم الواعظ ففي الوعظ (لتشجيع القلوب). المعطي فبسخاء. المدبِّر (مدير الأعمال) فباجتهاد» (رومية ١٢: ٦-٨).

ولا يهتم الله بكمية إنتاج وكلائه، بل بنيّتهم وأمانتهم ومشاعرهم من نحوه. وهذا ما يظهر من أن المدح الذي ناله مَن ربح الوزنتين هو نفس المدح الذي ناله مَن ربح الخمس وزنات، فقد قال لهما كليهما: «نِعمّا (اختصار: نِعْم ما فعلت، بمعنى: أحسنْتَ) أيها العبد الصالح والأمين. كنتَ أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك» (متى ٢٥: ٢١، ٢٣). لم يقل له «أيها العبد الصالح والمجتهد» ولا «الصالح الناجح» بل «الصالح والأمين»، فالأمانة هي أهم ما يبحث عنه السيد.

وقد يحتقر صاحب الوزنة الواحدة نفسه، لكن المسيح لم يحتقر الأشياء الصغيرة أبداً، حتى أنه قال: «من سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ، فالحق أقول لكم إنه لا يُضيعُ أجرَه» (متى ١٠: ٤٢)،

وأعلن أن ورثة الملكوت هم الذين أطعموا جائعاً وسقوا عطشاناً وآووا غريباً وكسوا عارياً وزاروا مريضاً أو سجيناً (متى ٢٥: ٣٤-٣٦). وعندما جلس المسيح تجاه صندوق العطاء يراقب المتبرِّعين، لم يهتم بكم أعطوا، ولكن بكيف أعطوا. ومدح أرملةً فقيرة تبرَّعت بفلسين رغم ضآلتهما، وقال إنها أعطت أكثر من جميع الذين أعطوا، لأن الجميع أعطوا مما فاض عنهم، أما هي فقدَّمت كل ما عندها، رغم ضآلته (مرقس ١٢: ٤١-٤٤).

ثانياً - العاملون

لكل عُملَة ووزنة وجهان، وجهٌ يحمل كلمة «امتياز» ويحمل الوجه الآخر كلمة «مسؤولية» ، فمع كل بركة يمنحها الرب لنا ينتظر أن نستخدمها لنموِّنا الروحي، ولخير عائلاتنا وكنائسنا ومجتمعنا، فإننا قد قبلنا من الله لأجل اسم المسيح «نعمة ورسالة» (رومية ١: ٥). فالنعمة تحمِّلنا مسؤولية إعلان الرسالة. ومن الغريب أن بعض الناس يطالبون بامتيازات صاحب الخمس وزنات، ولكنهم يريدون أن يتهرَّبوا من مسؤولياته.

١ - الدوافع على العمل:

ربح صاحب الخمس وزنات خمس وزنات أُخر، وربح صاحب الوزنتين وزنتين أخريين لأنهما كانا يدركان ماذا يريد صاحب المال، وكانا متأكِّدين أن ما يريده هو الصالح والمرْضِيُّ والكامل، ووجدت إرادته منهما الرضى والقبول، فأطاعاه. ولا بد أنهما كانا يحبان سيدهما ويريدان أن يُدخلا السعادة إلى قلبه. ثم أنهما كانا مجتهدين في عملهما، وفرحانَين بنجاحهما فيه لمصلحة صاحب العمل ولمصلحتهما، لأنهما سينالان رضاه ومجازاته.

وواضحٌ أن تسليم الإرادة لله هو أهم ما يُنجح خدمتنا له. قال القديس أغسطينوس: «إن عملت مشيئة الله كأنها مشيئتك، يفعل الله مشيئتك كأنها مشيئته» لأن الذي يستسلم لله يرغب في عمل ما يرضيه، ويحبه بكامل قلبه، ولا يريد أن يترك خدمته، فيصير عبداً مؤبَّداً يقول: «أحبُّ سيدي» (خروج ٢١: ٥)، فيجتهد في خدمته بكل سعادة، ويفرح قلبه كلما زاد الثمر. والمؤمن الذي يحب الرب يكون سعيداً بأن يصف نفسه بأنه «عبد الرب»، كما وُصِف إبراهيم (مزمور ١٠٥: ٦)، وموسى (مزمور ١٠٥: ٢٦)، وداود (مزمور ٧٨: ٧٠)، ودانيال (دانيال ٦: ٢٠)، وبولس (رومية ١: ١)، ويعقوب (يعقوب ١: ١)، وبطرس (٢بطرس ١: ١)، وتيموثاوس (فيلبي ١: ١). و«العبد يكرم سيده» (ملاخي ١: ٦).

٢ - مكافأة العاملين:

بعد زمان طويل جاء سيد أولئك العبيد ليحاسبهم. ومهما طالت مدة غياب السيد فلا بد أن يجيء ليجازي كل واحد كما يكون عمله.. وقد كافأ السيد عبديه الأمينين، فقال لكل منهما: «نِعِمَّا أيها العبد الصالح الأمين. كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. اُدخُل إلى فرح سيدك». وفي القول «نعمّا»

تكريمٌ لهما لأنهما أحسنا الصنيع. وفي القول «كنت أميناً» اعتراف بخدمتهما الحسنة الأمينة. وفي القول «أقيمك على الكثير» ترقية لكل منهما هي تحمُّل مسؤولية أكبر ومزيداً من التكليف. وفي القول «ادخل إلى فرح سيدك» بهجة لقلبيهما بالدخول إلى أفراح السيد، فيسمعان منه «لا أعود أسمّيكم عبيداً.. لكني سمّيتكم أحباء» (يوحنا ١٥: ١٥). «طوبى لأولئك العبيد.. إنه يتمنطق ويتكئهم ويتقدّم ويخدمهم» (لوقا ١٢: ٣٧). «من أجل ذلك هم أمام عرش الله ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله، والجالس على العرش يحل فوقهم. لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر، لأن الحمل الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع مياه حيَّة، ويمسح الله كل دمعة من عيونهم» (رؤيا ٧: ١٥-١٧).

ثالثاً - الخاملون

كنا نرجو أن يكون كل المؤمنين عاملين، ولكن هناك الخاملون.

١ - أسباب الخمول:

في كل عمل مخاطرة. ولم يكن صاحب الوزنة الواحدة راغباً في أن يخاطر لأنه لم يكن يملك شجاعة المحاولة، فوصفه سيده بأنه «العبد الشرير والكسلان». وقد وصف إمام الحكماء سليمان هذا العبد وأمثاله بالقول: «قال الكسلان: الأسد في الخارج، فأُقتَل في الشوارع» (أمثال ٢٢: ١٣). ولما كان الناس يُخفون كنوزهم بدفنها في الأرض، فقد حفر العبد الكسلان الأرض وأخفى فضة سيده. وربما فعل هذا لأنه قارن نفسه بالعبدين زميليه، وحسدهما لأنهما أخذا أكثر منه.. أو ربما قال في نفسه: لماذا أُتعِب نفسي بالاتّجار في وزنة واحدة، وسيدي لم يساوِ بيني وبين زميليَّ؟.. أو لعله لم يتوقَّع سرعة عودة سيده ليحاسبه..

ولكن السبب الأكبر لكسله هو أنه كان يحمل مشاعر سلبية من نحو سيده، فقال له: «يا سيد، عرفتُ أنك إنسان قاسٍ، تحصد حيث لم تزرع، وتجمع من حيث لم تبذر». ويوضِّح قوله هذا مشاعره الشريرة من نحو سيده الذي أعطاه الوزنة وجعله وكيلاً له، واستأمنه على العمل! وهو مثل الشعب الذي أنكر الجميل وقال: «ليست طريق الرب مستوية» (حزقيال ١٨: ٢٥). ولو أن مشاعر هذا العبد كانت صالحة من نحو سيده فتاجر وخسر لكان سيده أكثر سعادةً به. وهذا واضح من قول السيد له: «كان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة، فعند مجيئي كنت آخذ الذي لي مع ربا».. وكان الصيارفة وقتها يقومون بما تقوم به البنوك اليوم، وهو أقل ما كان يمكن أن يقوم العبد به، لأنه لا يحتاج إلى فكر ولا إلى مجهود. وكانت شريعة موسى توصي اليهودي أن يعطي الأجنبي سُلفة بفوائد، ولكنها كانت تُلزمه أن يُقرض أخاه اليهودي بغير فوائد (تثنية ٢٣: ١٩). وواضحٌ من هذه الوصية أن الشريعة اليهودية

تأمر اليهودي أن يرحم أخاه اليهودي فقط. ولكن المسيحية تنادي بأخويَّة جميع البشر، وقد علَّمنا المسيح أن الله أبٌ للبشر جميعاً، فنصلي: «يا أبانا الذي في السماوات» (متى ٦: ٩).. وقد منعت الشريعة اليهودية الربا والفوائد الفاحشة لأن المدين يكون عادةً أفقر من الدائن، لأنه يستدين ليسدّد احتياجاته، فهو يستحق المساعدة.. أما في وقتنا الحاضر فإن الذي يودع فضته في البنوك لتستثمرها له هو الضعيف، لأنه عاجز عن استثمارها بنفسه، فيستفيد المودع، والبنك، ومن يقترض من البنك. والمديون في زمننا (البنك) هو القوي، والدائن (المودع) هو المحتاج. فلا ظلم ولا ضرر أن يدفع البنك فوائد للدائن المحتاج.. وعلى هذا فإننا نفهم قول السيد بالصورة التالية: «كان ينبغي أن تضع فضتي عند البنوك (الصيارفة). فعند مجيئي كنت آخذ الذي لي مع الفوائد (ربا)» (متى ٢٥: ٢٧)، لأن الصيارفة يستثمرون المال، ويشاركون المودع في الفوائد. وليس في المنفعة المتبادلة خطأ، فالاستثمار واجب، ولكن الاستغلال والفائدة المجحفة مرفوضان.

٢ - عقوبة الخمول:

حلَّت بالكسلان ثلاث عقوبات قاسية:

(أ) «**خذوا منه الوزنة**»: أعطاه سيده فرصة العمل والربح فلم ينتهزها، ففقدها «لأن كل من له يُعطَى فيزداد» وكل من لا يستفيد مما حصل عليه يخسره، وكل من لا يتقدَّم يتأخَّر. أما «من ليس له فالذي عنده يُؤخذ منه» فإن من لا يستفيد مما منحه الرب له، يضيِّعه. «شهوة الكسلان تقتله لأن يديه تأبيان الشغل» (أمثال ٢١: ٢٥).. «يد المجتهدين تسود، أما الرخوة فتكون تحت الجزية» (أمثال ١٢: ٢٤).

(ب) «**اطرحوه إلى الظلمة الخارجية**»: قال لكل من العبدين الأمينين «ادخل» ولكنه قال عن الكسلان «اطرحوه». والصورة هنا تُظهِر بيتاً فيه احتفال ليلي، وهو عامر بالأفراح والأنوار، يُطرد منه شخصٌ إلى الظلام والوحدة والصقيع.. وأكبر عقوبة تحل بالخائن الكسلان هي حرمانه من محضر الله.

(ج) «**البكاء وصرير الأسنان**»: والذي يبكي ويُصرُّ بأسنانه هو النادم الغاضب الحزين اليائس على الفرصة الضائعة التي لا يمكن أن تعود، حيث لا ينفع بكاء ولا ندم.

لقد أعطاك الرب مواهب كثيرة، فماذا فعلتَ بها؟ كأنما هو مسافر، لكنه لا بدَّ سيعود ويطالبك أن تقدِّم حساباً عما فعلت. فليعطنا الله أن نسمع منه: «نِعمّا».

سؤالان

١ - اشرح معنى قول المسيح: «كأنما إنسانٌ مسافر».

٢ - ما هي البركات التي منحها السيد للعبدين الأمينين؟

أمثال المسيح

الجزء الثالث

مسؤوليات أبناء ملكوت الله

١ - ضرورة العمل

(أ) العمل واجب	- مثل العبد العامل	لوقا ١٧: ١-١٠
(ب) الجميع يعملون	- مثل السامري الصالح	لوقا ١٠: ٢٥-٣٧
(ج) الأبناء يعملون	- مثل الابنين	متى ٢١: ٢٨-٣٢
(د) العاملون يعملون	- مثل الكرامين	متى ٢١: ٣٣-٤١

(أ) العمل واجب

مثل العبد العامل

وَقَالَ لتلاميذِهِ: لا يُمْكِنُ إلا أنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لِلَّذِي تَأْتِي بِوَاسِطَتِهِ! خَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحىً وَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ مِنْ أنْ يُعْثِرَ أحَدَ هَؤُلاءِ الصِّغَارِ. إحْتَرِزُوا لأنْفُسِكُمْ. وَإنْ أخْطَأ إلَيْكَ أخُوكَ فَوَبِّخْهُ. وَإنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ. وَإنْ أخْطَأ إلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَرَجَعَ إلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ قَائِلاً: أنَا تَائِبٌ فَاغْفِرْ لَهُ. فَقَالَ الرُّسُلُ لِلرَّبِّ: زِدْ إيمَانَنَا. فَقَالَ الرَّبُّ: لَوْ كَانَ لَكُمْ إيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهَذِهِ الْجُمَّيْزَةِ انْقَلِعِي وَانْغَرِسِي فِي الْبَحْرِ، فَتُطِيعُكُمْ.

وَمَنْ مِنْكُمْ لَهُ عَبْدٌ يَحْرُثُ أوْ يَرْعَى يَقُولُ لَهُ إذَا دَخَلَ مِنَ الْحَقْلِ: تَقَدَّمْ سَرِيعاً وَاتَّكِئْ. بَلْ ألا يَقُولُ لَهُ: أعْدِدْ مَا أتَعَشَّى بِهِ، وَتَمَنْطَقْ وَاخْدِمْنِي حَتَّى آكُلَ وَأشْرَبَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ أنْتَ. فَهَلْ لِذَلِكَ الْعَبْدِ فَضْلٌ لأنَّهُ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ؟ لا أظُنُّ. كَذَلِكَ أنْتُمْ أيْضاً مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إنَّنَا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ، لأنَّنَا إنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا (لوقا ١٧: ١-١٠).

مناسبة رواية المثل:

حدَّث المسيح تلاميذه عن موضوعين أساسيين:

١ - **أولهما التحذير من تعثير الآخرين**، والعثرة تعني «خطّاف الطُّعم في الفخ» وهي أيضاً العقبات والأحجار التي تعترض طريق التقدُّم الروحي للإنسان، فيعثر ويسقط بسببها. وواضحٌ أننا نحيا في عالم شرير يعيش فيه بشر ميّالون دائماً إلى السقوط، يعرِّضون تلاميذ المسيح للتعثُّر والسقوط. كما أن تلاميذ المسيح أنفسهم يخطئون أحياناً ويعثِّرون غيرهم، فيرفض غيرهم أن يتبعوا المسيح بحُجَّة أن أتباعه يعثرون ويسقطون مثل غيرهم من الخطاة.

وقد شرح المسيح عقوبة من يعثِّر غيره، وقال إنها أشد هولاً من تعليق حجر طاحون كبير في عنق شخص وإلقائه في بحر. ثم حذَّر تلاميذه بالقول: «احترزوا لأنفسكم» (آية ٣).

٢ - **أما الثاني فهو ضرورة الغفران لإخوتنا الذين يسيئون إلينا**، وعندما يخطئون نوبِّخهم، فإن احتملوا التوبيخ واعتذروا نغفر لهم. ويؤكد المسيح أننا يجب أن نغفر لهم دائماً، حتى إن أساءوا إلينا سبع مرات في اليوم، واعتذروا سبع مرات في اليوم! وواضح أن هذا لا يعني عدم غفران الخطأ الثامن، لأن المسيح علَّم أن الغفران يكون حتى إلى سبعين مرة سبع مرات (متى ١٨: ٢١، ٢٢).

ورأى التلاميذ صعوبة ما طلبه المسيح منهم، وأنه يحتاج إلى إيمان كبير، فقالوا له: «زِدْ إيماننا» (لوقا ١٧: ٥)، فأجابهم إن من له إيماناً بمقدار حبة خردل يقدر أن يقتلع شجرة ضخمة ويلقيها في البحر، مشبِّهاً الكراهية حين تتأصل في القلب بشجرة ضخمة ممتدَّة الجذور. ولكن أقل إيمان بقدرة الرب ومعونته يقدر أن يقتلعها ويلقيها في بحر الغفران والنسيان. وليس السر في حجم الإيمان، بل في موضوعه، وهو قدرة الرب، كما أن السر أيضاً في أصالة الإيمان وصدقه في قلب صاحبه.

وقد ضرب المسيح لتلاميذه ولنا مثل «العبد العامل» الذي صار لنا درساً في الطاعة والتواضع لننال رضى الرب ملكنا وسيدنا، لأننا متى فعلنا كل ما أمرنا به (ولن نقدر أن نفعل)، فلنقل إننا عبيد بطالون غير منتجين، لأننا في أحسن حالاتنا نكون قد عملنا ما كان يجب علينا.

أولاً - أنت عبد للرب

١ - شرف العبودية لله:

يتشرَّف المؤمنون الحقيقيون بأن يكونوا عبيداً للرب. قال النبي داود للرب: «أنا عبدك ابن أمتك» (مزمور ١١٦: ١٦)، ويقول الوحي المقدس إن موسى كليم الله «عبد الرب» (تثنية ٣٤: ٥ و١أخبار ٦: ٤٩)، وهكذا وُصف يشوع (يشوع ٢٤: ٢٩)، والنبي إيليا (١ملوك ١٨: ٣٦)، ودانيال (دانيال ٦: ٢٠)، والرسول بولس (رومية ١:١)، والرسول بطرس (٢بطرس ١:١)، والرسول يعقوب (يعقوب ١:١). وقد وصفت العذراء مريم نفسها بهذا اللقب عندما قالت للملاك: «هوذا أنا أمة الرب» (لوقا ١: ٣٨). وكل الذين يحرِّرهم المسيح من خطاياهم يصبحون عبيداً للمسيح لأنه اشتراهم لله بدمه من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة (رؤيا ٥: ٩).

وكل مؤمن يستعبد نفسه للرب بكامل رغبته، ويقول له: «أنا محتاج إلى ربوبيَّتك، ولكنك لست محتاجاً إلى عبوديتي». وما أسعد من يقول: كنتُ عبداً للخطايا التي سلكت فيها، عاملاً مشيئات جسدي وأفكاري، وكنت ابناً للغضب. لكن الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبني بها، وأنا ميت بالخطايا، افتداني واشتراني وجعلني ملكاً له. فسأقوم بخدمة سيدي الجديد، لأنه خلقني في المسيح لأعمالٍ صالحة، قد سبق فأعدَّها لكي أسلك فيها (أفسس ٢: ١-١٠).

في هذا المثَل قال المسيح إن ذلك السيد كان له عبد واحد فقط يعمل خارج البيت، وسيده ينتظر منه أن يعمل داخل البيت أيضاً. وهو بهذا يعرِّفنا أن هناك خدمةً مطلوبة من كل مؤمن يحب الرب، يجب أن يقوم بها، وكأنه الإنسان الوحيد المتوافرعلى الأرض للقيام بهذه الخدمة. فياله من شرف للمؤمن!

عندما يكلفك المسيح بخدمة ستتشرَّف بالقيام بها، لأنك تعرف أن هذا التكليف موجَّه لك شخصياً، فلا مجال للتراخي والكسل بحُجَّة أن غيرك يمكن أن يؤديها. وما أعظم الشرف الذي تناله لأن الله اختارك أنت لتؤدي خدمةً خاصةً له.

٢ - سبب العبودية لله:

أنت مِلكٌ للملك الوحيد، لأسباب كثيرة نذكر منها:

(أ) **لأنه خلقك:** فقد «جبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية» (تكوين ٢: ٧). إنه الخالق الماهر الذي صنع الإنسان وأبدعه على صورته، فالإنسان على صورة الرحمان. والخالق يملك ما خلق. «للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها» (مزمور ٢٤: ١).

(ب) **لأنه فداك:** عصى آدم ربه، واختبأ منه لأنه وجد نفســه عارياً، ولكن الرب في محبته لم يتركه في عريه وخجله وهروبه، بل جاءه وفداه وستره. وهذا ما فعله المسيح الفادي ويقدمه لكل من يؤمن به. «عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفني، بفضة أو ذهب، من ســيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء، بل بدم كريم، كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح، معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أُظهر في الأزمنة الأخيرة من أجلكم» (ابطرس ١: ١٨-٢٠). «أم لســتم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم، الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله» (اكورنثوس ٦: ١٩، ٢٠).

ويمكن أن نشرح الفداء بصورتين:

* صورة مديون عجز عن سداد دينه، فباعه المداين واشتراه السيِّد، فصار ملكاً لسيده.

* صورة أسير حرب، دفع شخصٌ كريم فدية لإطلاقه حراً، فأصبح ملكاً لمن فكَّ أسره.

وفي الحالتين اختار المديون أو الأسير بمحض إرادته أن يستمر عبداً للسيد الذي افتداه. وحتى عندما تُعرض عليــه الحريـــة يقول: «أحب ســيدي. لا أخرج حُراً» (خروج ٢١: ٥)، لأنه يرى أن الحرية الحقيقية هي في العبودية للسيد الكريم الذي اشترى وفدى وحرَّر!

(ج) **لأنه يــعتني بك:** خلقك فأنت له، واشتراك بفدائه، وهو يعتني بك دائماً، فأنت به تحيا وتتحرك وتوجد (أعمال ١٧: ٢٨). لقد أعطاك الجســد ويمنحك كل ما يحفظ هذا الجســد من طعام تأكله، وماء تشربه، وهواء تتنفسه، وكساء يسترك. وينصحنا المسيح: «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟.. ولماذا تهتمون باللباس؟ تأملوا زنابق الحقل كيــف تنمو. لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا ســليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها!» (متى ٦: ٢٥، ٢٨، ٢٩).

ويقول الرســول بولس لكل إنســـان: «أيُّ شيء لك لم تأخذه؟» (اكورنثوس ٤: ٧)، فكل ما عندنا عطية كريمة من الله. وعندما يأمرك: «تمنطق واخدمني» لا يظلمك، ولا يطلب منك ما لا يحقّ له، ولا يكلفك بما لا طاقة لك به، فإن منه جميع ما عندك، ومن فضله تخدمه. وعندما يأمرك: «أعدد ما أتعشى به.. حتى آكل وأشرب» تعرف أنه ينتظر أن يتناول من يدك ما يشبع نفسه ويسر قلبه.

٣ - أولوية الخدمة لله:

يضع العبد الصالح ربّه أولاً، ويضع نفســه أخيراً. فسيده يأكل أولاً «وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت». الرب أولاً، وخدمته قبل كل شيء، وسعيد هو الذي يطلب أولاً ملكوت الله وبره، فيُزيده الله من كل شيء، كما فعلت أرملة صرفة، وأطاعت طلبة إيليا: «اعملي لي منها كعكة صغيرة أولاً، واخرجي بها إليَّ، ثم اعملي لك ولابنك أخيراً» (املوك ١٧: ١٣). ولما أطاعت لم يفرغ كوّار الدقيق ولم ينقص كوز الزيت (املوك ١٧: ١٦).

لا تتقاعس ولا تؤجل خدمة الرب. وكعبدٍ عامل عنده في الحقل والبيت قُل له قولة يشوع: «بماذا يكلم ســيدي عبده؟» (يشوع ٥: ١٤)، وقولة بولس: «يا رب، ماذا تريد أن أفعل؟» (أعمال ٩: ٦)، لأنه رسم

لحياتك خطة وهدفاً، وعيَّن لك موقعاً محدداً، ومنحك مواهب ومعرفة لتأدية هذا التكليف على خير وجه.

فماذا يحدث عندما يقصِّر العبد في القيام بواجبه؟

يكلف السـيد عبداً آخر ليؤدي العمل، فيخسـر المتقاعس أجره، ويحرم نفسه من بركة الخدمة، بل ويعرِّض نفسه للعقاب.

وقد أعطانا المسـيح النموذج الذي نتبعه في التواضع والخدمة عندما غسـل أرجل تلاميذه، وقال: «فـإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض، لأني أعـطيتكم مثالاً، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً. الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله. إن علمتم هذا فطوباكم إن عملتموه» (يوحنا ١٣: ١٤-١٦).

ثانياً - خدمة الملكوت مكلِّفة

١- تتطلَّب الخدمة تكريساً:

محبة الله لنا عظيمة، وقد كلَّفته الكثير «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يـؤمن به بل تكون له الحيـاة الأبديـة» (يـوحنا ٣: ١٦). ومحبتنا لله وعبوديتنا له تطالباننا بالتكريس الكامل، طاعة للأمر الإلهي: «فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدموا أجسـادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية» (رومية ١٢: ١) فنقول: «إن عشنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت. فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن» (رومية ١٤: ٨). ولا يمكن أن نخدم الله ونخدم سـيداً آخر معه، فالخدمة دائماً لسيد واحد، فلا نعرج بين فرقتين.

٢ - تتطلَّب الخدمة استمراراً:

يعمل العبد في الليل والنهار، كما قال أيوب: «بخطواته استمسـكت رِجْلي. حفظتُ طريقه ولم أَحِد» (أيوب ٢٣: ١١)، وكما قال الرسـول بولس لقسوس كنيسة أفسس: «أنتم تعلمون من أول يوم دخلت أسيا كيف كنت معكم كل الزمان أخدم الرب بكل تواضع ودموع كثيرة، وبتجارب أصابتني بمكايد اليهود، كيف لم أؤخر شيئاً من الفوائد إلا وأخبرتكم وعلَّمتكم به جهراً وفي كل بيت.. لسـت أحتسب لشيء، ولا نفسي ثمينـة عندي، حتى أتمم بفرح سـعيي والخدمة التي أخذتها من الرب يسـوع، لأشهد ببشارة نعمة الله.. احترزوا إذاً لأنفسـكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه.. لذلك اسـهروا متذكرين أني ثلاث سنين ليلاً ونهاراً لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد» (أعمال ٢٠: ١٨-٢٠، ٢٤، ٢٨، ٣١). «لـذلك نحن أيضاً إذ لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا، لنطرح كل ثقل والخطية المحيطة بنا بسهولة، ولنحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا» (عبرانيين ١٢: ١).

٣ - تتطلَّب الخدمة إنكار ذات:

ولنا في يوحنا المعمدان مثلاً عظيماً في إنكار الذات، لأنه عندما سـمع من تلاميذه أن المسيح يعمد، قال: «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يوحنا ٣: ٣٠).

العبد الصالح هو الذي يؤجل راحته ليريح سـيده. قال المسيح لأحدهم: «اتبعني. فقال: يا سيد ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي». فقال لـه: «دع الموتى يـدفنون موتاهم، وأما أنت فاذهب ونادِ بملكوت الله» وقال لآخر: «ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (لوقا ٩: ٥٧-٦٢). وهذا ما فعله الرسـول بولس فحقّ له أن يقول: «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسـدنا. لأننا نحن الأحياء نُسلَّم دائماً للموت من أجل يسوع، لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المـائت.. لأن خفّة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً، ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل إلى التي لا ترى. لأن التي ترى وقتية، وأما التي لا ترى فأبدية» (٢كورنثوس ٤: ١٠-١١، ١٧، ١٨).

٤ - تتطلب الخدمة اتساع رؤية:

يطالبنا المسـيح أن نعمل في بيته وفي حقله. أما بيته فهو الكنيسة، وأما حقله فهو العالم، لأن له فيه خرافاً أُخر يجب أن يُؤتى بها لتكون رعية واحدة لراعٍ واحد (يوحنا ١٠: ١٦).

في الكنيسـة نجتهد أن نحافظ على الوحدة والسـلام «لأننا أعضاء جسمه، من لحمه ومن عظامه» (أفسـس ٥: ٣٠)، اسـتجابةً لطلبة المسـيح: «أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني، لـيكونوا واحداً كما نحن.. ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك. ليكونوا هم أيضاً واحـداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يوحنا ١٧: ١١، ٢١). «والمباحثات الغبية والسخيفة اجتنبها عـالماً أنها تولّد خصومات، وعبد الرب لا يجب أن يخاصم، بل يكون مترفّقاً بالجميع، صالحاً للتعليم، صبوراً على المشقات» (٢تيموثاوس ٢: ٢٣، ٢٤).

وفي الكنيسـة يجب أن نكون قدوة حسنة لسائر العبيد عملاً بالوصية الرسولية: «كُن قدوة للمؤمنين في الكلام، في التصرف، في المحبة، في الروح، في الإيمان، في الطهارة» (١تيموثاوس ٤: ١٢).

أما في العالم فدورنا هو الكرازة، طاعة للوصية: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابـن والروح القدس. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (متى ٢٨: ١٩، ٢٠). وعند طاعة هذه الوصيـة تقدر أن تقول: «قد جاهدت الجهاد الحسـن. أكملت السعي. حفظت الإيمان. وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل. وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً» (٢تيموثاوس٤: ٧، ٨).

ثالثاً - خدمة الملكوت واجب

بعد أن روى المسـيح مثل العبد العامل في الحقل والبيت، قال: «متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا إننا عبيد بطالون، لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا» (آية١٠).

١ - الخدمة واجب العبد المتواضع:

لـيس للعبد فضل في خدمة سيده، فمتى تمّ كل المطلوب منه يعترف أنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه الشكر،

لأنه إنما قام فقط بالواجب عليه. فلا فضل للإنســـان في أية خدمة يؤديها لله، لأن الله مصدر كل خير عند الإنسان. خدم العبد سيده بقدر طاقته ومعرفته، وقال: «عملنا ما كان يجب علينا»، لأنه تعلَّم من قول المسيح للآب السماوي: «أنا مجدتُك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه» (يوحنا ١٧: ٤).

عندما يتبرع محســنٌ غني ببناء مســتشفى لا يعود الفضل في البناء للعمال الذين قاموا بالبناء، بل يــعود كله للمتبرع، ويكتفي العمال بالقول: «إننا إنما عملنا ما كان يجب علينا». والمســيح يحذرنا من الفخر، ويعلمنا التواضع، وهذا حال الإنســان الذي ســما في حياته الروحية وتقدم في الإيمان، وهو ما اختبره الرســـول بولس الذي قال في بدء حياته الإيمانية إنه أصغر الرسل (١كورنثوس ١٥: ٩) و«لم أنقص شيئا عن ســائر الرســل» (٢كورنثوس ١٢: ١١)، ثم ارتقى فقال إنه «أصغر جميع القديسين» (أفســس ٣: ٨)، ثم ارتقى أكثر فقال: «الخطاة الذيــن أولهم أنا» (١تيموثاوس ١: ١٥). لقد تدرج في التواضع، وهكذا يجب أن نفعل نحن، كما قال القديس فرنسيس الأسيسي عندما سُئل عن رأيه في نفسه، فقال: «أنا أكبر خاطئ في العالم، وأنا أخدم الله أقل من أي شخص آخر في العالم».

٢ - للخدمة مجازاة عظيمة:

«طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء ســيدهم يجدهم ساهرين. الحق أقول لكم: إنه يتمنطق ويتكئهم، ويتقدم ويخدمهم» (لوقا ١٢: ٣٧). ما أعظم ســعادة من يقوم بعمله كاملاً! إن الســيد يتمنطق ويتكئهم، ويــتقدم ويــخدمهم، وهو أمر غير مألوف، ولا يخطر على بال العبد، لكنه من أمجد مواعيد المســيح للمؤمنين، فهو يعني أنه يمنح العبد الســاهر العامل الأمين أســمى شرف ومجد، كما قال المرنم للرب: «ترتِّب قدامي مائدة تجاه مضايقيَّ. مسحت بالدهن رأسي. كأسي ريا» (مزمور ٢٣: ٥). إن رب البيت يخدم ضيوفه، فتكتمل سعادتهم لأن سيدهم يخدمهم!

هذا المثل يــشجعنا أن نخدم الرب بكل قوتنا، وفي كل وقت، عالمين أن جزاءنا العظيم آتٍ من يدي ســيـــدنا المبارك الأمين في مواعيده، والذي لا يمكن أن يكون مديوناً لأحد، فقد قال: «من وجد حياته يــضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها.. من يقبل نبياً باســم نبي فأجر نبي يأخذ، ومن يقبل باراً باسم بار فأجر بار يأخذ. ومن سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد باسم تلميذ فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره» (متى ١٠: ٣٩، ٤١، ٤٢).

سؤالان

١ - لماذا يدعو المؤمن الرب سيده، ويدعو نفسه عبده؟

٢ اذكر ثلاثة أمور تتطلبها خدمتنا لله.

(ب) الجميع يعملون

مثل السامري الصالح

وَإِذَا نَامُوسِيٌّ قَامَ يُجَرِّبُهُ قَائِلاً: يَا مُعَلِّمُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟ فَقَالَ لَهُ: مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ؟ كَيْفَ تَقْرَأُ؟ فَأَجَابَ: تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ. فَقَالَ لَهُ: بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. اِفْعَلْ هَذَا فَتَحْيَا.

وَأَمَّا هُوَ فَإِذْ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّرَ نَفْسَهُ سَأَلَ يَسُوعَ: وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟.

فَأَجَابَ يَسُوعُ: إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا، فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ. فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِناً نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. وَكَذَلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضاً إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. وَلَكِنَّ سَامِرِيّاً مُسَافِراً جَاءَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ، فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتاً وَخَمْراً، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ، وَاعْتَنَى بِهِ. وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ وَقَالَ لَهُ: اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ. فَأَيُّ هَؤُلاَءِ الثَّلاَثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيباً لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللُّصُوصِ؟ فَقَالَ: الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: اذْهَبْ أَنْتَ أَيْضاً وَاصْنَعْ هَكَذَا (لوقا ١٠: ٢٥-٣٧).

مناسبة رواية المثَل:

روى المسيح هذا المثَل عندما سأله أحد معلمي الناموس: «ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟». وقد جاوب المسيح عليه بالرغم من أن السؤال خاطئ موضوعاً، لأن الأجير لا يرث نتيجة عمله، بل لأنه ابن صاحب البيت، الذي وُلد في البيت.

ولم يكن من حق معلم الناموس أن يوجّه هذا السؤال للمسيح، بل كان واجباً عليه أن يعرف إجابته من دراساته، فهو لم يكن «كاتباً» ينسخ الكتب المقدسة، بل كان «ناموسياً» حصل على درجة عالية من العلوم الدينية أهّلته لأن يشرح الشريعة للناس.

ولم يكن معلِّم الناموس مخلصاً في سؤاله، فقد أظهر التواضع مع أن الكبرياء كانت دافعه. ولم يكن هدفه أن يعرف، بل أن يجرّب المسيح كما جرّبه إبليس في البرية (لوقا ٤: ٢). لذلك أجاب المسيح سؤاله بسؤال: «ما هو مكتوب في الناموس؟ كيف تقرأ؟». فأجاب أن المكتوب يوصي بمحبة الرب ومحبة القريب، وهي كتابة منسوجة على صُدرة ثوب كل معلم للناموس، ونصفها الأول مُقتبس من التثنية ٦: ٥ «تحب الربَّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قوتك» ونصفها الثاني من لاويين ١٩: ١٨ «تحبُّ قريبك كنفسك». وواضحٌ أن محبة الإنسان لله تجعله يحب الناس الذين خلقهم الله على صورته.

كان الناموسي يعرف ولكنه لا يعمل بما يعرف، فأراد أن يبرِّر نفسه، وعاد يسأل: «ومن هو قريبي؟». ولعله قصد بسؤاله هذا أن يوجِّه للمسيح امتحاناً آخر، لأن شريعة موسى نادت أن القريب هو اليهودي،

ولكن المســـيح كان يعلّم أن القريب ليس فقط ابن شعبي، ولا قريبي قرابة الدم أو الدين، بل هو كل من يحتاج إلى المســـاعدة، مهما كانت عقيدته ولونه وخلفيته. ومع أن الناموسي طلب تعريفاً عقائدياً، إلا أن إجابة المسيح قدّمت حالةً واقعيّة، تحوّل الناموسي من عالم النظريات والعقائد إلى عالم التطبيق والعمل، فروى المسيح حادثة وقعت على الطريق العام، نسميها اليوم «مثَل السامري الصالح» تطالبنا بأن نمدّ يد العون للمحتاج، وتعلّمنا أن نساعد الجميع بمن فيهم المختلفين عنا في العقيدة والجنسية.

في مثَل «الســـامري الصالح» وضّح لنا المسيح عمق واتساع محبته للإنسان، كل إنسان. واستخدم ســـؤال الناموســـي الموجَّه بنيَّة ملتوية ليجعله بركة لكل من يتبع المسيح ويطيع تعليمه، فتتحقّق السعادة للبشر الذين أحبهم. لقد تجسّـد هو وصُلب ومات وقام كي يعيش أتباعه لا لأنفســـهم، بل له، ولكل من يحتاج إلى معونتهم، دون تمييز بين جنس أو عقيدة أو لون أو مال أو علم.

بدأ المسيح المثَل بكلمة «إنسان» لأن قلبه دائماً مشغول بالإنسان. لقد جاء إلى العالم في صورة إنسان، ودعـا نفسه «ابن الإنسان» ليفتدي بني الإنسان، وقال: «ابن الإنسان لم يأت ليُخدَم بل ليخدِم، وليبذل نفسه فديةً عن كثيرين» (مرقس ١٠: ٤٥). ولم يحدد المســـيح هوية هذا الإنسان ليوضّح لنا من بداية المثَل أنه «ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المســـيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة» (غلاطية ٣: ٢٨، ٢٩).. الكل خليقة الله، وأبناء آدم، وأصحاب كرامة وســـلطة على ســـائر المخلوقات. وبعد أن روى المسيح المثَل سأل الناموسي عمَّن يكون قريب ذلك الإنســـان الجريح، فأجاب: «الذي صنع معه الرحمة» متفادياً ذكر أنه «سامري» «لأن اليهود لا يعاملون الســـامريين» (يوحنا ٤: ٩). وبهذه الإجابة الغامضة أكّد الناموســـي دون أن يدري أنه أيضاً إنسان جريح في معتقداته، ولكن المسيح الرحيم تحنن عليه وعلّمه درساً عظيماً في الرحمة.

في هذا المثَل نجد أربعة أنواع من الناس: الذين ســـلبهم الآخرون، والذين يسلبون الآخرين، والذين يحافظون على مالهم، والذين يساعدون غيرهم.

أولاً - الذين سلبهم الآخرون

روى المسيح عن الجريح الذي اعتدى اللصوص على ماله وثيابه عندما «عرّوه»، وهاجموا شخصه وصحته عندما «جرحوه» غيـر مكترثيـن بحياته ونفســه، و«مضوا وتركوه بين حي وميت» فأصبح عاجزاً عن مساعدة نفسه.

قد نلوم هذا الجريح لأنه سافر وحيداً في طريق خطرة ينتشر فيها قطاع الطريق، بينما كانت الحكمة تقتضي أن يســـافر بصحبة آخرين حتى يكون بمأمن أفضل. فكان عدم حرصه ســـبباً في جلب الأذى والضرر على نفسه.

وفـي عالمنا كثيرون يشبهون هذا الجريح. إنهم، بسبب خطئهم أو خطإ الغير، وقعوا ضحية ظروف أعجزتهم عن الوقوف على أقدامهم، فلم يـعودوا يـملكون إلا البكاء وطلب العون، منتظرين يداً رحيمة

تمتد إليهم لتنتشلهم وتقيمهم وتسندهم. من هؤلاء نزلاء السجون الذين أعمى الشر عقولهم فاقترفوا الجرائم، وهم يحتاجون إلى من يحمل إليهم رسالة محبة المسيح وخلاصه ليبدأوا معه حياة جديدة. ومنهم من يقتلهم الشعور بالذنب بسبب خطاياهم، فلا يغفرون لأنفسهم ولا يطلبون الغفران الإلهي، وهم يحتاجون إلى من يفتش عليهم ويفتقدهم بمحبة وعطف ويقودهم إلى من هو الطريق والحق والحياة، الذي «يريد أن جميع الناس يَخلصون وإلى معرفة الحق يُقبلون» (١تيموثاوس ٢: ٤).

وهناك كثيرون فقدوا أساسيات الحياة لأسباب خارجة عن إرادتهم، كاليتامى والمهجّرين واللاجئين والمشردين وضحايا الحروب والكوارث الطبيعية، الذين ضاعت البسمة من على شفاههم، وقد حُرموا من دفء العائلة وحنوها. وهناك كبار السن الذين يعانون من هجر أبنائهم وجحودهم بعد أن أفنوا العمر في تربيتهم، وهم يتلهفون لرنين الهاتف أو طرقات الباب، منتظرين المواساة والعون والدواء.

وهناك آلاف الفقراء الذين يموتون جوعاً في كثير من أرجاء العالم، بينما يعاني آخرون من التخمة وينفقون الأموال للتخلص من أوزانهم الزائدة!

إن البشر في حاجة لمن يعطف عليهم ويمد إليهم يد المحبة، ويحسن إلى المسيء ويشجع الضعيف، ويقيم المنحني، ويكون مستعداً بروح الخدمة أن يساعد الكسير ويجبره، ولا يحتقر ضعفات إخوته، وينظر إليهم كما فعل السامري الصالح، ويصلّون: «قلباً نقياً اخلق فيَّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدد في داخلي.. فأعلِّم الأثمة طرقك، والخطاة إليك يرجعون» (مزمور ٥١: ١٠، ١٣).

ثانياً - الذين يسلبون الآخرين

ويقدم لنا مثل «السامري الصالح» اللصوص الذين عرّوا المسافر وجرحوه وتركوه بين حي وميت. وشعارهم: «سأسلب مالك بالعنف والقوة». وهم يكسرون الوصية الثامنة: «لا تسرق» (خروج ٢٠: ١٥).

وقد يسرق شخص لأنه محتاج، ولكن هناك لصوصاً يسرقون رغم عدم احتياجهم، فلم يكن الملك أخآب محتاجاً لبستان نابوت اليزرعيلي (١ملوك ٢١)، لكنه قتل نابوت وأخذ بستانه بدافع الاشتهاء والطمع، فكسر وصية: «لا تشتهِ بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك» (خروج ٢٠: ١٧).

وقد يسلب شخص لأنه يحب المال الذي محبته أصل لكل الشرور، فإذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة (١تيموثاوس ٦: ١٠).

وكثيراً ما تكون السرقة معنوية، كأن يسلب أحدهم سمعة غيره بالمذمّة، ويلطخها بافتراءات كاذبة وإشاعات مغرضة، فيهدم صورتهم النظيفة ليحصل على ما يتمتع به هؤلاء من مركز أو وظيفة أو قيادة أو محبة واحترام. وقد تكون السرقة أدبية، فيضع الإنسان اسمه على إنتاج قريحة غيره!

وما أكثر اللصوص الذين يأخذون الرشوة، ويظلمون الفقير، ولا يؤدون واجباتهم من نحو عائلاتهم أو جيرانهم!

وهناك مرض اسـمه «مرض السـرقة» ينشأ عن الحرمان أو الفقر أو القهر أو الغيرة، ويبدأ من الطفولة في مجتمع الأسـرة الصغيـر، ثم يمتد إلى المجتمع الكبير. فليجتهد الآباء أن يكونوا لطفاء مع أولادهـم، يعلمونهم بالقدوة والنصيحة مخافة الرب ووداعة الإيمان والشكر في كل حال، دون تفريق أو تمييز بينهم.

ثالثاً - الذين يحافظون على مالهم

«فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريـق، فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاوي أيـضاً، إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله» (لوقا ١٠: ٣١، ٣٢). والكاهن هو رجل الدين المتخصص في تفسـير الـشريعة، وتقديم الذبائح طلباً للغفران لنفسه وللشعب، كما كانت مهمته العناية بأواني الهيكل وأثاثه. أما الـلاوي فكانت مكانته الدينية أقل من الكاهن ولو أنه أعلى من الشعب، لأنه كان أقرب إلى تابوت العهد من سائر الشعب، ولكن ليس له الحق في تقديم الذبائح.

والكاهن واللاوي نموذجان لمن لا يسـاعدون إلا أنفسهم، وشعارهم «دعني أحافظ على مالي». لقد فات الكاهن واللاوي أن يطبّقا مبادئ الدين في الحياة اليومية، ولعلهما لم يدركا أن جسد الإنسان الجريح هيكلٌ للروح القدس، ونسـيا أن وصية المحبة هي تكميل الشريعة. على أن اللاوي اقترب من الجريح أكثر مما اقترب الكاهن، فقد جاء ونظر، ولكنه حذا حذو الكاهن، وجاز مقابل الجريح.

وربما تعلَّل رجلا الدين بأعذار لعدم مسـاعدة الجريح، وكأنهما يتسـاءلان: ماذا يحدث لي لو أني ساعدته؟ وأذكر ثلاثة أعذار:

١- قد يموت الجريح أثناء تقديم العون له،

فيفقد رجل الدين طهارته الطقسية، كما قالت شريعة موسى: «من مسَّ ميتاً، ميْتَة إنسان يكون نجساً سبعة أيام.. كل من مس ميتاً، ميْتَة إنسان قد مات ولم يتطهر ينجس مسكن الرب، فتُقطع تلك النفس من إسرائيل» (عدد ١٩: ١١، ١٣).

٢- قد يكون الجريح خدعة مدسوسة عليهما من اللصوص،

الذيـن كانوا يحتالون على المسـافرين بأن يلعب أحدهم دور الجريح الذي يطلب المعونة، حتى إذا تطوع مسـافر بمساعدته ينقضُّ هذا اللص عليه ويمسك به فيأتي باقي اللصوص ليسلبوا الضحية، وقد يقتلونه.

٣ - ربما يحتاج إنقاذ الجريح إلى وقت طويل،

فيتعطَّل رجل الدين عن القيام بمسئولياته الطقسية في الهيكل، فيضيع عليه امتياز الخدمة الدينية، كما يلومه رؤساؤه.

لقد كان الواجب على الكاهن واللاوي أن يســاعدا اليهودي الجريح، الذي يشترك معهما في العقيدة والجنس والوطن، والذي كان يعاني من الجراح الجسدية والنفسية. لكنهما تركاه معرضاً للموت متجاهلين أمر الشريــعة القائل: «لا تنظر حمار أخيــك أو ثوره واقعاً في الطريق وتتغافل عنه، بل تقيمه معه، لا محالة» (تثنيــة ٢٢: ٤)، فكم بالحري إن كان الأخ نفســه هو الذي وقع في الطريق! لقد قال الله: «أريد رحمة لا ذبيحة» (هوشع ٦: ٦). فكم كان مهماً أن ينقذا أخاهما، ولكنهما فكرا في حماية نفسيهما فقط.

رابعاً - الذين يساعدون غيرهم

نري في مثل «الســـامري الصالح» نموذجاً رائعاً للذين يساعدون غيرهم، وشعارهم «سأشاركك في مـــالي» وهُم يقدّمون غيرهم على أنفسهم. ولا بد أن السامري الصالح عندما رأى اليهودي الجريح تساءل في نفسه: ماذا يحدث له لو أني لم أساعده؟ ولا بد أنه تساءل أيضاً: ماذا يحدث لي لو أني ساعدته؟

كانت إجابة الســؤال الأول ســهلة: الجريح سيموت! أما إجابة السؤال الثاني فلها احتمالات كثيرة، منها: قد يرفض الجريح مســاعدتي، لأن «اليهود لا يعاملون الســامريين»، فالسامريون جنس نتج عن تزاوج الأشوريين الغزاة بفقراء اليهود الذين لم يؤخذوا إلى الســبي بعد ســقوط المملكة الإســرائيلية. وعندما حاول الســامريون مســاعدة اليهود في بناء الهيكل الثاني على جبل صهيون، بعد الرجوع من الــسبي، رفض اليهود مساعدتهم، فحاربهم السامريون (عزرا ٤: ٢-٥)، وأقاموا عبادتهم الخاصة على جبل جرزيم. ومع أنهم كانوا يحترمون موســى، ويقدســون شريعته، ويمارســـون الختان، ويحفظون الســبت، إلا أنهم لم يقبلوا من أســـفار العهد القديم سوى أسفار موسى الخمسة. وقد دمر اليهود هيكل السامريين عام ١٢٨ ق م، وأخذوا يجبرونهم على أن يتهودوا. وفي سنة ٦ ق م ألقى بعض السامريين عـظاماً نجسة في هيكل أورشليم، فكره اليهود السامريين ولم يكونوا ينطقون كلمة «سامري» ويحسبون طعام السامري نجساً مثل لحم الخنزير!

ومع كل هذا كان السامري الصالح نموذجاً في المحبة العملية، لأنه حين رأي الجريح «تحنن» وعبّر عن هذا بأن ضمد جراحه، وصبَّ عليـــها زيت الزيتون ليخفِّف آلامه، ثم صبَّ خمراً لأن الكحول فيها يطهر الجروح. ولما كان الجريح عاجزاً عن السير أركبه السامري على دابته ومشى إلى جواره يسنده، وأتى به إلى فندق ليــكون في مأمن، وبذل له كل عنايـــة ممكنة، وقضى الليلة معه، فقدَّم راحة الجريح عــلى نفسه. ولم يحسب أنه قام بكل شيء، فأدّى واجب الرعاية حتى بعد سفره، إذ قدَّم لصاحب الفندق دينارين يقول المفسرون إنهما يكفيان لنفقات الإقامة مدة شهر في ذلك الزمان. ولم يكتفِ السامري بهذا، بل وعد أن يدفع أية نفقات تزيد عن الدينارين حتى يتعافى الجريح ويقدر أن يواصل رحلته، فكان إيمان الســـامري هو «الإيــمان الــعامل بالـــمحبة» (غلاطيــة ٥: ٦) لأن الإيــمان بدون أعمال ميــت،

ولأنه هبة مجانية من الله. وبقدر ما أن الإيمان امتياز فهو أيضاً مسـؤولية، لأن من نال من الله كثيراً يطالبه الله بالكثير لخدمة الله ولخدمة أخيه الإنسـان. لقد تمم السامري الصالح الوصف الرسولي: «إن قال أحد إني أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب، لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره؟!» (١يوحنا ٤: ٢٠).

ولنا على مساعدة السامري لليهودي أربع ملاحظات:

١ - لم تمنع الخلفيـة المؤلمة من كراهية اليهود للسـامريين الرجل السـامري من أن يسـاعد اليهودي الجريح،

فقد كان السـامري صاحب عيـن صالحة وقلب صالح، وكان يريد أن يفعل الخير للجميع. لقد تمم الوصية: «إن جاع عدوك فأطعمه خبزاً، وإن عطش فاسقه ماء، فإنك تجمع جمراً على رأسه، والرب يـجازيك» (أمثال ٢٥: ٢١، ٢٢). وهي الوصية المقتبسـة في العهد الجديد: «إن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسـقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسـه. لا يـغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير» (رومية ١٢: ٢٠، ٢١).

٢ - لم يقدم السامري العون لليهودي الجريح لغرض في نفسه، ولا لردّ جميل سابق،

إذ لم تكن له معرفة سـابقة به. ولم يقدم العون طلباً لمجد بشري، فلم يكن هناك من يراقب ما كان يفعله. لكنه فعل ما فعله لأنه كان يعلم أن «الرب في هيكل قدسـه. الرب في السـماء كرسـيه. عيناه تنظران. أجفانه تمتحن بني آدم» (مزمور ١١: ٤).

ولـم تكن في الجريح امتيازات تجتذب انتباه السامري، بل بالعكس فالموقف يغري بالابتعاد عنه. من هـذا جنسية الجريح، وديانته، وحالته الصحية، وخطورة مساعدته من احتمال هجوم اللصوص على من يسـاعده، واحتمال اتهامه بأنه هو الذي اعتدى على الجريح! كما كان هناك احتمال أن يرفض الجريح مساعدته، لأنه يكره السامريين!

٣ - قدَّم السامري خدمته للجريح دون تخطيط سابق،

فـكانت خدمته تلقائية، كان سيقدمها لأي محتاج. لقد عمل بالوصية: «من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه، فكيف تثبت محبة الله فيه؟» (١يوحنا ٣: ١٧).

٤ - خدم السامري بإصرار على الاستمرار حتى النهاية،

وتابع خدمته ليكملها، فتحقق فيه القول الرسـولي: «واثقاً أن الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحاً يكمل إلى يوم يسوع المسيح» (فيلبي ١: ٣).

دروس من المثل

١ - **يــــنظر الله للبشر باعتبارهم إخوة يجب أن يتعاونوا** مهما اختلفت أجناســـهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم فإنه «هكذا أحب الله العالم» (يوحنا ٣: ١٦). وهو «يشرق شمســــه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥: ٤٥).

٢ - **يريد الله أن تظهر محبته للبشر التي أعلنها في تجسُّد المســيح بمحبتنا نحن لسائر البشر.** وسيكون البرهان قوياً إن كان من قلبٍ تدرب على حب الله، ومن أذنٍ تصغي لكلماته وتطيعها، ومن يدٍ تمتد لإخوةٍ متألمين، فنســـمعه يقول: «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم، لأني جعتُ فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني» (متى ٢٥: ٣٤-٤٠).

٣ - **لــم يوجدنا الرب في العالم بمحض الصدفة بل باختيار سابق**، وقال: «أنتم ملح الأرض.. أنتم نور الــــعالم.. فليــضئ نوركم هكذا قدام الناس لكي يــروا أعمالكم الحســنة ويــمجدوا أباكم الذي في السموات» (متى ٥:١٣-١٦). «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نســـلك فيها» (أفسس ٢: ١٠). فلنتشبَّه بسيدنا الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس (أعمال ١٠: ٣٨).

سؤالان

١ - لماذا يكره اليهود السامريين؟

٢ - بعد دراسة مثل «السامري الصالح» اشرح معنى قول الله «أريد رحمة لا ذبيحة».

(ج) الأبناء يعملون

مثل الابنين

مَاذَا تَظُنُّونَ؟ كَانَ لإِنْسَانٍ ابْنَانِ فَجَاءَ إِلَى الأَوَّلِ وَقَالَ: يَا ابْنِي اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي. فَأَجَابَ: مَا أُرِيدُ. وَلَكِنَّهُ نَدِمَ أَخِيراً وَمَضَى. وَجَاءَ إِلَى الثَّانِي وَقَالَ كَذَلِكَ. فَأَجَابَ: هَا أَنَا يَا سَيِّدُ. وَلَمْ يَمْضِ. فَأَيُّ الاثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟ قَالُوا لَهُ: الأَوَّلُ. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ، لأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِهِ. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيراً لِتُؤْمِنُوا بِهِ (متى ٢١: ٢٨-٣٢).

في هذا المثل نرى أباً يدعو ولديه للعمل في كرم العنب الخاص به. والأب هنا يرمز إلى الله، ويرمز الولدان الموجودان في البيت إلى أنواع البشر. إنهم جميعاً «عيال الله» لأنه خلقهم ويعولهم، ويكِل إليهم أعمالاً ينتظر أن يقوموا بها في ما يدعوه هنا «كرمه». وتتّضح بنوّة البشر العامة لله من أن المسيح علّمنا أن نبدأ الصلاة بدعائنا: «يا أبانا» (متى ٦: ٩). فالله هو الأب المُهاب، المحب، المعتني، المعطي، المدبّر. ويصوِّر الوحي الله بأنه «الكرّام» (يوحنا ١٥: ١) و«الراعي» (مزمور ٢٣: ١) و«الآب» (يوحنا ١: ١٢). وهي صورٌ تدفع البشر على العمل في «كرم» أبيهم، وتخفّف مصاعب تكليفاته لهم، وتُشعرهم بعظمة المسؤولية، وتملأ قلوبهم بالفرح عندما يرون «كرمه» يعلو ويثمر.

ويرينا المثل نوعين مختلفين من الناس، ولو أننا نرثي لأبيهما كليهما، فأولهما سيئ القول ولو أنه ندم وأصلح سوء قوله بتغيير فكره ثم بطاعته. أما الثاني فمعسول اللسان، مع أن عمله سيئ. وكنا نود لو كان للأب ابنٌ يعد بلسانه وينفذ بعمله.. أو أن ولديه أحسنا القول والفعل!

يمثّل الابن الأول الخطاة الذين يرفضون التكليف الإلهي، ولكن ضمائرهم تبكتهم فيستجيبون لتكليف أبيهم. إنهم الخطاة واللصوص والخونة والزواني وساقطو المجتمع الذين يجاوبون الله بقولهم: «ما أريد». ولكن عندما يحاصرهم الرب بمحبته فتعذّبهم ضمائرهم يراجعون أنفسهم، ويستجيبون لندائه، قائلين: «تكلم يا رب لأن عبدك سامع» (١صموئيل ٣: ٩).

ويمثّل الابن الثاني المتظاهرين بالتديُّن الذين يقولون إنهم سيفعلون، ولكنهم لا يفعلون. وهم اليوم بعض المتعبّدين الذين يبدون طيبين، ويجيبون الله بأدب قائلين: «ها أنا يا سيد». إنهم لا ينسون يخاطبوه بالاحترام: «يا سيد» ولا يغفلون التعبير عن الطاعة بشفاههم، لكنهم يمضون إلى حال سبيلهم، دون أن يؤدوا ما وعدوا به. ولعل إجابتهم المؤدَّبة أرضت ضميرهم!

هذا المثل موجَّهٌ إلى البعيدين ليراجعوا أنفسهم ويتوبوا، كما أنه موجَّهٌ للمتديِّنين الذين يعلنون قبولهم لتكليف الله لهم ولكنهم لا ينفِّذون! والمثل يدعوهم ليستيقظوا من اعتمادهم على طقوس العبادة دون روحها، وليتذكروا أن هناك خطاة وضالين كثيرين قد قبلوا رسالة الحق، سيسبقونهم إلى ملكوت الله (متى ٢١: ٣١)!

والسؤال الذي يثيره المسيح، ليس «أي الابنين قال؟» بل: «أي الاثنين عمل؟». فلنفحص أفعالنا.

أولاً - التكليف الإلهي

١ - الكرم:

يدعو الله كل إنسان ليؤدي خدمة معينة، يشبِّهها بالعمل في كرم العنب، فالرب هو «الكرام» والمؤمنون هم «العاملون في الكرم». وكرم الرب قد يكون قلوبنا، ويقول الرب: «يا ابني أعطني قلبك، ولتلاحظ عيناك طرقي» (أمثال ٢٣: ٢٦). وقد يكون كرمه عائلاتنا و«طوبى لكل من يتقي الرب ويسلك في طرقه..امرأتك مثل كرمة مثمرة في جوانب بيتك. بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك» (مزمور ١٢٨: ١-٣). وقد يكون كرم الرب مكان عملنا، حيث يجب أن يرى الناس أعمالنا الحسنة فيمجدون أبانا الذي في السماوات (متى ٥: ١٦). كما أن كرمه عالمنا الذي يجب أن نحيا فيه بلا عيب، وسط جيل معوج وملتوٍ نضيء بينهم كأنوار (فيلبي ٢: ١٥)، طاعةً للأمر الرسولي: «اكرز بالكلمة. اعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب. وبِّخ، انتهر، عِظ بكل أناة وتعليم.. احتمل المشقات.. تمِّم خدمتك» (٢تيموثاوس ٤: ٢، ٥).

طلب شاب من راعي كنيسة أن يقبل انضمامه إلى العُضوية، فسأله الراعي عن الخدمة التي يحب أن يقدمها للكنيسة بعد انضمامه، فسأل: «وماذا سأعمل في الكنيسة؟» فاقترح عليه الراعي التدريس في مدرسة الأحد، فاعتذر لأنه لا يحتمل شقاوة الأطفال. واقترح عليه زيارة المرضى، فاعتذر بأنه خجول ولا يحب التعامل مع الغرباء. واقترح عليه الانضمام لفريق الترنيم، فاعتذر لأن أذنه غير موسيقية. فقال له الراعي: «إذاً قد أخطأت اختيار الكنيسة التي يجب أن تنضم إليها». ثم أشار له إلى المقابر الموجودة خلف الكنيسة وقال له: «هذه كنيسة راحة القديسين التي كان يجب أن تطلب الانضمام إليها، فإن العضو الحي لا يمكن إلا أن يكون عاملاً!». وكل مؤمن مكلَّف أن يخدم الله بالعمل في كرمه.

٢ - فوائد الكرم:

عندما نعمل في هذا الكرم، داخل نفوسنا وخارجها سنكتشف أن للكرم ثلاث فوائد:

(أ) **إنه يظلل الناس من حرارة الشمس.** والبشر يتظللون تحت ظل كرم الرب، وفي رعاية المؤمنين الحقيقيين. وعندما تتظلل وتحتمي تحت جناحي الرب، كما تكون مظلة للمتعبين من البشر حولك، فيصير عالمنا أفضل. «الرب حافظك. الرب ظل لك عن يدك اليمنى. لا تضربك الشمس في النهار ولا القمر في الليل» (مزمور ١٢١: ٥، ٦).

(ب) **يمنح الكرم الطبيعة جمالاً بأوراقه الخضراء التي تسرُّ الناظرين.** والمؤمنون «مغروسين في بيت الرب. في ديار إلهنا يزهرون. أيضاً يثمرون في الشيبة. يكونون دساماً وخُضراً ليخبروا بأن الرب مستقيم» (مزمور ٩٢: ١٣-١٥). ولا غرابة فإن الله يجمِّل الودعاء بالخلاص (مزمور ١٤٩: ٤)، فيكتسبون جمالاً من نعمة الله، ويجمِّلون المكان الذي يوجدون فيه، كما هو مكتوب: «هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معاً.. لأنه هناك أمر الرب بالبركة، حياة إلى الأبد» (مزمور ١٣٣).

(ج) **يـعطي الكرم ثمراً لذيذاً يُشبع الجائع ويغيث المعيي.** وثمر الكرم هو العنب ذو الطعم اللذيذ في كل حالاته: طازجاً ومجففاً ومعصوراً. والمؤمن جميــل المعشر في كل مراحل حيـــاته الإيمانية، وفي مختلف حالاته، حتى لو كانت الآلام تعصره!

٣ - تشريف العمل في الكرم:

(أ) **العمل في الكرم شرفٌ لأن الرب يدعو العامل فيه:** «يا ابني». فانظروا وتأملوا أية محبة أعطانا الآب حتى نُدعى أولاد الله! (١يـوحنا ٣: ١). هذا الــتكليـــف هو دالة الأب على أولاده، فالمؤمنون لا يخدمون خدمة العبيد بل خدمة الورثة، فقد قال المســيح: «أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به. لا أعود أســمّيكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتُكم بكل ما سمعتُه من أبي» (يوحنا ١٥: ١٤، ١٥).. فأية نعمة وأية تكريم أعظم من هذه!

هناك دعوة شخصية موجَّهة إليك تكلفك بالعمل، لأنك موضع تقدير وثقة أبيك الســـــماوي، فلا تقلل من شأن نفســـــك ولا تستهن بدعوته، وابدأ بتقديم خدمة عملية لله في يومك هذا. اطلب منه أن يساعدك لتخدم الجميع «وكل ما فعلتم فاعملوا من القلب، كما للرب، ليس للناس» (كولوسي ٣: ٢٣).

(ب) **والعمل في الكرم شرف لأنه عاجل،** ولا يــقوم به إلا الأبناء، فموعد العمل هو «اليــوم». إنه إلحاح المســئولية، الذي قدَّم المســـيح لنا فيه نفسه قدوة، فقال: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني مادام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل» (يوحنا ٩: ٤). فاليوم «إن سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم» (عبرانيين ٤: ٧).

(ج) **والعمل في الكرم شرف لأنه بالفعل لا بالقول،** وهو عمل يــراه الجميع، فالرب يقول: «اعمل» لأن الأعمال تعبِّر عن الحب لله. صحيـــحٌ أن للكلمات أهميتها، ولكنها لا تُحترَم إن لم تصاحبها الأفعال التي تؤيدها، فصوت الفعل أعلى من صوت الكلام! «هكذا الإيمان أيضاً، إن لم يكن له أعمال، ميت في ذاته.. أنت لك إيــمان، وأنا لي أعمال. أرني إيمانك بدون أعمالك، وأنا أريك بأعمالي إيماني» (يعقوب ٢: ١٧، ١٨).

(د) **والعمل في الكرم شرف بســبب الثمر العظيــم الذي نجنيـــه،** فبالرغم من أنه يشغل كل الوقت ويســـتغرق كل الجهد ويتطلب كل التفكير، إلا أن ثمره مفرحٌ جداً للزارع والحاصد معاً. ويقول الله: «لأنه كما يـــنزل المطر والثلج من الســماء ولا يرجعان إلى هناك، بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتعطي زرعاً لـــلــزارع وخبزاً لـــلآكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي: لا ترجع إليَّ فارغة، بل تعمل ما ســُررت به، وتنجح فيما أرسلتها له» (إشعياء ٥٥: ١٠، ١١). فإن «كلمة الله حية وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميزة أفكار القلب ونياته» (عبرانيين ٤: ١٢).

وكل مؤمن يبذر بذار الكلمة يكون قد شبع بها، واكتشف تأثيرها المدهش على حياته، فيقول: «وجد كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي» (إرميا ١٥: ١٦)، «وصيتك جعلتني أحكم من أعدائي.. أكثر من الشيوخ فطنت لأني حفظت وصاياك» (مزمور ١١٩: ٩٨، ١٠٠). وعندما يبذرها يجدها تقرِّب البعيد وتحوِّل الخصام إلى مصالحة وسلام، فيقول: «إذاً نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله» (٢كورنثوس ٥: ١٩، ٢٠).

ثانياً - عصيان بالقول لا بالعمل

كانت إجابة الابن الأول: «ما أريد». وهذه إجابة القلب الطبيعي الذي لم تلمسه نعمة التغيير والتجديد. إنه يرغب في الراحة، وينشغل بمسرات الشخصية، ولا يريد أن يؤدي عمل الرب، لأن قبول الدعوة يعني احتمال المصاعب في سبيل أداء الخدمة المطلوبة. لكنه «ندم أخيراً» وذهب لينفِّذ أمر أبيه.

تُرى ما الذي جعل هذا الابن يتغيَّر فيطيع بعمله، بعد أن أعلن العصيان بشفتيه؟

لا بد أنه فكَّر في لطف أبيه، وفي مسؤولياته من نحو هذا الآب! لقد طلب منه ولم يُجبره على الطاعة. كم هو محب، وكم هو طويل أناة. لا شك أنه افتكر تعاملات أبيه الماضية معه، فطالما اختبر غفرانه الكثير على سيئاته الكثيرة، وكان يعرف أن أباه لا بد سيقبل توبته واعتذاره، فبدأت استجابته لنداء أبيه في قلبه.

وتحوَّلت تلك المشاعر الداخلية إلى عمل، لأنه «ندم أخيراً ومضى» ينفذ طلب أبيه. لم يرغب في أن يكون اعتذاره لأبيه بلسانه، بل عبر عن أسفه بعمله.

وكم من شخصٍ يدرك اليوم محاولات الرب الكثيرة لردِّه إلى طريق الإيمان، فينهض راجعاً تائباً! وكم من مؤمنٍ يدرك أن الله يكلفه ولكنه تهرَّب من التكليف. وفجأة تشرق محبة الله على قلبه، فيلتهب داخله أسفاً وحباً، يتحوَّل إلى طاعةٍ وخدمة!

إن كنتَ في مثل حالة هذا الابن، فطوبى لك إن قمت الآن لتنفذ ما كلفك الله به. وإن كنت تتعامل مع شخص في حالةٍ تشبه حالة هذا الابن، فكن شفوقاً به، لأن إبليس «أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله.. لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كورنثوس ٤: ٤، ٦). فلنعلم أن «من ردَّ خاطئاً عن ضلال طريقه يخلِّص نفساً من الموت، ويستر كثرة من الخطايا» (يعقوب ٥: ٢٠).

وكل من يعلم أن هناك فرصةً لمراجعة النفس، يعطي غيره فرصة ليراجع نفسه. فإذا أخطأ ابنك أو ابنتك، أو أخوك أو قريبك، فاعطه فرصة ثانية ليراجع نفسه، واقبل اعتذاره.. وإن كان الرب قد أعطاك فرصة توصيل الرسالة لشخصٍ يرفض دعوة الله، وترددتَ في اغتنامها، فهو الآن يُعيد تكليفك، لأنه يعلم أنك تحبه وستطيعه، فهو إله الفرصة الثانية.

ثالثاً - طاعة بالقول لا بالعمل

كان الابن الثاني سريعاً في التعبير عن الطاعة بلسانه، متقاعساً في التنفيذ بجسده! فهو يقول «نعم» لكنه لا يـــفعل. لقد أعلن الطاعة بشفتيه، أما قلبه فقد كان بعيداً عن مســتوى قوله. إنه مثل شجرة تين ذات ورق، ولــكنها بــدون ثمر (مرقس ١١: ١٣، ١٤). هذا الابـــن أشر من أخيـــه، لأنه أعطى أباه الانطباع الكاذب أنه ســيـــقوم بالعمل المطلوب، فانصرف أبوه مطمئناً، ولكنه كان ينوي عدم الطاعة، فغشَّ أباه وكذب عليه. والكذب «من أبٍ هو إبليس.. ذاك كان قتَّالاً للناس من البدء، ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب» (يوحنا ٨: ٤٤).

فإن كان الله قد منحنا امتيــاز أن ندعوه: «يـــا أبانا» فليكن فينا الصدق في القول والفعل، ولا نكن كالمرائيـــن المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، ولا «نعرج بين الفرقتين» فنعطي من طرف اللســـان حلاوةً، ونروغ كما يروغ الثعلب! بل لنفرح بعمل مشيئة الله الصالحة ونقول له: «هئنذا، ارسلني».

ما أكثر الذيـــن تتوقف علاقتهم بالرب على حضور العبادة يـــوم الأحد، فيـــذهبون للكنائس وكأنهم ذاهبون في نزهة أو رحلة، يلقون تذكرة السفر في نهايتها، وينفضون أيديهم منها. لهؤلاء يقول الوحي: «إنكم عارفون الوقت. إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم.. قد تناهى الليل وتقارب النهار، فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور» (رومية ١٣: ١١، ١٢).. «كونوا عاملين بالكلمة، لا سامعين فقط خادعين نفوسكم» (يعقوب ١: ٢٢)، ولنعلن طاعتنا لدعوة الرب بالفكر واللسان والسلوك.

أيها القارئ الكريم،

لا تنتظر حتى يكلفك الله بخدمة عظيمة، فإن العمل في كرم الرب رائع في أي موقع وفي كل حالة. كُن مكتفيـــاً بأن تقوم بأبســط الأمور، وقُم بها بأفضل قدراتك. افتح عينيك على فُرص خدمة الآخرين، وتقديم الرسالة المفرحة لتملأ نفوسهم بالأمل.

اذهب إلى العمل ولا تنتظر حتى يجيء العمل إليك.

سؤالان

١ - اذكر ثلاث فوائد للكرم، وما يعنيه هذا لك اليوم.

٢ - لماذا كنا نودُّ أن يــكون لهذا الأب ابن ثالث؟ أو ما هو التغيـــيـــر المطلوب في الابنين الأول والثاني؟

(د) العاملون يعملون

مثل الكرامين الأردياء

اسْمَعُوا مَثَلاً آخَرَ: كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْماً وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً وَبَنَى بُرْجاً، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الأَثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ. فَأَخَذَ الْكَرَّامُونَ عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضاً وَقَتَلُوا بَعْضاً وَرَجَمُوا بَعْضاً. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضاً عَبِيداً آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِينَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذَلِكَ. فَأَخِيراً أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَهُ قَائِلاً: يَهَابُونَ ابْنِي! وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوُا الابْنَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَذَا هُوَ الْوَارِثُ. هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيرَاثَهُ! فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ. فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟

قَالُوا لَهُ: أُولَئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاكاً رَدِيّاً، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا.

قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا؟ لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ، وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ.

وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ لأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيٍّ (متى ٢١: ٣٣-٤١).

(ورد هذا المثل أيضاً في مرقس ١٢: ١-٩ ولوقا ٢٠: ٩-١٦)

روى المسيح هذا المثل ليؤكد حقيقة أن الآب يعمل وأنه هو أيضاً يعمل (يوحنا ٥: ١٧)، وأن الآب لا يزال يعمل حتى بعد أن رفض اليهودُ الأنبياء الذين أرسلهم إليهم لتوصيل رسالته الإلهية، وقتلوهم. ثم أرسل ابنه الوحيد الحبيب فقتلوه أيضاً، فأقامه قيامة مجيدة، وأعطى الملكوت لأمّة تعمل أثماره.

وبعد رواية المثَل اقتبس المسيح إحدى النبوّات التي وردت عنه في مزمور ١١٨: ٢٢، ٢٣ والتي تقول: «الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية. من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيبٌ في أعيننا». وهو الحجر الذي قال الله عنه بفم إشعياء النبي: «هأنذا أؤسس في صهيون حجراً، حجر امتحانٍ، حجر زاويةٍ كريماً. أساساً مؤسَّساً» (إشعياء ٢٨: ١٦)، وتحقَّق رفض «رأس الزاوية» إذ قال اليهود المتشككون عنه: «أمِن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟» (يوحنا ١: ٤٦) وتساءلوا: «أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تُدعى مريم، وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا؟.. فكانوا يعثرون به» (متى ١٣: ٥٥، ٥٧).

أما المؤمنون فيرون المسيح «رأس زاوية» إيمانهم، الذي عيَّنه الله منذ الأزل ليكون أساساً للكنيسة، لا يمكن أن يقوم البناء ويتماسك إلا به، فهو يربط ويوحِّد المؤمنين الذين جاءوا من خلفية يهودية ومن خلفية

وثنية، ويجعل الاثنين واحداً، وينقض حائط السياج المتوسط أي العداوة، ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب، قاتلاً العداوة به (أفســس ٢: ١٣-١٦) فيكونون «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويســـوع المسيح نفسه حجر الزاوية» (أفسس ٢: ٢٠). وكل من يقبله يخلُص، وكل من يرفضه يهلك. الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن بابن الله الوحيد (يوحنا ٣: ١٨).

ولـم يفهم اليهود في البداية أن المسيح قصدهم بهذا المثل، فعندما سألهم: «ماذا يفعل صاحب الكرم بأولئك الكرامين؟» أجابوه: «أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً، ويسلِّم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها» (آيـــة ٤١). ولكنهم ســرعان ما أدركوا أنه يقصدهم، وأنهم وصفوا أنفســهم بالكرامين الأردياء، فأرادوا أن يـــقبضوا عليه، لأنه قال إنهم قتَلة الأنبياء، وإنه ابن الله، وإنهم ســيقتلونه! لقد كانوا يعرفون من إشعيـــاء ٥: ١-٧ أنهم كرم الرب، وكانوا ينقشون عنقود العنب على عملاتهم النقدية رمزاً لاقتصادهم الذي منحه الله لهم.. أما صاحب الكرم فهو الله الذي اختارهم ليـعملوا في كرمه.. أما عبيـــد صاحب الكرم فهم أنبياؤه الذين قال عنهم: «من اليوم الذي خرج فيه آباؤكم من أرض مصر إلى هذا اليوم أرســـلتُ إليكم كل عـبيدي الأنبياء مبكراً كل يوم، ومرسِلاً، فلم يسمعوا لي، ولم يميلوا أذنهم بل صلّبوا رقابهم. أساءوا أكثر من آبائهم» (إرميـا ٧: ٢٥، ٢٦).. و«الابن» في المثَل ليـــس مجرَّد ابن، بل هو «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب» (يوحنا ١: ١٨).. أما المستأجرون الجدد فهم المؤمنون بالمسيح من كل أمة وشعب، الذين قيل عنهم: «أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه» (يوحنا ١: ١٢).

هذا المثل نبوَّة واضحة عن عمل الله في الصليـــب، ليفتح باب الخلاص للأمم من كل قبيلة وشعب ولســان، فهو «يـــريد أن جميع الناس يَخلُصون، وإلى معرفة الحق يُقبلون» (١تيموثاوس ٢: ٤). وهو مثلٌ يصف حالة قومٍ يترددون على الكنائس ولكنهم لم يقبلوا المسيح مخلِّصاً، فهُم يؤدون عبادةً مظهرية خالية من العلاقة الشخصية بالرب. إنهم كالفريســـيين الذين نادوا بمبادئ ســـليمة لم يمارسوها، وقدموا عـبادة الشفتين لا القلب والسلوك.. فلنطلب من الرب أن يعطينا نعمةً لنكون سامعين عاملين بالكلمة، لا خادعين نفوســــناء فتكون عبادتنا نابعةً من أعماق قلوبنا «لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا» (يوحنا ٤: ٢٣، ٢٤).

أولاً - صاحب الكرم

١- زرَعَ الكرم:

«إنـسان رب بيت غرس كرماً، وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة، وبنى برجاً، وسلَّمه إلى كرامين وســافر» (آية ٣٣). يصوِّر هذا المثَل لنا الله «ربَّ بيت» هو السيد المطاع فيه، وهو الذي يدبر أموره، ويضع له القوانين، ويحمي أهله من كل شر، وهو القدوة له.. وقد غرس رب البيت كرماً لنفســـه لا بد أنه من أجود الأنواع، وأحاطه بســور، وبنى فيـــه برج مراقبة يقدر الحراس منه أن يروا كل الجوانب

فيكونون مستعدين للدفاع عنه، وليجدوا مكاناً يستريحون فيه أثناء التناوب على الحراسة. وبالسياج والبرج عمل على المحافظة على كرمه من هجوم اللصوص السارقين، ومن الثعالب المفسدين، وجعل له حدوداً تميّزه عما يحيط به من خارجه، ومنع أي عدو من أن يأتي ليزرع في وسطه عنباً رديئاً (متى ١٣: ٢٥).. وحفر فيه معصرة لأنه كان ينتظر منه ثمراً صالحاً وفيراً.

وما أجمل أن نفكر في الله باعتباره «رب بيت» فهو الخالق، رب كل شيء، المالك والمعطي. قبل أن يخلق أبوينا الأولين خلق لهما جنةً فيها كل ما يحتاجه الإنسان. ونحن، من قبل أن نولد هيأ لنا كل شيء صالح «يداك صنعتاني وأنشأتاني» (مزمور ١١٩: ٧٣) وهو يقول عنا: «المحمَّلين عليَّ من البطن، المحمولين من الرحم. وإلى الشيخوخة أنا هو، وإلى الشيبة أنا أحمل. قد فعلت، وأنا أرفع، وأنا أحمل، وأنجي» (إشعياء ٤٦: ٣، ٤). لقد هيَّأ لنا عائلة أحبتنا واعتنت بنا ورعتنا، فيُقال لنا: «أي شيء لك لم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟» (١كورنثوس ٤: ٧). وقد وهبنا كنز كلمته الحية المدوَّنة في الكتاب المقدس لنقول: «عرَّفتني سبل الحياة، وستملأني سروراً مع وجهك» (أعمال ٢: ٢٨)، وبهذا أعدَّ كل ما نحتاجه لنأتي بثمر ويدوم ثمرنا، ثم سلَّمنا هذا كلَّه وأعطانا حرية استخدامه «وسافر». والحقيقة هي «كأنه مسافر» فهو قريب منا، يتابعنا ويعتني بنا ويراقبنا ويقول لكل واحد منا: «لا أهملك ولا أتركك» (عبرانيين ١٣: ٥). لقد أعطانا الحياة والعطايا وسلَّمها لنا أمانة لفترة قد تطول أو تقصر، ولكنه لا بد يعود ليجمع الثمر الذي ينتظره منا، والذي يجب أن يكون ثمراً جيداً، ويقول لنا: «ليس أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر، ويدوم ثمركم» (يوحنا ١٥: ١٦).

٢ - أرسل العبيد:

أرسل الله عبيده الأنبياء إلى بني إسرائيل فقابلوهم بالرفض، فأطال أناته وأرسل عبيداً آخرين، ولكن اليهود ضربوهم وجلدوهم ورجموهم وقتلوا بعضهم. وقد وصف كاتب رسالة العبرانيين هذه المعاملة السيئة للأنبياء بقوله: «عُذِّبوا.. تجربوا في هُزء وجَلْدٍ، ثم في قيودٍ أيضاً وحبس. رُجموا، نُشروا، جُرِّبوا، ماتوا قتلاً بالسيف. طافوا في جلود غنم وجلود معزى معتازين مكروبين مذلّين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم. تائهين في براري وجبال ومغاير وشقوق الأرض» (عبرانيين ١١: ٣٥-٣٨).

ولمثل هؤلاء الذين استهانوا برسل صاحب الكرم، وافتكروا أنه سافر ولن يعود، يقول الوحي مؤنِّباً: «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالمٍ أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة؟ لكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة، الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله. أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبدية. وأما الذين هم من أهل التحزُّب ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم، فسخط وغضب. شدة وضيق على كل نفس إنسان يفعل الشر» (رومية ٢: ٤-٩).

٣ - أرسل الابن:

أظهر صاحب الكرم المزيد من طول الأناة على الكرامين الأردياء الذين أهانوا أنبياءه وقتلوهم، وفي محبته وعدالته لم يشأ أن يهلكهم قبل أن يمنحهم كل فرصة للتوبة والنجاة، وهو القائل: «هل مسرَّةً أُسرُّ بموت الشرير، يقول السيد الرب؟ ألا برجوعه عن طرقه فيحيا؟» (حزقيال ١٨: ٢٣). وكانت آخر فرصة قدَّمها لهم أن أرسل ابنه، وقال «يهابون ابني» ليقبلوه ويكرموه ويقدموا له الثمر، رغم وجود كل احتمال أن يفعلوا به ما سبق أن فعلوه بالعبيد! ولأنهم أردياء فكروا في قتله باعتباره الوارث، ظانين أنهم بهذا يرثون الأرض وما عليها، وكأن الميراث يؤخذ عنوة وليس بالحق، بالشرّ لا بالمحبة!

«الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواعٍ وطرق كثيرة، كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالمين، الذي وهو بهاء مجده، ورسم جوهره، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا، جلس في يمين العظمة في الأعالي، صائراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث اسماً أفضل منهم» (عبرانيين ١: ١-٤).

والمسيح هو الابن الوحيد، الذي سُرَّ الآب به (متى ٣: ١٧ و١٧: ٥)، وبنويته روحية لا جسدية، لا زوجة فيها ولا صاحبة، فيقول الآب للابن على لسان صاحب المزامير: «أنت ابني. أنا اليوم ولدتُك» (مزمور ٢: ٧ وعبرانيين ١: ٥). أما في البنوية البشرية حيث الزوجة، فيقول الأب لابنه: «أنا اليوم ولدتك. أنت ابني» لأنه قبل ميلاد الابن لا يكون الأب أباً ولا يكون الابن ابناً، فعلاقة البنوية والأبوية لا تبدأ إلا بعد ولادة الابن. أما المسيح فهو الابن الأزلي، مولود غير مخلوق، موجود من قبل أن يولد من العذراء القديسة مريم.

وجاءت إرسالية المسيح بعد إرسالية العبيد، لأنه الأعلى والأسمى، فلا يمكن أن يجيء بعد الابن رسلٌ ولا أنبياء.. لقد أرسل الله المسيح بعد أن أرسل موسى، والمسيح أعظم من موسى. وفي هذا يقول الوحي: «لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته: المسيح يسوع، حال كونه أميناً للذي أقامه كما كان موسى أيضاً في كل بيته. فإن هذا (المسيح) قد حُسب أهلاً لمجدٍ أكثر من موسى بمقدار ما لباني البيت من كرامة أكثر من البيت. لأن كل بيت يبنيه إنسان ما، ولكن باني الكل هو الله. وموسى كان أميناً في كل بيته كخادمٍ، شهادةً للعتيد أن يُتكلَّم به (أي المسيحية)، وأما المسيح فكابنٍ على بيته. وبيتُه نحن إن تمسكنا بثقة الرجاء وافتخاره ثابتةً إلى النهاية» (عبرانيين ٣: ١-٦).

«من قِبَل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا». لقد ذهب الابن إلى الكرامين، فاستهانوا به وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه! جاءهم متواضعاً، مولوداً في مذود بسيط ليستطيع البسطاء والعظماء أن يأتوا إليه، وأخلى نفسه آخذاً صورة عبد (فيلبي ٢: ٧)، فألقوا القبض عليه وأخذوه خارج أورشليم وصلبوه، لأنهم لم يصدقوا أن المولود في مذود هو «الله الذي ظهر في الجسد» (اتيموثاوس ٣: ١٦). ومن يقول إن موته وصلبه هو قوة الله وحكمة الله؟ ومن يقول إن الذي يُصلب ويُدفَن يقوم ويصعد،

وينتظر البشر مجيئه ثانية قاضياً عادلاً للعالم كله؟ «من صدّق خبرنا، ولمن استُعلنت ذراع الرب؟.. محتقرٌ ومخذولٌ من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن، وكمُستَّرٍ عنه وجوهنا، محتقرٌ فلم نعتدَّ به.. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه، وبحُبْره شُفينا» (إشعياء ٥٣: ١، ٣، ٥).

إن الإعجاز الأكبر هو أن الله افتدانا من لعنة الناموس، ورفع عنا خطايانا بموت ابنه على الصليب.. لقد أشار قيافا على اليهود أنه خيرٌ أن يموت إنسان واحدٌ عن الشعب (يوحنا ١٨: ١٤)، لكن المسيح لم يمُت عن شعبٍ واحد، بل عن البشر جميعاً «وهو مات لأجل الجميع، كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كورنثوس ٥: ١٥).

لقد رفض «البناؤون» (شيوخ اليهود) المسيح، مع أنه «حجر الزاوية الوحيد». وهذا ما أعلنه الرسول بطرس عندما امتلأ من الروح القدس، وقال لشيوخ اليهود: «يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل.. فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم، الذي أقامه الله من الأموات. بذاك وقف هذا (الرجل المولود أعرج) أمامكم صحيحاً. هذا (المسيح) هو الحجر الذي احتقرتموه أيها البناؤون، الذي صار رأس الزاوية» (أعمال ٤: ٨، ١٠، ١١). وعاد ليسجِّل بإرشاد الروح القدس هذا كتابةً: «لذلك يُتضمَّن أيضاً في الكتاب: هأنذا أضع في صهيون حجر زاوية مختاراً كريماً، والذي يؤمن به لن يُخزى. فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة. وأما للذين لا يطيعون، فالحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية» (١بطرس ٢: ٦، ٧). وهو عين ما خاطب المسيح به أهل عاصمة اليهود: «يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردتُ أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا. هوذا بيتكم يُترك لكم خراباً» (لوقا ١٣: ٣٤، ٣٥).

لقد رفض شيوخ اليهود المسيح، فحقَّ عليهم حكم الهلاك، لأن «من سقط على هذا الحجر يترضَّض» لأنه احتقر الحجر، «ومن سقط عليه هو يسحقه» كما كان يحدث وقت رجم المجرمين، فتمَّت فيهم النبوَّة: «ويكون مقْدِساً، وحجرَ صدمةٍ، وصخرةَ عثرةٍ لبيتي إسرائيل، وفخاً وشَركاً لسكان أورشليم، فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون، ويعلَّقون فيُلقَطون» (إشعياء ٨: ١٣-١٥).

ثانياً - الكرامون

الكرامون في هذا المثل هم بنو إسرائيل الذين اختارهم الله لنشر كلمته وشريعته بين الشعوب، وقال لهم: «إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي، تكونون لي خاصةً من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض، وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة» (خروج ١٩: ٥، ٦). ولكنهم لم يسمعوا صوته ولم يحفظوا عهده، فوبَّخهم توبيخ الحب بقوله: «لأنشدنَّ عن حبيبي نشيد محبّي لكرمه. كان لحبيبي كرمٌ على أكمة خصبة، فنقبه ونقَّى حجارته، وغرسه كرم سورق، وبنى برجاً في وسطه، ونقر فيه أيضاً معصرة، فانتظر أن يصنع عنباً، فصنع عنباً رديئاً» (إشعياء ٥: ١، ٢). ولكنه لم يتركهم في بُعدهم،

بل أرســـل إليهم ابنه الحبيب الذي «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله» (يوحنا ١: ١١). ولما رفضوه وصلبوه تمَّ فيـــهم قول المســـيـــح: «إن كثيرين ســـيأتون من المشارق والمغارب، ويتكئون مع إبراهيم وإســـحاق ويعقوب في ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت فيُطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى ٨: ١١، ١٢).

ولا زال الرب واقفاً يقرع على باب كل قلب، ومن له أذنان للســـمع فليســـمع، فهو لا يُجبر أحداً أن يفتح له. فإن ســـمعت صوته وفتحت قلبك له تصبح له ابناً. أما إن رفضته فســـتخسر نصيبك الصالح، وتكون عبداً لإبليس. الأجدر بك أن تكرم الابن وتشكره لأنه اســـتأمنك على الكثير، كما اســـتأمن أولئك الكرامين على كرمه. إن كنت مثل شاول الطرســـوسي، مضطهد الكنيسة، فاسمع قول المسيح: «صعبٌ عليـــك أن ترفس مناخس» (أعمال ٩: ٥). تُب واقبل المســـيـــح الابن الحبيب، فيفتح أمامك باب الحياة الأبدية ويجعلك كارزاً بالإنجيل. إنه يمنحك حرية الاختيار، ثم يطالبك بتقديم حســـاب وكالتك الذي يجب أن تقدِّم فيـــه إجابتك على ســـؤاليـــن: هل قبلت الابن المخلِّص؟ وهل قدَّمت ثمراً صالحاً؟. وهو لا يبدأ بســـؤالك عن الثمر، بل عن قبول الابن، ثم عن الثمر الصالح، فابدأ بالخضوع لله وقبول نعمة المســـيح المجانية، فتثمر فيك عملاً صالحاً، وتقول مع ســـائر المفديين: «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المســـيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أفسس ٢: ١٠).

لم يكن الكرامون الأردياء أصحاب الكرم، لكنهم كانوا وكلاء عن صاحبه، فتوقَّع منهم أن يأتوه بالثمر، ولكنهم كانوا وكلاء أردياء.. ونحن اليوم وكلاء من الله على أولادنا ووقتنا وممتلكاتنا، فكلها عطايا الله لنا. وهـو يمنحنا الحرية لنطيعه أو نعصاه، ولا بد أن يطالبنا يوماً بحقوقه، قائلاً: «أعطِ حساب وكالتك» وهنيئاً لك إن كنت أميـــناً له فيقول لك: «نِعمّا (أحســـنتَ) أيها العبد الصالح والأمين. كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح ســـيدك» (متى ٢٥: ٢١) «لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المســـكونة بالعدل، برجلٍ قد عيَّنه، مقدِّماً للجميع إيماناً، إذ أقامه من الأموات» (أعمال ١٧: ٣١).

ويـــحذرنا المثل من العصيـــان كما حذَّر بني إســـرائيل من قبل، ولكنهم لم يقبلوا التحذير، فأُخربت عاصمتهم وتدمَّر هيـــكلهم، وفقدوا امتيازاتهم. وكان لا بد أن ينفذ الله خطته لفداء البشر، فأوجد آخرين أمناء من الأمم ليقوموا بما لم يقُم اليهود به.

والـــيوم إن لم تسمع النداء الإلهي وتثمر عملاً صالحاً وخدمةً مقدسة، يختار الله من يؤدي له الخدمة، لأن عمله لا يمكن أن يتعطل. أما أنت فستضيِّع على نفسك فرصة الحصول على البركة. ومن المفيد أن نـــسمع تحذير مُردخاي للملكة أستير: «لا تفتكري في نفسك أنك تنجين في بيت الملك دون جميع اليهود، لأنك إن ســـكتِّ ســـكوتاً في هذا الوقت يكون الفرج والنجاة لليهود من مكان آخر، وأما أنت وبيت أبيك فتبيدون. ومن يعلم ان كنت لوقتٍ مثل هذا وصلتِ إلى المُلك!» (أستير ٤: ١٣، ١٤).

سؤالان

١ - ما هي مسؤوليات رب البيت من نحو أهل البيت، وكيف ترى الله «ربَّ بيت» العالم؟

٢ - ما هو الفرق بين إرسالية العبيد وإرسالية الابن؟

٢ - ضرورة التواضع

(أ) تواضع الاعتراف - مثل الفريسي والعشار لوقا ١٨: ٩-١٤

(ب) تواضع السلوك - مثل المتكأ الأخير لوقا ١٤: ٧-١١

(أ) تواضع الاعتراف

مثل الفريسي والعشار

وَقَالَ لِقَوْمٍ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ وَيَحْتَقِرُونَ الآخَرِينَ هَذَا الْمَثَلَ: إِنْسَانَانِ صَعِدَا إِلَى الْهَيْكَلِ لِيُصَلِّيَا، وَاحِدٌ فَرِّيسِيٌّ وَالآخَرُ عَشَّارٌ. أَمَّا الْفَرِّيسِيُّ فَوَقَفَ يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ هَكَذَا: اَللَّهُمَّ، أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةِ، وَلا مِثْلَ هَذَا الْعَشَّارِ. أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الأُسْبُوعِ، وَأُعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتَنِيهِ.

وَأَمَّا الْعَشَّارُ فَوَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ، لا يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ قَائِلاً: اللَّهُمَّ، ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِي. أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ هَذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبَرَّراً دُونَ ذَاكَ، لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ (لوقا ١٨: ٩-١٤).

اعتاد اليهود أن يصلوا ثلاث مرات يومياً، في التاسعة صباحاً والثانية عشرة ظهراً والثالثة بعد الظهر، كما يقول الوحي عن النبي دانيال: «جثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم، وصلى وحمد قدام إلهه، كما كان يفعل قبل ذلك» (دانيال ٦: ١٠). وكان اليهود يعتقدون أن أكثر الصلوات فاعلية هي التي تُرفع في الهيكل، فكان الهيكل مفتوحاً دائماً أمام الشعب للصلاة والتأمل.

في هذا المثل روى المسيح عن شخصين يمثلان شريحتين من المجتمع اليهودي في ذلك الوقت، تصلحان لتكونا نموذجين لمجتمعهم ولمجتمعنا أيضاً، يعلّماننا أن من يرفع نفسه يتّضع، ومن يضع نفسه يرتفع. وصلاة الإنسان الانفرادية تكشف حقيقة نفسه، فهو يعبّر فيها عن واقعه بإخلاص، لأنه يحدّث الله العالم بكل شيء.

كان أحد المصلّيين «فريسياً» ومعنى الكلمة في اللغة الأرامية «منعزل». فالفريسيون هم الذين اعتزلوا الناس ليتفرغوا للعبادة. وكانوا أول الأمر نبلاء خُلقاً وأتقياء ديناً، لكن دخلاء انضمّوا إليهم ففسد حزبهم، واشتهر معظمهم بالرياء والعُجب بأنفسهم، حتى وصفهم يوحنا المعمدان بأنهم «أولاد الأفاعي» (متى ٣: ٧).

أما المصلي الثاني فكان «عشّاراً» أي ملتزم جمع الأعشار (الضرائب). وكان المجتمع اليهودي يحتقر العشار ويعتبره خائناً لوطنه ودينه، لأنه يجمع من المواطنين ضرائب أكثر من المفروض عليهم، ثم يقدم بعض ما يجمعه للرومان المستعمرين. فكان اليهود يبغضون العشارين ويمنعونهم من دخول الهيكل والمجامع والاشتراك في الصلاة.

بين هذين الشخصين المذكورين في المثل وجها شبه، فهما متماثلان في أصلهما، فكلاهما «إنسان». وكلاهما «صعدا ليصلّيا». لكنهما كانا مختلفين في أمرين: في نظر المجتمع، وفي تقدير كلٍّ منهما لذاته، فالفريسي في نظر اليهود عامود الدين، ووطني مخلص، أما العشار فهو اللص الخائن لأهله ووطنه.. والفريسي معتزٌّ غاية الاعتزاز بنفسه، يقف في مكان الصدارة في الهيكل مصلياً «في نفسه» منفصلاً عن سائر العابدين ومغترباً عن الله، يرفع أقوال الفم لا عبادة القلب، فيمدح نفسه وكأن الرب

لا يعرف ما بداخله، ويُسقط خطاياه على الآخرين، ويتبرّر على تقواه ويبرِّر نفســـه متأكداً أنه في غير حاجة للغفران الإلهي! صحيـحٌ أنه «صعد إلى الهيكل» لكن صعوده كان جغرافياً فقط، لأن الهيكل كان على تل، لكنه لم «يصعد» روحياً، ولا ارتفعت نفسه لتتّجه إلى الله، مع أنه العارف بالقول: «هلمَّ نصعد إلى جبل الرب وإلى بيت إله يعقوب، فيعلِّمنا من طرقه ونسلك في سبله» (ميخا ٤: ٢).

أما العشار فوقف من بعيد كأنه أبرص، وفي تواضع كامل وإحســـاس بالذنب لم يشأ أن يرفع عينيه نحو السماء، ولو أنه رفع قلبه لله في صلاة اعتراف طالباً الرحمة والغفران.

وقد اختلفت نتيجة صلاتيهما وتقييم الرب لهما، فلم يتبرر الفريسي، بينما نزل العشار إلى بيته مبرراً «لأن من يـــكتم خطاياه لا ينجح، ومن يُقرُّ بها ويتركها يُرحَم» (أمثال ٢٨: ١٣)، ولأن «كل من يرفع نفسه يتّضع، ومن يضع نفسه يرتفع».

أولاً - صلاة من يرفع نفسه

١ - من يرفع نفسه يظن أنه بار:

كان مفهوم البر عند الفريسي أنه يحفظ الشريعة وينفذ الوصايا، فرأى نفسه كامل البر لأنه في أصله عبراني مختون، وفي عمله تقي فاضل، وهو يـــعمل بكل الوصايا منذ حداثته، فصلى وكأنه يقول: «يا رب، أنـت تطلب صوم يوم واحد في السنة، هو يوم الكفارة العظيم، الذي فيه نذلل نفوسنا (لاويين ١٦: ٢٩-٣٤)، أما أنا فأصوم مرتيـن في الأسـبوع.. وأنت يا رب تطلب عشور المزروعات والبهائم فقط (كما جاء في تثنيـــة ١٤: ٢٢، ٢٣) أما أنا فأعشِّر كل ما أقتنيه. أنا أحفظ الناموس، ولا شك أن لي كل حقوق الفريســـي التقي المنعزل عن ســـائر البشر».. وقد خلت هذه الصلاة من أي شعور بالتقصير أو الذنب. إنها بليـــغة اللغة منمّقة الكلمات، ولعل الفريســـي لو عاد في يومه ذلك إلى الهيكل ليصلي لكرَّر ذات هذه الكلمات العامرة بالكبرياء، الخالية من مخافة الله!

٢ - من يرفع نفسه يفتخر:

عندما دخل الفريـــســـي الهيكل تقدم إلى الأمام ليحتلَّ المركز الأول لأنه شعر بالتفوُّق على الباقين. وقف «يصلي في نفســه» من نفســـه، إلى نفسه، عن نفسه! فكانت صلاته صلاة افتخار بنفسه يرويها لنفسه، ذكر فيها اسم الله مرة واحدة، وأشار إلى نفسه ثلاث مرات!

ولم يكن هذا الفريســـي مختلفاً عن زملائه الفريسيين في روحه المتعالية، فقد قال الفريسي «سمعان بن يـوكي»: «إن كان هناك باران في الـعالـم فهما أنا وابني. أما إذا كان هناك بار واحد فهو أنا!». وكانت صلاتهم اليـوميـــة: «أشكرك لأنك خلقتني يـــهودياً لا أممياً، حراً لا عبداً، رجلاً لا امرأة». أما المرأة اليـــهودية فكانت تصلي: «اللهم أشكرك لأنك خلقتني هكذا!». وســجل «بيراكوث» صلاة رفعها

فريســـي عام ٧٠م تقول: «اللهم، أشكرك لأنك أعطيتني مكاناً للجلوس في بيتك للدرس، فلســـت ممن يجلسون في زوايا الشوارع. أنا أستيقظ مبكراً وهم يستيقظون مبكرين، لكني أبكر لأدرس الناموس وهم يـبكرون للعمل الباطل. أنا أشتغل وهم يشتغلون، لكني أشتغل لنوال مجازاة، وهم يشتغلون بلا فائدة. أنا أحيا وهم يحيون، لكني أحيا وغايتي الحياة في العالم الآتي، وهم يحيون ونهايتهم حفرة الهلاك».

٣ - من يرفع نفسه يحتقر الآخرين:

قـال «أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس» ووصفهم بأنهم خاطفون ظالمون زناة. ثم قال: «ولا مثل هذا العشار». وكأنه يـــقول: «كلهم خطاة، أما أنا فأفضل منهم جميعاً!». صحيحٌ أنه لا يخطف ولا يظلم ولا يـزني ولا يسلب الناس، ولكن خطيته الكبرى كانت الكبرياء! لقد رأى نفسه غنياً بأعماله الصالحة وقد اسـتغنى. ولكنه في نظر الرب فقيـر وأعمى وعريـــان، يحتاج أن يطلب من الله ذهباً مصفى بالنار لكي يستغني، وثياباً بيضاً لكي يلبس، وكُحلاً يكحل به عينيه لكي يبصر نفسه على حقيقتها (رؤيا ٣: ١٧، ١٨).

قارن الفريســـي نفســـه بالخطاة، فوجد نفسه متديِّناً، سليل عائلة من المتدينين العظماء، فلم يرَ عنده احتياجاً يطلب من الرب أن يســـدده، ولا تقصيراً أو إهمالاً يكمله، مع أن الصوت الإلهي يقول له: «لا يـفتخرنَّ الحكيم بحكمته، ولا يفتخر الجبار بجبروته، ولا يفتخر الغني بغناه. بل بهذا ليفتخرنَّ المفتخِر: بأنه يـفهم ويـــعرفني أني أنا الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض، لأني بهذه أُســرُّ يقول الرب» (إرميا ٩: ٢٣، ٢٤).

وفي احتقاره للآخريـــن نصَّب نفســـه قاضياً على ضمائرهم وأصدر حكمه الظالم عليهم، فقال عن الـعشار: «هذا». وهو ما قاله الابن الأكبر لأبيه عن أخيه الضال الراجع: «ابنك هذا» (لوقا ١٥: ٣٠). وكان الكتبة والفريســـيون قد أصدروا حكماً ظالماً على اليهود الذين آمنوا بالمسيح، فقالوا عنهم: «هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون» (يوحنا ٧: ٤٩)، ناسين الحكمة القائلة: «مَن أنت يا مَن تدين عبد غيرك؟ هو لمولاه يثبت أو يسقط. ولكنه سيثبَّت، لأن الله قادر أن يثبته» (رومية ١٤: ٤).

٤ - من يرفع نفسه لا يعترف بخطاياه:

تقدَّم الفريســـي إلى الله بغير شعور بالحاجة إلى غفران، لأنه ظنَّ أنه اشترى ملكوت الله بما قام به من أصوام وما دفعه من تبرعات. لـكن ملـــكوت الله لا يـُشترى «لأنه لا فرق، إذ الجميـع أخطأوا وأعوزهم مجد الله. متبرِّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيســـوع المسيح، الذي قدَّمه الله كفارةً بالإيمان بدمه، لإظهار برِّه، من أجل الصفح عن الخطايا الســالفة بإمهال الله، لإظهار بره في الزمان الحاضر، ليكون باراً، ويبرِّر من هو من الإيمان بيسوع» (رومية ٣: ٢٢-٢٦).

إن الإنســان عاجز عن الـــحصول علـــى الغفران بمجهوده، لهذا دبَّر الله المحب فداء البشر بموت المســـيح على الصليب «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به

بل تكون له الحياة الأبدية» (يوحنا ٣: ١٦). ومع أن الصليب ترتيب إلهي، إلا أنه يشكِّل صخرة صدمةٍ وحجر عثرة لكثيرين، لأنه يعلن أن الإنسان خاطئ بطبيعته وبعمله، وهو لا يستطيع أن ينجي نفسه من العقاب، ولا يمكن أن ينال رضا الله مهما فعل. ومن المؤسف أن «كلمة الصليب عند الهالكين جهالة» لكننا نشكر الله لأنها «عندنا نحن المخلَّصين فهي قوة الله» (١كورنثوس ١: ١٨).

هذا المثَل يوبِّخ كل من يثق في صلاحه ويظن أنه يتبرر باجتهاده، فإن سبيل التبرير الوحيد هو الإيمان بما فعله المسيح على الصليب لأجل الخاطئ التائب، والذي كانت ذبائح العهد القديم رموزاً له. أما من يتكل على أعماله الصالحة فيشبه قدماء المصريين الذين كانوا يظنون أن الإله «أوزيريس» يزن أعمالهم الصالحة مقابل أعمالهم الشريرة، فمن رجحت كفة حسناته ينجو، ومن رجحت كفة سيئاته يهلك. ولا يمكن أن تزيد صالحاتنا على سيئاتنا لأن أعمالنا الشريرة ليست فقط ما نرتكبه من خطايا، بل ما لا نفعله من صلاح، فإن «من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطية له» (يعقوب ٤: ١٧). كما أننا «في أشياء كثيرة نعثر جميعنا» (يعقوب ٣: ٢). فكم مرة أهملنا من يحتاجون لمساعدتنا ونحن قادرون، وبخلنا عليهم بمالنا ووقتنا ونصيحتنا! و«إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات» (متى ٥: ٢٠).

ثانياً - صلاة من يضع نفسه

كان اليهود يسمّون العشارين «خطاةً» وينسبونهم إلى عابدي الوثن، بسبب ما كانوا يقاسونه من مضايقاتهم وتعنتهم وجبايتهم منهم أكثر مما يجب. وبالرغم من كل هذه الكراهية الموجَّهة إلى العشار فقد أحبه المسيح ورأى فيه إنساناً صعد ليصلي، قبل الله صلاته، فنزل إلى بيته مبرَّراً.

١ - من يضع نفسه يرى عدم استحقاقها:

صعد العشار من وهدة الخطية ليمثُل بين يدي الله القدوس، ووقف من بعيد لأنه أراد أن يتحاشى نظرات الناس إليه، ولأنه كان يطلب لقاءً شخصياً مع الله، وكله أمل في رحمته وغفرانه. وقد دفعه شعوره بالتقصير والخطية إلى الوقوف في خوف من الله، لاجئاً إلى مراحمه طالباً العفو، وهو يعلم أنه عاجز عن مساعدة نفسه، وأن لا سبيل للحصول على الغفران إلا بإنعامٍ إلهي.

ويالها من مفارقة بين الذي وقف قريباً من الهيكل فصار بعيداً عن الغفران، والذي وقف من بعيد تواضعاً وإحساساً بعدم الاستحقاق فصار قريباً، كما قيل: «أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح» (أفسس ٢: ١٣)، و«طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته. طوبى لرجلٍ لا يحسب له الرب خطية» (مزمور ٣٢: ١، ٢). «فانتُزِع إثمك وكُفِّر عن خطيتك» (إشعياء ٦: ٧). وكلمة «كفارة» مأخوذة عن العبرية «كافار» التي أخذت عنها الإنجليزية cover أي يغطي أو يستر. وينتفع بالكفارة

من يعرف عجزه ويعترف به. «الذي لا يعمل، ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر، فإيمانه يُحسب له براً، كما يقول داود في تطويب الإنسان الذي يحسب له الله براً بدون أعمال: طوبى للذين غُفرت آثامهم وسُترت خطاياهم» (رومية ٤: ٥-٧) كما آمن إبراهيم فحُسب إيمانه له براً (تكوين ١٥: ٦). إذا هي مسألة حسبان، لأن بر المسيح حُسب له، فمُحيت خطاياه الماضية وسُترت.

في أعماق الإنسان حاسة دينية تنبئه بأنه لا بد أن يقابل الله كديان، فقال المرنم: «لا تدخل في المحاكمة مع عبدك، فإنه لن يتبرر قدامك حي» (مزمور ١٤٣: ٢). والتفكير في الله الديان يملأ الخاطئ بالرعب. هذا ما حدث مع العشار ومع الابن الضال، الذي رجع إلى نفسه وإلى الله فقال لأبيه: «يا أبي، أخطأت إلى السماء وقدامك، ولست مستحقاً بعد أن أُدعى لك ابناً» (لوقا ١٥: ١٩). ومقابلة الديان العادل بالخاطئ الأثيم لا بد تنتج الحكم والإدانة. ولكن ما أرأف الرب الرحيم المنعم بالخلاص، الذي يلجأ إليه الإنسان المذنب الهالك فيوصف بالقول: «كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد» (لوقا ١٥: ٢٤).

٢ - من يضع نفسه يعترف بخطاياه:

شعر العشار بثقل خطيته، لهذا «وقف من بعيد.. لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء.. وقرع على صدره». كان يعترف بكل حواسه، فكانت قدماه مترددتين خوفاً من أن يدنس الهيكل، ولم يجرؤ على الركوع خشية أن ترفض السماء صلاته، وطأطأ رأسه ونظرت عيناه إلى الأرض خجلاً واتضاعاً، وقرع بيديه على صدره في إحساس باللوم والندم والتوبة الحقيقية، واعترف بلسانه «أنا» «ال» «خاطئ» لأنه رأى نفسه كما لو كان الشرير الوحيد الذي أخطأ إلى الله وإلى وطنه وإلى إخوته، وتذلل أمام الله ليقبل توبته، فعرف أنه «صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول: أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلِّص الخطاة الذين أولهم أنا» (١تيموثاوس ١: ١٥).

لم يفكر العشار في مركزه المالي مع أنه كان ثرياً، ولا اعتمد على مكانته السياسية، بالرغم من حماية الدولة الرومانية له والسلطة التي أعطتها له. لكنه رأى نفسه أرضياً زائلاً، محطماً كسيراً، شريراً دنساً، بدون مجد شخصي، لا رجاء له إلا في رحمة الرب وغفرانه، فدعا ربَّه «اللهم» كما دعا الفريسي «اللهم» ولكنه دعاه بقلب متضع: «ارحمني» مردداً صلاة جدِّه داود: «ارحمني يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ. اغسلني كثيراً من إثمي، ومن خطيتي طهِّرني، لأني عارف بمعاصيَّ، وخطيتي أمامي دائماً» (مزمور ٥١: ١، ٢).

٣ - من يضع نفسه يرفعه الله:

استُجيبت صلاة العشار لأنه وضع نفسه في صلاة شخصية، محددة الطلب، بثقة كاملة في الاستجابة، لأنه كان يعلم أن الله يراه ويسمعه ويستجيبه. دخل الهيكل مثقلاً بالذنوب وخرج منه مرفوعاً بالرحمة. دخل مرتعباً من الله وخرج فرحاً بمحبة الله ورضاه. دخل يقرع صدره وخرج يهتف «هللويا».

ولا يقول المســـيح في المثَل إن العشار «نزل باراً» بل يقول إنه «نزل مبرَّراً». فليس لدى الإنسان برٌّ مهما كانت تقواه! لكن العشار الخاطئ حصل على «التبرير» لأنه اعترف ولجأ مؤمناً بالوحيد القادر أن يبرره.

رفــع الفريسي نفسه وظن أنه صالح يستحق أن يتمتع بالبر الإلهي، فعمي عن حقيقة نفسه. لأنه «إن كان بالناموس بر فالمســـيح إذاً مات بلا سبب» (غلاطية ٢: ٢١). أما الذين يضعون أنفسهم، فيعترفون بخطيتهم كالعشار، ويخزون من عريهم كآدم وحواء، ويخجلون من رائحة الخنازير التي تفيح منهم مثل الابن الضال، فيــحولّهم التبريــر الســماوي من حالة المجرمين المطلوبين للقصاص إلى امتياز الأبناء المبررين الذين يتمتعون بغفران الله وســـلامه «لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان.. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد» (أفسس ٢: ٨، ٩).

فـلنجتهد أن نتقدم إلى عرش النعمة، لا كأتقياء، بل كخطاة يطلبون تبريره، ويعتمدون على المخلِّص الذي يــطهر ضمائرنا ويــغفر خطايــانا. وهذا هو الرجاء الذي يمنحه الإنجيل لنا، لأنه إنجيل البشارة المفرحة لجميــــع التائبين، فالمســـيح يقول: «لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (لوقا ٥: ٣٢)، والسبب واضح ومنطقي: «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى» (لوقا ٥: ٣١).

سؤالان

١ - لماذا رفض الله صلاة الفريسي، ولماذا قبل صلاة العشار؟

٢ - ما معنى كلمة «كفارة»؟ اذكر أساس التكفير عن الخطية.

(ب) تواضع السلوك

مثل المتكأ الأخير

وَقَالَ لِلْمَدْعُوِّينَ مَثَلاً، وَهُوَ يُلاحِظُ كَيْفَ اخْتَارُوا الْمُتَّكَآتِ الأُولَى: مَتَى دُعِيتَ مِنْ أَحَدٍ إِلَى عُرْسٍ فَلا تَتَّكِئْ فِي الْمُتَّكَإِ الأَوَّلِ. لَعَلَّ أَكْرَمَ مِنْكَ يَكُونُ قَدْ دُعِيَ مِنْهُ. فَيَأْتِيَ الَّذِي دَعَاكَ وَإِيَّاهُ وَيَقُولَ لَكَ: أَعْطِ مَكَاناً لِهَذَا. فَحِينَئِذٍ تَبْتَدِئُ بِخَجَلٍ تَأْخُذُ الْمَوْضِعَ الأَخِيرَ. بَلْ مَتَى دُعِيتَ فَاذْهَبْ وَاتَّكِئْ فِي الْمَوْضِعِ الأَخِيرِ حَتَّى إِذَا جَاءَ الَّذِي دَعَاكَ يَقُولُ لَكَ: يَا صَدِيقُ، ارْتَفِعْ إِلَى فَوْقُ. حِينَئِذٍ يَكُونُ لَكَ مَجْدٌ أَمَامَ الْمُتَّكِئِينَ مَعَكَ. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ (لوقا ١٤: ٧-١١).

جاء في التلمود اليهودي: «إذا وجدت ثلاثة أماكن في وليمة، فإن المكان الأوسط هو أفضلها، يليه المكان الذي عن اليمين، ثم المكان الذي عن اليسار». وذات يوم دعا أحد الفريسيين المسيح للطعام في بيته، فلاحظ كيف اختار المدعوون أماكن الصدارة الأولى، فقدَّم نصيحته الحكيمة وهي أن يختار الضيف المكان الأخير، وعلّق على هذا بالقول: «كل من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع».

ولا زال المسيح يراقب البشر ويضعهم تحت ملاحظته ليرى ماذا يْختارون، لأن اختيارهم يكشف عما في قلوبهم من كبرياء أو تواضع، قسوة أو رحمة، كراهية أو حب. فتصرفات الإنسان تكشف ما يكمن في أعماقه، كما أن ما ينطق به اللسان يكشف مكنونات القلب.. وقد جلس المسيح مرةً تجاه الخزانة التي يضع فيها العابدون عطاياهم، وأخذ يراقب «كيف يلقي الجمع نحاساً في الخزانة». لم يراقب «كم» يلقون، بل «كيف» يلقون (مرقس ١٢: ٤٢) «لأن عيني الرب تجولان في كل الأرض ليتشدَّد مع الذين قلوبهم كاملة نحوه» (٢أخبار ١٦: ٩).

ولا شك أن الضيف الذي يختار المتكأ الأول حول مائدة الطعام يفعل هذا لأنه يشعر أنه أعظم من غيره، وأنه أجدر بالمكانة المتقدّمة، لأنه سبق أن تعلم أن التواضع صفة مكروهة لأنها صفة العبيد. ولكن المسيح علَّمنا التواضع بمثاله وكلامه، فقد وُلد في مذود بسيط مع أنه الملك، ولم يكن له أين يسند رأسه مع أنه رب المسكونة والساكنين فيها (متى ٨: ٢٠). ثم علَّم أن الخير والكرامة يبدآن بالتواضع واختيار المكان الأخير، فينال المدعوّ الرفعة. وهذا خيرٌ من البدء بالكبرياء واختيار المكان الأول، فيصيب المدعوَّ الخزيُ والخجل، وهو ما قاله الحكيم: «لا تتفاخر أمام الملك، ولا تقف في مكان العظماء، لأنه خيرٌ أن يُقال لك: ارتفع هنا، من أن تُحطَّ في حضرة الرئيس الذي رأته عيناك» (أمثال ٢٥: ٦، ٧).. وهو ما قاله الرسول بولس: «مقدِّمين بعضكم بعضاً في الكرامة.. مهتمّين بعضكم لبعض اهتماماً واحداً، غير مهتمين بالأمور العالية، بل منقادين إلى المتّضعين. لا تكونوا حكماء عند أنفسكم» (رومية ١٢: ١٠، ١٦).. وما قاله الرسول بطرس: «كونوا جميعاً خاضعين بعضكم لبعض، وتسربلوا بالتواضع،

لأن الله يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة. فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه» (١بطرس ٥: ٥، ٦).. وما أعلنته العذراء المطوّبة: «شتّت المستكبرين بفكر قلوبهم. أنزل الأعزّاء عن الكراسي ورفع المتّضعين. أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لوقا ١: ٥١-٥٣).

ولا زلنا نحتاج إلى هذا الدرس، فأولادنا يحبون الجلوس في مقعد السيارة الأمامي، أو إلى جوار النافذة لأنه الأفضل في نظرهم، والمتحدثون يذكرون مفاخرهم ونواحي قوتهم وما قدموه للفقراء وما خدموا به مجتمعهم وكنيستهم. لذلك قال المسيح: «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لينظروكم.. فمتى صنعت صدقةً فلا تصوّت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقة، لكي يُمجّدوا من الناس» (متى ٦: ١، ٢).

ولم يكن المسيح هنا يعلّم آداب السلوك، بل كان ينادي بتغيير دوافع البشر الداخلية التي تصنع السلوك، فالطبيب لا يهتم أولاً بارتفاع درجة حرارة المريض، بل بعلاج أسباب ارتفاعها. فليست المشكلة في اختيار المكان الأول للجلوس، لكن في نيّة وأفكار القلب المتكبّر المتعالي على الآخرين.

ويقدم الكتاب المقدس لنا شخصيات عظيمة متواضعة مع أن الله منحها كل شيء بسخاء، فموسى الذي مكث في حضرة الرب وقتاً طويلاً حتى انعكست نعمة الله على وجهه ببهاء، فصار وجهه يلمع حتى خاف الشعب أن يقتربوا إليه لم يكن يعلم أن جلد وجهه صار يلمع (خروج ٣٤: ٢٩).

ويوحنا المعمدان الذي قال عنه المسيح إنه أعظم المولودين من النساء (متى ١١: ١١) تواضع وأنكر ذاته وقال عن نفسه «أنا صوتُ صارخٍ في البرية» (يوحنا ١: ٢٣) فاعتبر نفسه مجرّد صوت! وقال عن المسيح: «هو الذي يأتي بعدي، الذي صار قدامي، الذي لست بمستحقٍّ أن أحلَّ سيور حذائه» (يوحنا ١: ٢٧). وعندما تركه تلاميذه ليتبعوا المسيح لم يتذمر ولم تُجرح كبرياؤه، بل قال: «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع» (يوحنا ٣: ٣٠ ، ٣١).

ونرى في الرسول بولس صورة حية للتواضع وهو يقول: «بولس، عبد الله ورسول يسوع المسيح لأجل إيمان مختاري الله» (تيطس ١: ١) «أنا بولس أسير المسيح يسوع لأجلكم.. أنا أصغر جميع القديسين» (أفسس ٣: ١، ٨). «لأني أصغر الرسل، أنا الذي لست أهلاً لأن أُدعى رسولاً» (١كورنثوس ١٥: ٩). ومع أن الله ميّزه بالصعود إلى الفردوس حيث سمع كلمات لا يُنطَق بها، إلا أنه لم يرتفع بفرط الإعلانات، وقال: «من جهة هذا أفتخر. ولكن من جهة نفسي لا أفتخر إلا بضعفاتي» (٢كورنثوس ١٢: ٤-١٠).

كل هؤلاء تتلمذوا على يد معلم صالح متواضع، قدم نفسه نموذجاً لما علّم به، فغسل أرجل تلاميذه «قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أحبَّ خاصتَه الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى- يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه، وأنه

من عند الله خرج، وإلى الله يـــمضي، قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها، ثم صبَّ ماء في مغســل وابتدأ يغســل أرجل التلاميذ ويمســـحها بالمنشفة التي كان متزراً بها.. فلما كان قد غسل أرجلهم وأخذ ثيابه واتكأ أيضاً قال لهم: أتفهمون ما قد صنعتُ بكم؟.. فإن كنتُ وأنا الســـيد والمعلّم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض» (يوحنا ١٣: ١، ٣-٥، ١٢، ١٤).

فلنتضع أمامه لأننا لن ننسى اتضاعه، لأنه ترك لنا مثالاً لكي نتَّبع خطواته (١بطرس ٢: ٢١)

أولاً - مساوئ رفع النفس

١ - تحذيرات الوحي من رفع النفس:

رفع النفس كبريـــاء وتعظُّماً خطيـــة كبيرة، حذرنا المســيح منها بقوله: «تحرَّزوا من الكتبة الذين يـــرغبون المشي بالطيالسة، والتحيات في الأسواق، والمجالس الأولى في المجامع، والمتكآت الأولى في الولائم» (مرقس ١٢: ٣٨، ٣٩). ومع أن الكتبة كانوا أســـاتذة الشريـــعة ومفســّريـــها إلا أنهم رفعوا نفوســـهم، وأرادوا أن يـــحتلوا المراكز الأولى، وأطالوا صلواتهم أمام الناس ليـُـظهروا تقواهم فينالون المديح، فقال المســيح لهم: «ويل لكم أيها الكتبة والفريســـيون المراؤون، لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلّة تطيلون صلواتكم. لذلك تأخذون دينونة أعظم» (متى ٢٣: ١٤).

كانت خطية الكبرياء ســـبب سقوط أبوينا الأولين، إذ عصيا الرب وأطاعا نصيحة الحية التي قالت لهما: «يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتكونان كالله عارفين الخير والشر» (تكوين ٣: ٥). ولهذا حذَّرنا الـــوحي بالقول: «هكذا قال العليُّ المرتفع، ســاكن الأبد، القدوس اســمه: في الموضع المرتفع المقدس أســكن، ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأحيي روح المتواضعين، ولأحيي قلب المنسحقين» (إشعياء ٥٧: ١٥)، فقلب الرب القدوس، صاحب المكان العالي، نحو المســكين بالروح ليحييه، ونحو المتواضع ليرفعه، و«طوبى للمســاكين بالروح لأن لهم ملكوت الســماوات» (متى ٥: ٣). أما عن المتكبر فيقول المرنم: «مستكبر العين ومنتفخ القلب لا أحتمله.. لأن الرب عالٍ ويرى المتواضع، وأما المتكبر فيعرفه مـن بعيد» (مزمور ١٠١: ٥، ١٣٨: ٦)، لأن رائحة كبريائه تزكم الأنوف! لهذا قال المسيح: «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه.. ويتبعني» (لوقا ٩: ٢٣).

وللإمام الحكماء أقوال عظيـــمة عن خطورة الكبريـــاء، منها: «أبغضتُ الكبرياء، والتعظُّم، وطريق الشر، وفم الأكاذيـــب» (أمثال ٨: ١٣) و«تأتي الكبرياء فيأتي الهوان، ومع المتواضعين حكمة» (أمثال ١١: ٢) و«الـــخصام إنما يصير بالكبرياء» (أمثال ١٣: ١٠) و«الرب يقلع بيت المتكبرين» (أمثال ١٥: ٢٥) و«قبل الكســر الكبرياء، وقبل السقوط تشامخ الروح» (أمثال ١٦: ١٨) و«أرأيت رجلاً حكيماً في عيـــني نفســـه؟ الرجاء بالجاهل أكثر من الرجاء به!» (أمثال ٢٦: ١٢). و«كبريـــاء الإنســـان تضعه، والوضيع الروح ينال مجداً» (أمثال ٢٩: ٢٣).

٢ - رفع النفس يضع النفس:

الذي يـرفع نفسـه يعطيها مكاناً ليس من حقها، لأن الرفعة لله وحده. وقد صوَّر الواعظ الشهير «بل برايت» الكبرياء بأنها وضع الذات على عرش القلب، بينما المسـيح على الصليب. وصوَّر التواضع بأنه المسـيح يتربَّع على عرش القلب، بينما الذات على الصليب. فإن الكبرياء تقطع صلة المتكبر بالله وتجلب عليـه تأديبه «فإن لرب الجنود يوماً على كل متعظم وعالٍ وعلى كل مرتفع فيوضع» (إشعياء ٢: ١٢). ويستجيب الله ما طلبه أيوب: «انظر إلى كل متعظم وذلّله، ودس الأشرار في مكانهم» (أيوب ٤٠: ١٢).

ومن مشكلات المتكبِّر أنه يحب الذين يرضونه ويمدحونه ويتوافقون معه، ويُعرِض عمَّن يعارضونه أو يـقدمون له النصيحة، فالكبرياء غرور وسـوء تقييم للنفس.. يعطي الربُّ الإنسـان نجاحاً فينسـى صاحب الفضل، ويعزو النجاح لذكائه وقدراته ومواهبه الطبيعية. ولكن عندما تأتي ساعة التجربة يدرك المتكبر من هو المعطي الجواد.

ورفـع النفس أسرع طريق لضعة النفس والأسرة، فإذا تكبَّر أحد الزوجين على شريك الحياة وافتخر بماله أو جاهه، فإنه يُضعِف المحبة في شريـكه أو يقتلها، ويفرِّق أبناءه عن طاعته وطلب مشورته، ويجلب النكد على أسرته.

كما أن رفع النفس يؤدي إلى انهيار الممالك وسقوط الحكام. قال فرعون: «من هو الرب حتى أسمع لـقولـه فأطلق إسـرائيـل؟ لا أعرف الربَّ، وإسـرائيـل لا أطلقه» (خروج ٥: ٢) فحلَّت الكوارث بالمصريين، ومات بكر فرعون، وغرق جيشه فلم يبق منهم واحد (خروج ١٤).

وعندما انتصر بنو إسرائيل على أريحا ارتفعوا في نظر أنفسهم، ونتيجة لاستكبارهم ذهبوا ليهاجموا مـدينة عاي وقالوا لقائدهم يشوع: «لا يصعد كل الشعب، بل يصعد نحو ألفي رجل أو ثلاثة آلاف رجل ويضربوا عاي. لا تكلِّف كل الشعب إلى هناك، لأنهم (أهل عاي) قليلون». فصعد من الشعب إلى هناك نحو ثلاثة آلاف رجل، فهزمهم أهلُ عاي (يشوع ٧: ٣، ٤). فاتضعوا لأنهم ارتفعوا في نظر أنفسهم!

وهذا ما جرى لنبوخذنصر الذي قال: «أليسـت هذه بابل العظيمة التي بنيتها بقوة اقتداري ولجلال مجدي؟» فأزال الرب المُلك عنه، وطُرد من بين الناس وأكل العشب مع الحيوان، حتى تعلم أن «العليَّ» متسلطٌ في مملكة الناس، يعطيها من يشاء. وأدرك قوة الرب وعظمته ورحمته، فقال: «أنا نبوخذنصر رفعتُ عينيَّ إلى السـماء، فرجع إليَّ عقلي وباركت العلي وسـبحت وحمدت الحيَّ إلى الأبد، الذي سلطانه سلطان أبدي وملكوته إلى دور فدور.. وهو يفعل كما يشاء في جند السـماء وسكان الأرض.. فالآن.. أسبِّح وأعظم وأحمد ملك السماء، الذي كل أعماله حق وطرقه عدل، ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر على أن يذله» (دانيال ٤: ٢٨-٣٧).

وقد هلك الملك هيـرودس الذي في يـوم معيَّن، لعله عيد ميلاده، لبس الحلة الملوكية وجلس على كرسـي المُلك يخاطب الشعب. فصرخوا: «هذا صوت إله لا صوت إنسان!» ففي الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعطِ المجد لله، فصار يأكله الدود ومات» (أعمال ١٢: ٢١، ٢٢).

ثانياً - بركات وضع النفس

كل من يـضع نفسـه ويأخذ الموضع الأخير ينال الرفعة، ويُقال له: «يا صديق، ارتفع إلى فوق!.. لأن كل من يرفع نفسـه يتضع ومن يضع نفسـه يرتفع». وما أجمل الوصية: «أن لا يرتئي (الإنسان) فوق ما ينبغي أن يرتئي، بل يرتئي إلى التعقّل، كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان» (رومية ١٢: ٣). «فإنك حينئذ تتلذّذ بالرب، وأُركّبك على مرتفعات الأرض» (إشعياء ٥٨: ١٤).

١ - نصائح الوحي بوضع النفس:

يـقدم الوحي المقدس لنا المسـيح نموذجاً في التواضع الذي يرفع صاحبه، فقد دخل وهو الملك عالمنا مولوداً من عذراء فقيرة في مذود، إذ لم يكن له موضع في المنزل، وبذل نفسه لأجلنا على الصليب مسحوقاً لأجل معاصينا، فجعلنا نطيع قوله: «تعلّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسـكم» (متى ١١: ٢٩)، ونجتهد أن نطبّق النصيحة الرسـولية: «لكم محبة واحدة بنفس واحدة، مفتكرين شيئاً واحداً، لا شيئاً بتحزّبٍ أو بعُجب، بل بتواضع، حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم. لا تنظروا كل واحد إلى ما هـو لنفسه، بل كل واحد إلى ما هو لآخرين أيضاً. فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً، الذي إذ كان في صورة الله لم يحسـب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجد في الهيئة كإنسـان وضع نفسـه وأطاع حتى الموت، موت الصليب. لذلك رفّعه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب» (فيلبي ٢: ٢-١١).

٢ - ما يساعدنا على وضع النفس:

يسـاعدنا تقييمنا الواقعي لنفوسـنا على التواضع، لأن الإنسان يميل إلى تقييم ذاته بأفضل مما هي عليه، وقد يكون في هذا التقييم الخاطئ مخلصاً أشد الإخلاص، كما قال بطرس للمسيح: «وإن شكَّ فيك الـجميع فأنا لا أشكّ أبداً» مع أن المسيح سبق وقال: «كلكم تشكون فيَّ في هذه الليلة، لأنه مكتوب: أني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعيـة» (متى ٢٦: ٣١، ٣٣). ومع أننا نجد الكثيـرين يقيّمون ذواتهم تقييماً عالياً لا يتفق مع الواقع، إلا أننا نجد البعض يُنقِص من قدر نفسـه فيعذبه الإحساس بالدونية. وما أقل من يقيّمون نفوسهم تقييماً صحيحاً.

ولا يمكن أن يكون الإنسان متواضعاً إلا إن كان عظيماً حقاً. فالكبرياء تعبير النفس التي تخشى عدم احترام الآخرين، والتي لا تقدّر نفسـها، فتريد أن تفرض نفسـها على المحيطين بها. ولكن لو عرف المؤمن أنه ملح الأرض، وأنه نور للعالم، لامتلأت نفسـه بالإحسـاس بالقيمة التي تعلّمه التواضع. ولا يوجد من يسـتحق أن يكون عظيماً إلا الذي فتح قلبه للمسيح فأصبح هيكلاً للروح القدس، ينتمي للرب الذي دُعي اسمه عليه، فالرب دائماً يميّز تقيّه (مزمور ٤: ٣).

وأذكر ثلاثة عوامل مساعدة تعيننا لنتواضع:

(أ) نقيِّم أصلنا: يجيء البشر من خلفيات مختلفة، وينشأون في عائلات غنية أو فقيرة، متعلمة أو بسيطة، فهُم يختلفون في مراكزهم الاقتصادية والعلمية. لكنهم جميعاً يتشابهون في أنهم تراب، وإلى تراب يعودون، فقد جبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حيَّة (تكوين ٢: ٧ و٣: ١٩). وعند الموت «يرجع التراب إلى الأرض كما كان، وترجع الروح إلى الله الذي أعطاها» (جامعة ١٢: ٧). وقد قال المرنم: «لأنه يعرف جبلتنا. يذكر أننا تراب نحن. الإنسان مثل العشب أيامه. كزهر الحقل كذلك يزهر. لأن ريحاً تعبر عليه فلا يكون، ولا يعرفه موضعه بعد» (مزمور ١٠٣: ١٤-١٦). فلنذكر أصلنا لنتواضع!

(ب) نقيِّم ما عندنا: عائلة وعِلم ومواهب ومال، وكلها من عطايا الله لنا «لأنه من يميِّزك؟ وأي شيء لك لم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟» (١كورنثوس ٤: ٧). ولنسمع تقييم الرسول بولس للمؤمنين: «فانظروا دعوتكم أيها الإخوة: أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد، ليس كثيرون أقوياء، ليس كثيرون شرفاء. بل اختار الله جُهّال العالم ليُخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليُخزي الأقوياء.. لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه.. حتى كما هو مكتوب من افتخر فليفتخر بالرب» (١كورنثوس ١: ٢٦-٣١).

(ج) نقيِّم حالنا الروحي: يظن كثيرون أنهم يؤدون كل الطقوس الدينية الواجبة، مثل الشاب الغني الذي سأل المسيح: «أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟» فأجابه: «أنت تعرف الوصايا». فقال له: «يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي!» ولكنه عند الامتحان اغتمَّ من أوامر المسيح ومضى حزيناً! (مرقس ١٠: ١٧-٢٢). ويرجع سبب هذا الغم إلى تقييم النفس تقييماً روحياً خاطئاً.

فلنحترس من أن نقيس قامتنا الروحية بالتقييم المبالغ فيه لأنفسنا، أو بالبشر الناقصين مثلنا. ولنسع للنمو في النعمة «إلى أن ننتهي جميعنا إلى قياس قامة ملء المسيح» (أفسس ٤: ١٣) الذي قال: «متى فعلتم كل ما أُمرتم به، فقولوا: إننا عبيدٌ بطالون، لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا» (لوقا ١٧: ١٠). فعلى كل من يحتل مركزاً قيادياً في الكنيسة أن يقول إنه «عبدٌ بطال»، وهكذا يجب أن يقول كل الأعضاء البارزين والمترددين على الكنائس، لأننا نعرف أنه «لا فرق، إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله، متبرِّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رومية ٣: ٢٢-٢٤). ولنقل دائماً إننا خطاة مخلَّصون بالنعمة.

سؤالان

١ - لماذا يقيِّم معظم الناس نفوسهم بأعظم من واقعهم؟

٢ اذكر ثلاثة أمور تساعد الإنسان أن يضع نفسه.

٣ – ضرورة الغفران

مثل العبد الذي لم يرحم

تَقَدَّمَ إِلَيْهِ بُطْرُسُ وَقَالَ: يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ؟ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: لا أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّاتٍ بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّاتٍ. لِذَلِكَ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَاناً مَلِكاً أَرَادَ أَنْ يُحَاسِبَ عَبِيدَهُ. فَلَمَّا ابْتَدَأَ فِي الْمُحَاسَبَةِ قُدِّمَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مَدْيُونٌ بِعَشْرَةِ آلافِ وَزْنَةٍ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمَرَ سَيِّدُهُ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلادُهُ وَكُلُّ مَا لَهُ وَيُوفَى الدَّيْنُ. فَخَرَّ الْعَبْدُ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً: يَا سَيِّدُ، تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ. فَتَحَنَّنَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْعَبْدِ وَأَطْلَقَهُ وَتَرَكَ لَهُ الدَّيْنَ. وَلَمَّا خَرَجَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِداً مِنَ الْعَبِيدِ رُفَقَائِهِ كَانَ مَدْيُوناً لَهُ بِمِئَةِ دِينَارٍ، فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بِعُنُقِهِ قَائِلاً: أَوْفِنِي مَا لِي عَلَيْكَ. فَخَرَّ الْعَبْدُ رَفِيقُهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ قَائِلاً: تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ. فَلَمْ يُرِدْ بَلْ مَضَى وَأَلْقَاهُ فِي سِجْنٍ حَتَّى يُوفِيَ الدَّيْنَ. فَلَمَّا رَأَى الْعَبِيدُ رُفَقَاؤُهُ مَا كَانَ حَزِنُوا جِداً. وَأَتَوْا وَقَصُّوا عَلَى سَيِّدِهِمْ كُلَّ مَا جَرَى. فَدَعَاهُ حِينَئِذٍ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ كُلُّ ذَلِكَ الدَّيْنِ تَرَكْتُهُ لَكَ لأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ، أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟. وَغَضِبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَتَّى يُوفِيَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ. فَهَكَذَا أَبِي السَّمَاوِيُّ يَفْعَلُ بِكُمْ إِنْ لَمْ تَتْرُكُوا مِنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ لأَخِيهِ زَلاتِهِ (متى ١٨: ٢١–٣٥).

مناسبة رواية المثل:

روى المسيح هذا المثَل بمناسبة سؤال أثاره بطرس بعد أن سمع تعليماً عميقاً عن الغفران، قال فيه المسيح: «إن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. إن سمع منك فقد ربحت أخاك. وإن لم يسمع فخُذ معك أيضاً واحداً أو اثنين، لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منهم فقُل للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشار» (متى ١٨: ١٥–١٧). فسأل بطرس: «كم مرة يخطئ إليَّ أخي وأنا أغفر له؟ هل إلى سبع مرات؟».

ولعل عدة أفكار كانت تجول في فكر بطرس وهو يثير السؤال، ربما كان أولها التعليم الذي سبق أن سمعه من المسيح: «إن أخطأ إليك أخوك فوبِّخه. وإن تاب فاغفر له. وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم، ورجع إليك سبع مرات في اليوم قائلاً: أنا تائب، فاغفر له» (لوقا ١٧: ٣، ٤) فسأل عن عدد مرات الغفران.. وربما كان يفكر في تعليم رجال الدين اليهود الذين قالوا إن الحد الأقصى لمرات الغفران هو ثلاث، اعتماداً على قول أليهو: «هوذا كل هذه يفعلها الله مرتين وثلاثاً بالإنسان ليردَّ نفسه من الحفرة، ليستنير بنور الأحياء» (أيوب ٣٣: ٢٩، ٣٠). فضرب بطرس الثلاثة في اثنين وأضاف واحداً، جاعلاً الحدَّ الأقصى لعدد مرات الغفران سبعاً.. وربما كان يفكر في كلمات الرب على فم النبي عاموس: «من أجل ذنوب .. الثلاثة والأربعة» وقد تكرر هذا التعبير ثماني مرات في الأصحاحين

الأول والثاني من نبوّة عاموس. فجمع بطرس الثلاثة والأربعة، جاعلاً الحدَّ الأقصى لعدد مرات الغفران سبعاً.. أو ربما كان بطرس متأثراً بأن السبعة عدد مقدس، فظنّ الحدَّ الأقصى لعدد مرات الغفران سبعاً.

وكان جواب المسيح على تساؤل بطرس: «لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات». ولم يقصد المسيح بهذه الإجابة تحديد رقم ٤٩٠، بل قصد إطلاق الغفران بدون حدود كما أن الله يغفر بلا حدود، لأن الذي يحاول أن يحصي أخطاء شخص حتى ٤٩٠ مرة يناله التعب والملل، فيتوقف، ويحوّل تفكيره من إحصاء السلبيات إلى الغفران والمسامحة. ثم روى المسيح هذا المثل لبطرس ولنا.

شخصيات المثل:

نلتقي في هذا المثل بثلاث شخصيات رئيسية: الأولى شخصية الملك الذي أقرض أحد وزرائه مبلغاً كبيراً جداً، لا بد أنه اتفق معه على استثماره ليعود عليه بالربح.. والشخصية الثانية هي شخصية الوزير الطموح الذي لا بد عمل دراسة جدوى لمشروع عظيم، وجد نفسه عاجزاً عن تدبير المال اللازم له، فطلب من الملك الذي أقرضه عشرة آلاف وزنة. ولكن مشروع الوزير لم ينجح، فخسر أموال الملك وعجز عن السداد، فسامحه الملك.. والشخصية الثالثة لرفيق الوزير الذي كان مديوناً له بدَيْنٍ بسيط عجز أيضاً عن الوفاء به، فغضب الوزيرالدائن على رفيقه المدين، وأمر ببيعه هو وامرأته وأولاده وكل ما يمتلك ليسدد الدين الصغير!

ويقدم المثَل لنا أيضاً مجموعةً من الزملاء الذين كانوا يشاهدون هذه الأحداث، مندهلين من كرم الملك ورحمته مع الوزير المديون، وحزانى على قرار بيع الرفيق العاجز عن السداد، فرفعوا الأمر كله للملك، الذي قال قولته العظيمة: «أيها العبد الشرير، كل ذلك الدَّين تركته لك لأنك طلبت إليَّ! أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا؟». ثم أمر بتوقيع العقاب على الوزير الذي لم يرحم.

ولنا في هذا المثل ثلاثة دروس:

أولاً - إفلاسنا الروحي

هذا ملكٌ عظيم أعطى الوزير مبلغاً، تظهر ضخامته لو عرفنا أن قيمة الضرائب السنوية التي تدفعها أقاليم اليهودية، وأدوم، والسامرة، والجليل، وبيرية، مجتمعةً معاً كانت ٨٠٠ وزنة، أي أقل من عُشر دين الوزير. ولو تذكرنا أن كل الذهب المستخدم في عمل التابوت كان أقل من ٣٠ وزنة (خروج ٣٨: ٢٤). أما ملكة سبا فقد قدمت هدية كبيرة لسليمان بلغت ١٢٠ وزنة (١ملوك ١٠: ١٠). واستأجر أمصيا ملك يهوذا من يوآش ملك إسرائيل مئة ألف جندي مدرَّب، وُصفوا بأنهم «جبارو بأس» مقابل مئة وزنة فضة (٢أيام ٢٥: ٦).

وتتضح عظمة الدَّين أيضاً من القول إنه إذا حمل الرجل ٦٠ رطلاً من الذهب، فسنحتاج إلى ٨٦٠٠ رجلاً ليحملوا العشرة آلاف وزنة! بينما يحمل رجل واحد مئة دينار في جيبه، فالدينار أجر عامل في اليوم.

لقد كان الملك سـخيـاً في عطائه، كريماً في معاملاته مع وزيره، فلم يمسك ماله عنه ولم يطلب منه ضماناً لأنه عبده الذي يثق فيه، فأعطاه الفرصة أن يستثمر ويربح لنفسه وعائلته، ويحقق منفعة لمن يعملون في مشروعه وللمجتمع الذي يـعيش فيه. لكن الوزير لم ينجح، ولم يحقق وعوده للملك، وعجز عن الوفاء حتى بأصل الدين! فكان للملك أن يأمر بسـجنه أو يسامحه. وسجد الرجل وطلب مهلة للسداد. ورأى الملك عجز وزيره، فرحمه وأطلقه حراً.

وقد روى المسـيح هذا المثل ليعلمنا عظمة عطاء الله لنا، فهو «الإله الحي الذي خلق السـماء والأرض والبحر وكل ما فيـها.. وهو يـفعل خيـراً: يعطينا من السـماء أمطاراً وأزمنةً مثمرة، ويملأ قلوبنا طعاماً وسـروراً» (أعمال ١٤: ١٥، ١٧). هذا الإله الكريم جهَّز لأبوينا الأوَّلين قبل خلقهما جنة عدن، التي تفوق قـيمتها عشرة آلاف وزنة، فقد أعطاهما كل شجر الجنة، ومنحهما سلطاناً مطلقاً على كل الحيوانات والطيور، ووهبهما حياة الراحة والسـلام. ولم يمنع عنهما سـوى شجرة واحدة. ولكنهما عصيا ربهما فصارا مديونين عريانين عاجزين عن إرضاء ربهما! وسقط آدم فسقطت ذريته، وطُردوا من الجنة بعضهم لبعض عدو!

ومن منّا لم يـوْتَ من ربِّه وزنات رائعة؟ لقد وهبنا جسـداً ونفسـاً وروحاً، وعائلة تعتني بنا، ووفّر لنا تعليـماً، ووظيفة أو مهنة أو تجارة. ولو أننا حاولنا أن نحصي نِعم الرب علينا لعجزنا، فهي أكثر مما نفتكر وأعـظم من أن تُشترى بمال! لكن ما أصدق القول: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثُر في الأرض، وأن كل تصوُّر أفكار قلبه إنما هو شريـر كل يـوم» (تكويـن ٦: ٥) فأمر بالطوفان، وقال بعده: «تصوُّر قلب الإنسان شرير منذ حداثته» (تكوين ٨: ٢١). وقال الحكيم سليمان في صلاته وهو يدشِّن الهيكل الأول: «لأنه ليس إنسـانٌ لا يخطئ» (١ملوك ٨: ٤٦). وقال المرنم: «إن كنت تراقب الآثام يا رب يا سيد، فمن يقف؟» (مزمور ١٣٠: ٣). وقال الجامعة: «لأنه لا إنسـان صِدّيق في الأرض يعمل صلاحاً ولا يخطئ» (جامعة ٧: ٢٠). وقال الرسول يوحنا: «إن قلنا إنه ليس لنا خطية نُضل أنفسنا وليس الحقُّ فينا» (١يوحنا ١: ٨).

وكل من يـكتشف في نفسـه هذا الإفلاس الروحي، يـجب أن يعترف بخطاياه تائباً مصلّياً «اللهم، ارحمني أنا الخاطي» (لوقا ١٨: ١٣)، ثم يكون رحيماً بالخطائين.

ثانياً - عظمة المراحم الإلهية

وقف الوزير أمام الملك مفلسـاً من المال، ذليلاً تملأه مشاعر الخزي بسـبب فشله وعجزه، منتظراً وقوع العقاب. وفي خوف شديد استعطف الملك أن يمهله حتى يوفي الدين الكبير، ووعد أن يظل ملتزماً بسـداده، مع أنه لو بيع هو وامرأته وأولاده وكل ما يملكه لما تمكَّن من الوفاء. كان يعلم أنه يستحق أن يُقال له ما قيل للملك بيلشاصر: «منا منا، تَقَيْلُ وفَرْسـينُ. وهذا تفسير الكلام: منا: أحصى الله ملكوتك وأنـهاه. تَقَيْلُ: وُزنت بالموازين فوُجدت ناقصاً. فَرْس: قُسمت مملكتك وأُعطيت لمادي وفارس» (دانيال ٥: ٢٥، ٢٦). ولكنه لجأ إلى مراحم الملك، وكأنه يقول: يا سيدي، إن ذنبي عظيم لكن إمهالك أعظم!

وقد ظهرت عظمة رحمة الملك، وتفوّقت على القصاص، إذ تحنن على المديـون، ولم يـكتفِ بأن يعطيه مهلةً، بل منحه عفواً شاملاً! ويعلمنا هذا المثّل أننا كلنا أخطأنا وعوّجنا المسـتقيم وارتكبنا الشر فـي عيني الله، فتضخّمت ديوننا، وحقّ علينا حكم الموت. وإذ لم يكن لنا ما نوفي به تنازل مالك نفوسنا وسـيدنا وسامحنا، فيُقال لنا: «إذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسدكم أحياكم معه، مسامحاً لكم بجميع الخطايا، إذ محا الصك الذي علينا في الفرائض، الذي كان ضداً لنا، وقد رفعه من الوسـط مسمِّراً إياه بـالصليب» (كولوسي ٢: ١٣، ١٤).. لقد «كنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً. الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها، ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسـيح.. وأقامنا معه، وأجلسـنا معه في السـماويات في المسيح يسوع.. لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان، وذلك ليس مـنكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كي لا يفتخر أحد» (أفسس ٢: ٣-٩). فيحقّ أن نقول مع المرنم: «ما أكرم رحمتك يا الله، فبنو البشر في ظل جناحيك يحتمون» (مزمور ٣٦: ٧).

لـقد أظهر الرب لنا عظمة مراحمه، فإنه «رحيم ورؤف، طويل الروح وكثير الرحمة.. مثل ارتفاع السـماوات فوق الأرض قويـت رحمته على خائفيه.. كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيـه. لأنه يـعرف جبلتنا. يذكر أننا تراب نحن» (مزمور ١٠٣: ٨، ١١، ١٣، ١٤). ورحمته بلا حدود، فقال الـمرنم له: «رحمتك قد عظمت فوق السـماوات، والى الغمام حقك.. رحمتك يـا رب قد ملأت الأرض» (مزمور ١٠٨: ٤، ١١٩: ٦٤). وقال الـنبي إرميـا إنه لولا هذه الرحمة ما كانت لنا حياة، فإنه «من إحسانات الرب أننا لم نفنَ، لأن مراحمه لا تزول» (مراثي ٣: ٢٢).

هـذه الرحمة تشجعنا لنتوب، طاعةً لنداء الوحي: «مزّقوا قلوبكم لا ثيابكم، وارجعوا إلى الرب إلهكم لأنه رؤوف رحيم، بطيء الغضب وكثير الرأفة» (يوئيل ٢: ١٣) فيغفر الخطايا فنقول له: «من هو إلهٌ مثلك، غافر الإثم وصافحٌ عن الذنب.. لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يُسرّ بالرأفة» (ميخا ٧: ١٨). لقد كانت رحمة الله مستعدةً أن تعفو عن سدوم وعمورة لو وُجد فيها خمسون باراً (تكوين ١٨: ٢٦)، وهي التي أشفقت على لوط، الذي لما توانى في الخروج من سـدوم أمسـك الملاكان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيـه «لشفقة الرب عليه، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة» (تكوين ١٩: ١٦). وقد عرف عزرا هذه الرحمة فقال لله: «لأنك قد جازيـتنا يا إلهنا أقلّ من آثامنا، وأعطيتنا نجاةً» (عزرا ٩: ١٣) وقال نحميا عن شعبه: «أبوا الاسـتماع، ولم يذكروا عجائبك التي صنعت معهم، وصلّبوا رقابهم.. وأنت إله غفور وحـنان ورحيم، طويل الروح وكثير الرحمة، فلم تتركهم.. لأجل مراحمك الكثيرة لم تُفنِهم ولم تتركهم، لأنك إله حنّان ورحيم» (نحميا ٩: ١٧، ٣١). إنها الرحمة التي تجعل خلاصنا ممكناً، لأن خلاصنا «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلّصنا بغسـل الميـلاد الثاني وتجديد الروح القدس» (تيطس ٣: ٥).

وقد تبدَّت هذه الرحمة واضحة كالشمس في مجيء المسيح إلى أرضنا، حيث جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلِّط عليهم إبليس (أعمال ١٠: ٣٨) يشبع الجياع، ويشفي المرضى ويقيم الموتى، و«إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المعيّن لأجل الفجار. فإنه بالجهد يموت أحدٌ لأجل بار. ربما لأجل الصالح يجسر أحدٌ أيضاً أن يموت. ولكن الله بيَّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رومية ٥: ٦-٨). وعلى صليبه صلى لأجل صالبيه: «اغفر لهم يا أبتاه، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لوقا ٢٣: ٣٤). فما أعظم وأروع محبته ورحمته!

ثالثاً - ضرورة الرحمة

يعلمنا هذا المثل أن غفران الله لنا يوجب علينا أن نغفر للآخرين. لقد سامح الملك وزيره ولم يعاقبه لأنه استرحمه، وكان يجب أن يسامح الوزير رفيقه المديون له كما سامحه الملك، ولكنه لم يفعل! واستاء الحاضرون من تصرف الوزير وحزنوا جداً وأبلغوه للملك، فغضب وسلَّم وزيره إلى المعذِّبين حتى يوفي كل ما كان له عليه! وعلَّق المسيح على المثل بقوله: «فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته».

وقد علَّمنا المسيح في الصلاة الربانية أن نرفع لله ستَّ طلبات، تقول الخامسة منها: «اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» (متى ٦: ١٢). وكان التعليق الوحيد الذي عقَّب به المسيح على هذه الصلاة هو قوله: «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم» (متى ٦: ١٤، ١٥). فهو يمنحنا رحمة وغفراناً كلما أتينا إليه تائبين معترفين بخطايانا، فإن لم نغفر للمسيئين إلينا يوقع علينا العقاب كما فعل الملك بوزيره.

كلنا بشر خطاؤون، تزلُّ أقدامنا وتعثر في الطريق، فلنسمع النصيحة: «أيها الإخوة، إن انسبق إنسان فأُخذ في زلَّةٍ ما، فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة، ناظراً إلى نفسك لئلا تُجرَّب أنت أيضاً. احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح. لأنه إن ظنَّ أحدٌ أنه شيء وهو ليس شيئاً، فإنه يغش نفسه» (غلاطية ٦: ١-٣).

إن غفرنا للمسيئين إلينا نكون قد أطعنا المسيح الذي قال: «طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون» (متى ٥: ٧)، و«هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم» (يوحنا ١٥: ١٢)، وعملنا بوصايا الوحي: «لا تدع الرحمة والحق يتركانك. تقلَّدهما على عنقك. اكتبهما على لوح قلبك.. الرجل الرحيم يُحسن إلى نفسه، والقاسي يكدِّر لحمه» (أمثال ٣: ٣، ١١: ١٧). «قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح، وماذا يطلبه منك الرب، إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة، وتسلك متواضعاً مع إلهك» (ميخا ٦: ٨).. أما الذين لا يغفرون فإنهم «بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة» (رومية ١: ٣١).

وجدير بنا أن نتعلم الغفران من سير رجال الله، فيوسف الصدّيق باعه إخوته عبداً، فغفر لهم وملأ أوعيتهم قمحاً، ودفع ثمنه لخزينة الفرعون، وردّ لهم فضتهم (تكوين ٤٢: ٢٥) ثم عرّفهم بنفسه وقال: «أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر. والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا. لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم.. ليجعل لكم بقية في الأرض، وليستبقي لكم نجاة عظيمة. فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله. وهو قد جعلني أباً لفرعون وسيّداً لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر» (تكوين ٤٥: ٤، ٥، ٧، ٨). وعندما مات يعقوب أبوه قال إخوته بعضهم لبعض: «لعل يوسف يضطهدنا ويردّ علينا جميع الشر الذي صنعنا به» فأبلغوه وصية أبيه القائلة: «اصفح عن ذنب إخوتك وخطيتهم، فإنهم صنعوا بك شراً». ثم قالوا له: «فالآن اصفح عن ذنب عبيد إله أبيك». فبكى يوسف وقال: «لا تخافوا، لأنه هل أنا مكان الله؟ أنتم قصدتم لي شراً، أما الله فقصد به (بالشر) خيراً، لكي يفعل كما اليوم، ليحيي شعباً كثيراً. فالآن لا تخافوا. أنا أعولكم وأولادكم». فعزّاهم وطيّب قلوبهم (تكوين ٥٠: ١٥-٢١).

ونرى في داود صاحب المزامير نموذجاً آخر للغفران. فقد سامح شاول الذي كان مصرّاً على قتله، مع أن شاول وقع في يده مرتين: الأولى في برية عين جدي، ولم يمسسه داود بأذى، ولما طلب رجال داود منه وقتها أن يقتل شاول وبّخهم بقوله: «حاشا لي من قِبَل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدي، بمسيح الرب، فأمدّ يدي إليه، لأنه مسيح الرب هو» (١صموئيل ٢٤: ٦). وكانت المرة الثانية التي غفر فيها داود لشاول في برية زيف عندما قال داود لرجاله: «حاشا لي من قِبَل الرب أن أمدّ يدي إلى مسيح الرب» (١صموئيل ٢٦: ١١).

وفي حياة الرسول بولس مثال للغفران للإخوة الذين قصّروا في حقّه، فقال عنهم: «في احتجاجي الأول لم يحضر أحدٌ معي، بل الجميع تركوني. لا يُحسب عليهم. ولكن الرب وقف معي وقواني لكي تُتمَّ بي الكرازة ويسمع جميع الأمم، فأُنقذت من فم الأسد» (٢تيموثاوس ٤: ١٦، ١٧).

أيها المؤمن، أنت مثل زيتونة خضراء في بيت الله (مزمور ٥٢: ٨) والزيتون إن عصرته يعطيك زيتاً. وأنت صدّيق كالنخلة الزاهية (مزمور ٩٢: ١٢) والنخلة إن ضربتها بحجر أعطتك بلحاً. فكن كالزيتونة وكالنخلة «إن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه. لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير» (رومية ١٢: ٢٠، ٢١).

إن كنت تشعر بمديونيتك لله فاجتهد أن تحيا حياة الغفران. لقد وهبتك محبة الله الكثير، فامنح غيرك كما منحك، لأنك إن لم تغفر فإنك «في ما تدين غيرك تحكم على نفسك» (رومية ٢: ١).

سؤالان

١ – ما هي مناسبة رواية مثل «العبد الذي لم يرحم»؟

٢ – لماذا يجب أن نغفر لمن يسيء إلينا؟

٤ - ضرورة الأمانة

(أ) الأمانـة للنـفس	- مثل الغني الغبي	لوقا ١٢: ١٣-٢١
(ب) الأمانـة للرؤساء	- مثل الوكيل الظالم	لوقا ١٦: ١-١٣
(ج) الأمانـة للمحتاجين	- مثل الغني ولعازر	لوقا ١٦: ١٩-٣١

(أ) الأمانة للنفس

مثل الغني الغبي

وَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْجَمْعِ: يَا مُعَلِّمُ، قُلْ لأَخِي أَنْ يُقَاسِمَنِي الْمِيرَاثَ. فَقَالَ لَهُ: يَا إِنْسَانُ مَنْ أَقَامَنِي عَلَيْكُمَا قَاضِياً أَوْ مُقَسِّماً؟. وَقَالَ لَهُمُ: انْظُرُوا وَتَحَفَّظُوا مِنَ الطَّمَعِ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ لأَحَدٍ كَثِيرٌ فَلَيْسَتْ حَيَاتُهُ مِنْ أَمْوَالِهِ.

وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً قَائِلاً: إِنْسَانٌ غَنِيٌّ أَخْصَبَتْ كُورَتُهُ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ قَائِلاً: مَاذَا أَعْمَلُ، لأَنْ لَيْسَ لِي مَوْضِعٌ أَجْمَعُ فِيهِ أَثْمَارِي؟ وَقَالَ: أَعْمَلُ هَذَا: أَهْدِمُ مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ وَأَجْمَعُ هُنَاكَ جَمِيعَ غَلاَّتِي وَخَيْرَاتِي، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ لَكِ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اِسْتَرِيحِي وَكُلِي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي. فَقَالَ لَهُ اللَّهُ: يَا غَبِيُّ، هَذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ. فَهَذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟ هَكَذَا الَّذِي يَكْنِزُ لِنَفْسِهِ وَلَيْسَ هُوَ غَنِيّاً لِلَّهِ (لوقا ١٢: ١٣-٢١).

مناسبة رواية المثَل:

حدَّث المسيح تلاميذه عن عناية الرب بالبشر، الواضحة في أنه يُحصي حتى شعور رؤوسهم (لوقا ١٢: ٧)، ثم أوضح أنهم يجب أن يقبلوا شهادة الروح القدس عن أنه «المسيا» (أي المخلّص المنتظَر) حتى لا يجدّفوا على الروح القدس، وهي الخطية التي لا تُغفر (لوقا ١٢: ١٠)، ثم طمأنهم بأن الروح القدس سيعلّمهم ما يجب أن يقولوه لو ألقى الرؤساء القبض عليهم (لوقا ١٢: ١٢).

وقاطع أحد السامعين حديث المسيح بشكوى من أخيه الذي قال إنه ظلمه في تقسيم الميراث. والأغلب أن الشاكي كان الأخ الأصغر، وقد جاء يطلب الإنصاف من أخيه الأكبر. وكانت شريعة موسى تعطي الأخ الأكبر ضعف نصيب أخيه الأصغر، كما كلفت الأكبر بتوزيع الميراث (تثنية ٢١: ١٧).

ولم يذكر الشاكي أية براهين على ظلم أخيه له، كما لم يوضح مقدار الظلم الواقع عليه. وربما كانت شكواه تذمُّراً على شريعة موسى، فكان يطلب من المسيح تعليماً جديداً ينادي بالمساواة في توزيع الميراث. أو ربما كان يخشى المستقبل ويعتقد أن ميراثه سيكون سنداً له في شيخوخته.. ولا زال الناس يقلقون على احتياجاتهم المادية، مع أن حياة الإنسان ليست من أمواله، وقد قال المسيح: «لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون.. انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟» (متى ٦: ٢٥، ٢٦).

ورفض المسيح أن يجلس مجلس القضاء، لأنه إن فعل هذا فلا بد له أن يسمع الطرفين معاً، وأن يتحقق من صدق كل ما يرويه كلٌّ منهما. ولو أنه تدخَّل ليحل هذه الشكوى قضائياً سيظنّه السامعون مثل موسى الذي حاول أن ينصف بني شعبه (خروج ٢: ١٤)، فيتبعونه باعتباره حاكماً أرضياً، مع أنه ليس قاضياً ولا مقسِّماً، لأن مملكته ليست من هذا العالم (يوحنا ١٨: ٣٦).

وكطبيب للنفوس ومخلِّص لها من الخطية عالج المسـيح مشكلة الشاكي من جذورها، فقد كان إلحاح الماديـات قوياً عليه حتى لم يُلقِ بالاً لسـماع التعاليم الروحية، ويبدو أن هموم هذا العالم وغرور الغنى وشهوات سائر الأشياء خنقت الكلمة فيه فصارت بلا ثمر (مرقس ٤: ١٩). فحوَّل المسيح السؤال الخاص بالماديات إلى درس روحي، لأن الشاكي تمسَّك بالمهم ونسي الأهم، وقدَّم له الحل الأمثل لمشكلته، فقد كانت العلَّة كامنة في قلبه قبل أن تكون في أخيه، فنبَّه المسـيح إلى ضرورة إصلاح القلب بتخليصه من الطمع، وأوضح له أن حياة الإنسان ليست من أمواله، وشرح له هذا كله في مثَل الغني الغبي.

أولاً - إنسان غني

في هذا المثَل لم تكن مشكلة الغني في غناه، وإلا كان المسيح يذكر هذا. والواضح أنه إنسان شريف لم يغتنِ بالظلم ولا السـرقة ولا الاسـتغلال، كما أنه كان حصيفاً ذكياً في أمور دنياه، لديه نظام إداري ناجح، وقد اغتنى بحُسـن اسـتغلال أرضه الخصبة في الزراعة فأثمرت غلات وخيرات وفيرة. ودبر وخطط لمستقبله وحياته الأرضية بطموح.

ولا غبار علـيـه في هذا، فهناك فرق بيـن الطموح والطمع، فالطموح وبذل الجهد للرقي والرفعة والتقدم واجب، فقد جاء المسـيح ليعطينا الحياة الفضلى (يوحنا ١٠: ١٠)، وقال الحكيم: «أرأيت رجلاً مجتهداً في عمله؟ أمام الملوك يقف، ولا يقف أمام الرعاع» (أمثال ٢٢: ٢٩)، وقال: «كل ما تجده يدك لتفعله، فافعله بقوَّتك» (جامعة ٩: ١٠).. ولكن الطمع خطيـة، لأن الطماع قد يـشتهي ما عند الغير أو يـشتهي المزيد من المال والممتلكات. و«من يحب الفضة لا يشبع من الفضة، ومن يحب الثروة لا يشبع من دَخْل» (جامعة ٥: ١٠). ولهذا قال: «لا تتعب لكي تصيـر غنياً. كُفَّ عن فطنتك. هل تطيّر عينيك نحوه (الغِنى) وليس هو؟ لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة. كالنسر يطير نحو السماء» (أمثال ٢٣: ٤، ٥).

وهناك فرق بين المال وحب المال، فالمال خادم صالح لكنه سيد شرير، وحياة الإنسان ليست من أمواله. المال في ذاته صالح، ولكن الصواب أو الخطأ هو في استخدامه، فيـمكن أن يكون مصدر بركة للمعطي وللآخِذ، لو أننا خدمنا به الله والناس. وكم في الأغنياء من صالحين حكماء، مثل إبراهيم الخليل الذي قال له الله: «أجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظِّم اسمك، وتكون بركة» (تكوين ١٢: ٢).. ومثل إسحاق الذي قيل عنه: «وزرع إسـحاق في تلك الأرض فأصاب في تلك السـنة مئة ضعف، وباركه الرب» (تكوين ٢٦: ١٢).. ومثل يعقوب أب الأسـباط الذي أكرمه الله فقال: «صغيرٌ أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صنعتَ إلى عبدك، فإني بعصاي عبرتُ هذا الأردن، والآن قد صرتُ جيشين» (تكوين ٣٢: ١٠).

أما المشكلة فهي في «محبة المال» لأنها «أصلٌ لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قومٌ ضلّوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسـهم بأوجاعٍ كثيـرة» (اتيموثاوس ٦: ١٠). فمحبة المال تصرف القلب عن محبة الله، إذ يصبح المال إلهاً لمن يحبه، وقد قال المسـيح: «لا يقدر أحدٌ أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» (متى ٦: ٢٤). وتقود محبة المال إلى الطمع في المزيد منه.

ثانياً - إنسان غبي

رأى الغني نفســه في هذا المثل ذكياً، لكن المســيح دعاه «غبياً» لأن ذكاءه انحصر في التفكير في حياته الحاضرة فحســب، مع أن كل إنســـان مجرد نفخة (مزمور ٣٩: ٥)، ولأنه انشغل بقوت الجسد فقط، مع أن المسيح يقول: «اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية» (يوحنا ٦: ٢٧).

والأغـنياء الأغبياء كثيرون، لأنهم يحبون المال ويضعونه قبل المبادئ، فيربحونه بالغش، وينفقونه في الحرام أو بالإسراف، مع أنهم يرون الناس من حولهم جياعاً، أو أنهم يحتفظون به في خزائنهم يتعبَّدون له ويـــجعلونه متَّكلهم.. من هؤلاء الأغبياء «بلعام» الذي عصى طمعاً في الأجر الكبير، فوُصف بأنه «أحبَّ أجرة الإثم» (عدد ٢٢-٢٤ و٢بطرس ٢: ١٥).. ومنهم «عخان» الــذي خان وســرق وأخذ من الحرام فجلب الهزيمة على شعبه (يشوع ٧: ١).. ومنهم جيحزي الذي طلب ثمناً للخدمة المجانية التي قدَّمها النبي أليـــشع، وكذب على النبي وعلى نعمان الســرياني، فضربه الله بالبرص (٢ملوك ٥: ٢٥-٢٧).. ومنهم يـهوذا الإسخريوطي الذي باع سيده بثلاثين قطعة من الفضة (متى ٢٦: ١٤، ١٥).. ومنهم حنانيا وسفيرة اللذين خسرا حياتيهما بسبب طمعهما في الشهرة وفي المال في وقت واحد (أعمال ٥: ١-١١).

ولا زال للـناس يضعون المهم قبل الأهم، فيكبِّرون قيمة الماديات ويستهينون بالروحيات، ويحتاجون إلى طاعة القول: «أوصِ الأغنيـــاء في الدهر الحاضر أن لا يســتكبروا، ولا يلقوا رجاءهم على غير يــقيـــنية الغِنى (أي الغِنى الزائل)، بل على الله الحي، الذي يمنحنا كل شيء بغِنى للتمتُّع، وأن يصنعوا صلاحاً وأن يـــكونوا أغنياء في أعمال صالحة، وأن يكونوا أســخياء في العطاء، كرماء في التوزيع، مدَّخرين لأنفسهم أساساً حسناً للمستقبل، لكي يمسكوا بالحياة الأبدية» (١تيموثاوس ٦: ١٧-١٩).

فلماذا دعا المسيح هذا الغني «غبياً»؟

١ - لأنه تغافل الله مصدر ثروته:

لم يــذكر الله ولم يشكره، واعتبر المحاصيل التي منحها الله له «أثماره» هو. كان يبذر البذار الذي يــرويه مطر السماء فينمو، بينما ينام هو ثم يصحو ولا يعرف كيف حدث النمو! ولكنه لم يُرجِع الفضل لصاحب الفضل، مع أن كل عطيـــة صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار (يعقوب ١: ١٧) «الذي خلق العالم وكل ما فيه، هذا إذ هو رب الســماء والأرض.. هو يعطي الجميع حياةً ونفساً وكل شيء» (أعمال ١٧: ٢٤، ٢٥).

٢ - لأنه أساء تقدير قيمة نفسه الخالدة:

في غمرة انشغاله بالحياة الحاضرة نســي الحياة الآخرة، فوقف فقيراً أمام العرش الإلهي. كان كل تــركيزه على الماديات، وفي غمرة انشغاله بأرضه التي أخصبت نسي روحه التي أجدبت. لم يلتفت إلا إلى مســراته من أكل وشرب وراحة، وجعل نفســه مركز الكون، فقال: «أثماري.. مخازني.. أبني..

أجمع.. غلاتي.. خيـراتي.. أقول لنفسـي.. اسـتريـحي، وكلي، واشربي، وافرحي». لئن كان للفقر ضحايـا، فإن للغنى ضحايا أكثر. لقد أخطأ لأنه لم يهتم بأمور حياته الأبدية الباقية، ونسـي أن حياته الأرضيـة فانية. فكَّر طويلاً في حاجاته الجسـدية ونسـي احتياجاته الروحية، فكانت مخازنه موضع اهـتمامه وقبلة صلاته وغاية مراده، وظن أن ثروته مصدر سعادته ورفاهيته، فناجى نفسه وقال: «ماذا أعمل؟.. أهدم مخازني، وأبني أعظم منها».

ويمكن أن يُوجَّه لهذا الغني الغبي ذات اللوم الذي وجَّهه المسيح لملاك كنيسة لاودكية: «لأنك تقول: إني أنا غني، وقد اسـتغنيـتُ، ولا حاجة لي إلى شيء. ولسـتَ تعلم أنك أنت الشقي والبائس، وفقير وأعمى وعريان» (رؤيا ٣: ١٧). فقد قيَّم نفسـه بقوله: «يا نفسُ، لك خيرات كثيرة موضوعة لسـنين كثيرة. اسـتريحي وكلي واشربي وافرحي»، لكن الله قيَّمه بالقول: «يا غبي، الليلة تُطلب نفسـك منك، فهذه التي أعددتها، لمن تكون؟».

ظن ذلك الغني أن الماديات تغنيه، فلم يفكر في إغناء نفسه الخالدة. وقدَّر قيمته بما كسبه من مال، فباع نفسـه للغنى، بينما قيمة نفسه الحقيقية هي أن يكون غنياً لله، يحيا له هنا، يمارس الفضائل، فينعم بالخلود هناك. فإنه «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسـان، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسـان» (تثنية ٨: ٣). و«إن زاد الغنى فلا تضعوا عليه قلباً» (مزمور ٦٢: ١٠) «لأنه ماذا ينتفع الإنسـان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» (متى ١٦: ٢٦).

٣ – لأنه أساء مكان الاحتفاظ بثروته:

قال: «أهدم مخازني وأبني أعظم» فكان كنزه في مخازنه الحجرية. عندما مات تسـاءل الناس: كم ترك؟ ولم يتسـاءلوا كم أخذ معه، ولكن السـماء قالت: لقد ترك كل شيء، لأنه لم يشارك غيره في ما منحه الله له. صدق أيوب، أعظم كل بني المشرق في زمانه وهو يقول: «عرياناً خرجت من بطن أمي، وعريـاناً أعود إلى هناك» (أيوب ١: ٢١). أما الغني الغبي ففي غمرة انشغاله بمخازنه نسـي الدعوة الحكيـمة «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يُفسـد السـوس والصدأ، وحيث ينقب السـارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً» (متى ٦: ١٩-٢١).

قال القديـس أمبروز: «مخازنك الحقيـقيـة هي حضن المحتاجين، وبيوت الأرامل، وأفواه الأيتام والـصغار». كان عند الغني أكثر مما يحتاج إليه، فلم يفكر إلا في نفسه. قال الحكيم: «كرهتُ كل تعبي الذي تعبتُ فيـه تحت الشمس حيـث أتركه للإنسـان الذي يكون بعدي. ومن يعلم هل يكون حكيماً أو جاهلاً، ويسـتولي على تعبي الذي تعبت فيـه وأظهرت فيه حكمتي تحت الشمس؟ هذا أيضاً باطل!» (جامعة ٢: ١٨، ١٩).

لم يحسب هذا الغني حسـاب عشوره، فلم يفكر في حقوق الرب عليه، مع أنه قال: «هاتوا جميع العشور إلى الخزنة ليـكون في بيتي طعام، وجربوني.. إن كنت لا أفتح لكم كوى السـماوات وأفيض عليكم بركة حتى لا توسـع، وأنتهر من أجلكم الآكل فلا يفسد لكم ثمر الأرض، ولا يعقر لكم الكرم في الحقل» (ملاخي ٣: ١٠، ١١). نسـي الفقراء والجائعيـن ولم يـقدم لهم من ماله، مع أن «من كان له معيشة العالم، ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه، فكيف تثبت محبة الله فيه؟» (١يوحنا ٣: ١٧).

٤ - لأنه أساء تقدير عدد سنوات عمره:

كان قصيـر نظرٍ يظن حياته ممتدّة بلا نهاية، فقال لنفسـه: «لك خيرات كثيرة موضوعة لسـنين كثيـرة» ونسـي قول الحكيم: «لا تفتخر بالغد، لأنك لا تعلم ماذا يلده اليوم» (أمثال ٢٧: ١). ظن أنه سـيعيش سنين كثيرة مع أنه لم يبقَ له إلا يوم واحد! لقد أغواه الشيطان كما أغوى أبوينا الأولين بقوله لهما: «لن تموتا»!

حـذرنا الرسول يعقوب بالقول: «هلمَّ الآن أيها القائلون: نذهب اليوم أو غداً إلى هذه المدينة أو تلك، وهناك نصرف سنة ونتّجر ونربح. أنتم الذين لا تعرفون أمر الغد. لأنه ما هي حياتكم؟ إنها بخار يظهر قليـلاً ثم يضمحل» (يعقوب ٤: ١٣، ١٤). «إنما كخيال يتمشى الإنسـان. يذخر ذخائر ولا يدري من يضمُّها» (مزمور ٣٩: ٦).

نحن نكره التفكيـر في الموت مع أنه نهاية كل حي، لكننا يجب أن نكون مسـتعدين له، بأن نكون أغنياء لله، أمناء لأنفسنا الغالية التي اشتراها المسيح بدمه.

سؤالان

١ - لماذا تظن رفع الأخ الشاكي شكواه للمسيح بخصوص الميراث؟ اذكر احتمالين.

٢ - ما هو الحل الذي قدمه المسيح للأخ الشاكي؟

(ب) الأمانة للرؤساء

مثل الوكيل الظالم

وَقَالَ أيْضاً لِتَلامِيذِهِ: كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ لَهُ وَكِيلٌ فَوُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يُبَذِّرُ أمْوَالَهُ. فَدَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الَّذِي أسْمَعُ عَنْكَ؟ أعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ لأَنَّكَ لا تَقْدِرُ أنْ تَكُونَ وَكِيلاً بَعْدُ. فَقَالَ الْوَكِيلُ فِي نَفْسِهِ: مَاذَا أفْعَلُ، لأنَّ سَيِّدِي يَأْخُذُ مِنِّي الْوَكَالَةَ؟ لَسْتُ أسْتَطِيعُ أنْ أنْقُبَ، وَأسْتَحِي أنْ أسْتَعْطِيَ. قَدْ عَلِمْتُ مَاذَا أفْعَلُ حَتَّى إِذَا عُزِلْتُ عَنِ الْوَكَالَةِ يَقْبَلُونِي فِي بُيُوتِهِمْ. فَدَعَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَدْيُونِي سَيِّدِهِ وَقَالَ لِلأوَّلِ: كَمْ عَلَيْكَ لِسَيِّدِي؟ فَقَالَ: مِئَةُ بَثِّ زَيْتٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاجْلِسْ عَاجِلاً وَاكْتُبْ خَمْسِينَ. ثُمَّ قَالَ لآخَرَ: وَأنْتَ كَمْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: مِئَةُ كُرِّ قَمْحٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاكْتُبْ ثَمَانِينَ. فَمَدَحَ السَّيِّدُ وَكِيلَ الظُّلْمِ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ، لأنَّ أبْنَاءَ هَذَا الدَّهْرِ أحْكَمُ مِنْ أبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ. وَأنَا أقُولُ لَكُمْ: اصْنَعُوا لَكُمْ أصْدِقَاءَ بِمَالِ الظُّلْمِ حَتَّى إِذَا فَنِيتُمْ يَقْبَلُونَكُمْ فِي الْمَظَالِّ الأبَدِيَّةِ. اَلأمِينُ فِي الْقَلِيلِ أمِينٌ أيْضاً فِي الْكَثِيرِ، وَالظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ ظَالِمٌ أيْضاً فِي الْكَثِيرِ. فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أمَنَاءَ فِي مَالِ الظُّلْمِ فَمَنْ يَأْتَمِنُكُمْ عَلَى الْحَقِّ؟ وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أمَنَاءَ فِي مَا هُوَ لِلْغَيْرِ فَمَنْ يُعْطِيكُمْ مَا هُوَ لَكُمْ؟ لا يَقْدِرُ خَادِمٌ أنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأنَّهُ إِمَّا أنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أوْ يُلازِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لا تَقْدِرُونَ أنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ (لوقا ١٦: ١-١٣).

في هذا المثل نجد شخصيتين رئيسيتين:

١ - الرجل الغني:

صاحب الممتلكات الواسعة، الذي ترك قريته إلى المدينة، ووكَّل أمر إدارة أمواله إلى وكيل له، كان يثق فيه. وسمع أن وكيله «يبذِّر أمواله» وهو نفس التعبير الذي وُصف به «الابن الضال» أنه «بذَّر ماله» (لوقا ١٥: ١٣). فطلب الغني من وكيله أن يقدم له بياناً بالمبالغ التي يداين بها المزارعين، مصدَّقاً عليه من الوكيل.. فأنقص الوكيل ديون المديونين. ولما عرف الغني أن الوكيل خدعه بهذه الطريقة الذكية مدح الوكيل، لا على أخلاقه، فهو قد خانه فدعاه «وكيل الظلم»، لكنه مدح ذكاءه وحكمته. ونحن أحياناً نمدح ذكاء شحاذ خدعنا بقصة كاذبة، ولو أننا ندين خداعه، ونتساءل: لماذا لا يستخدم ذكاءه الذي حبك به قصةً كاذبة ليربح مالاً حلالاً؟

٢ - الوكيل الظالم:

الذي كان يبذِّر المال، فطلب منه الغني أن يسلِّم عهدته. وكان يجب أن يعتذر عن خيانته ويردَّ المسلوب، لكنه لم يفعل لأنه كان يطلب الأفضل لمستقبله المادي مما في العالم من مسكن ومأكل وملبس. وكان واقعياً في تقييم قدراته، فهو يعلم أنه عاجزٌ جسدياً عن أن ينقب، وعاجز اجتماعياً عن أن يستعطي ويتسوَّل. وأعمل فكره في ماذا يعمل بعد أن يُطرد؟ إلى أن وجد الحل الظالم، الذي هداه إليه تفكيره الذكي الشرير، فقرر أن يزوِّر حسابات موكِّله. وكان التزوير سهلاً لأن الأرقام وقتها كانت تُكتب بالحروف الأبجدية،

ولم يــكن هناك فرق كبير يميِّز الحروف الدالة على العشرات من الحروف الدالة على المئات.. فاستدعى المزارعين وأنقص قيمة ديونهم حتى يكرموه فيما بعد. كان على المديون الأول مئة بث زيت (البث مكيال للسوائل يعادل نحو تسعة جالونات، وهو نتاج ١٤٦ شجرة زيتون)، فطلب منه أن يجعلها نصف الكمية. وكان على المديون الثاني مئة كُرّ قمح (الكر مكيال للسوائل والحبوب، ويساوي عشرة أبثاث)، فسامحه بخُمس الدين.

٣ - ونجد في المثل مجموعة المزارعين المديونين،

الذين رحَّبوا بتزوير الوكيل. ولعلهم التمسوا العذر لأنفسهم في ذلك بأن حكموا أن الغني ظالم يتقاضى منهم أكثر مما يجب، فاعتبروا تغيير صكوك ديونهم إقراراً للعدالة يرد لهم بعض حقوقهم. ولعلهم شكروا الوكيل الظالم لأنه أنصفهم.

ويواجهنا هذا المثل بمشكلة، إذ يبدو هنا أن المسيح يمدح المخادع الغشاش، ويدعو المؤمنين ليقتدوا به ويسيروا في خطوات غشّه. والحقيقة هي أن المسيح لم يمدح كل تصرفات الوكيل الظالم، بل مدح حكمته فقط. فالمثل يقول: «فمدح السيد وكيل الظلم، لأنه بحكمةٍ صنع» لأن هذا الرجل استعد لما يأتي عليه في المستقبل قبل أن يُطرد من وكالته. لم يمدح المسيح غش الوكيل الظالم ولكنه مدح ذكاءه، لأنه استخدم فرصةً في متناول يده لتفيده في المستقبل الذي يجهله.

وتنحلُّ المشكلة لما ندرك أن المثل عادةً يعلّمنا درساً رئيسياً واحداً، ويعطينا فكرة نحتذيها أو نتّقيها، كما في مثل القاضي الظالم الذي استجاب لصراخ الأرملة المظلومة حتى لا تقمعه! (لوقا ١٨: ١-٨). وهناك نقطة هامة جداً في تفسير الأمثال، هي أن هناك نقطة تشبيه محددة، لا نخرج عنها إلى التعميم. فمثلاً إن امتدحنا الأسد، لا نمتدح فيه الوحشية والافتراس، إنما القوة والشجاعة. وإذا شبَّهنا إنساناً بالأسد، فلا نقصد أنه حيوان من ذوات الأربع، وإنما نمتدحه على شجاعته وقوته. كذلك في مثل الوكيل الظالم، ينصبّ المديح على نقطة واحدة محددة هي الحكمة في الاستعداد للمستقبل، وليس على كل صفاته الأخرى. فنتعلّم من مثَل الوكيل الظالم أن ذكاءنا في استخدام ما نملكه اليوم ذو أثرٍ عظيم على حالتنا المستقبلة، وأن طريقة تصرُّفنا في ما نملكه الآن يعيِّن مصيرنا الأبدي. لهذا يجب أن نستعد ليوم الدينونة الذي سيُقال لنا فيه: «أعطِ حساب وكالتك».

وبعد أن انتهى المسيح من رواية المثل قدَّم أربعة تعليقات نتعلم منها أربعة دروس:

أولاً - أهمية الحكمة

قال المسيح تعليقاً على المثل: «أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم». وأبناء هذا الدهر هم الذين يسايرون العالم الحاضر الشرير الذي يريد الله أن ينقذنا منه (غلاطية ١: ٤)، وقد ظهرت نعمته المخلِّصة لجميع الناس لتعلّمنا أن ننكر الشهوات، ونعيش بالتقوى في هذا العالم الحاضر (تيطس ٢: ١٢). وأبناء هذا الدهر يشبهون ديماس الذي ارتدّ وترك خدمة الله لأنه أحبَّ العالم الحاضر الذي هو الحياة المناقضة لمبادئ ملكوت الله (٢ تيموثاوس ٤: ١٠).

أما أبناء النور فهُم الذين سـمعوا قول المسيح: «ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يوحنا ١٢: ٣٦) فخضعوا لهذا الأمر. وهم الذين يسلكون في النور كما أن الله نور، فيطهِّرهم دم المسيح من كل خطيـة (ايوحنا ١: ٧). وقيل لهم: «كنتم قبلاً ظلمة، وأما الآن فنورٌ في الرب. اسـلكوا كأولاد نور.. جميعكم أبناء نور وأبناء نهار. لسنا من ليلٍ ولا ظلمة» (أفسس ٥: ٨، اتسالونيكي ٥: ٥).

ومع أن كل المؤمنيـن الحقيـقيين هم أبناء الحياة الجديدة، إلا أن كثيرين منهم تعوزهم الحكمة في العمل للأمور الباقيـة، وتنقصهم الرؤية الواضحة ومعرفة الواجبات المطلوبة منهم. والرب بهذا المثل يبكِّتنا بالحكمة التي عند أهل العالم، فإن كان أهل العالم (على الرغم من خطاياهم) لهم مثل هذه الحكمة في الماديات، فإن أبناء الله ينبغي أن يكونوا أكثر حكمةً في الروحيات. لذلك بعد أن مدح المسيح الوكيل الظالم على حكمته، قال مباشرة: «لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم».

وواضح أن المسيح لا يمدح غشَّ أبناء هذا الدهر واتجاهاتهم الفكرية والأخلاقية، فهُم مخادعون. بل يـمدح ذكاءهم المبدع، وحكمتهم في التعامل مع أهل جيلهم، فإنهم يحتاطون لمسـتقبلهم كما لحاضرهم باسـتخدام مال الظلم ليقيهم شرَّ الحاجة عندما يفنى مصدر أموالهم أو صحتهم أو مراكزهم. وأبناء هذا الدهر يـقظون، يتَّخذون قراراتهم في الوقت المناسـب، وينتهزون الفرص التي تسـنح لهم ليكسـبوا، ويُحسـنون استخدام ما عندهم وما حولهم من وسائل وأشخاص، ويعرفون كيف يسوِّقون بضاعتهم مع أنها باطلة، ويقدرون أن يخرجوا بسـهولة من المآزق، ولا يحسبون وزناً للمخاطر والعوائق في سبيل تحقيق أهدافهم، ويسخِّرون جهدهم وطاقتهم في الوصول إلى ما يريدون.

ومع أن أبناء النور أمناء، وقد منحهم الرب فُرصاً كثيـرة للشهادة وربح النفوس وتخليـص الخطاة وبـناء الكنائس وتمجيد الله، فكثيراً ما تفلت هذه الفرص من أيديهم، لأنهم يتواكلون على الله، ولا يبذلون الفكر والجهد والوقت والمال الكافي. وربما يـخشون من فقدان مكانة وظيـفيـة أو مادية إن هم تبعوا المسيح وعملوا للطعام الباقي لا البائد، وإن هم قاموا بواجب الكرازة للآخرين.

في هذا المثل يطالبنا المسـيح بالنظر إلى حكمة أبناء العالم لنتعلم من حُسن استخدامهم للفرص، فنعمل مادام نهار كما أنه هو يعمل «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسـيح يسـوع لأعمال صالحة، قد سبق الله فأعدَّها لكي نسـلك فيها» (أفسس ٢: ١٠). إنها ساعة الآن لنستيقظ من النوم ونعمل مشيئة الذي دعانا من الظلمة إلى نوره العجيب، ولا نخشى شيئاً، لأن الذي معنا أقوى من العالم وأسلحته، فنكون «هادمين ظنوناً وكل علو يرتفع ضد معرفة الله، ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح» (٢كورنثوس ١٠: ٥).

يـصوِّر أهل هذا الدهر الوهم كأنه حقيقة، ويقدِّم أبناء النور الحقائق وكأنها أوهام! يتحدَّث أهل هذا الـدهر عن أمور مادية منظورة بينما يتحدث أبناء النور عن حقائق روحية بإيمان قائم على رجاء غير منظور! ويبذل أهل هذا الدهر غاية جهدهم وشعارهم «من طلب العُلى سـهر الليالي» بينما يعتبر أبناء

النور الأمور الأبديـــة مضمونة بالضمان الأبدي، وســينالونها حتى لو تكاســلوا «لأن الله غيور على عـمله»! ويثق أبناء هذا الدهر في أسلحتهم الشريرة لأنها تفتك بأعدائهم أمام عيونهم، بينما لا يرى أبناء النور أعداءهم وأسلحتهم الروحية بعيون أجسادهم «فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع الســلاطين، مع ولاة العالم، على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات» (أفسس ٦: ١٢). يكفي أن تقارن بين مجلة دنيوية ومجلة دينية، أو بين فيلم عالمي وفيلم مســيحي لترى الجهد والإبداع في الإنتاج العالمي الذي يفوق الإنتاج الديني بمراحل!

ولكن هل حقاً أبناء هذا الدهر حكماء؟ نعم، ولا! نعم، فهم حكماء في أمور «هذا الدهر» فقط، ولكنهم أغبيــاء في الأمور الروحيــة «لأنهم لما عرفوا الله لم يــمجدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء» (رومية ١: ٢١، ٢٢). أما أبناء النور فيــجب أن يكونوا حكماء كالحيات مع احتفاظهم ببســاطة الحمام (متى ١٠: ١٦)، ويعدنا الوحي أن من تعوزه حكمة فليطلب من الله، الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيِّر، فسيُعطى له (يعقوب ١: ٥).

لنكُن حكماء في أمور ديننا أكثر من حكمة أبناء هذا الدهر في أمور دنياهم.

ثانياً - أهمية المال

فــي تعليق ثانٍ على هذا المثل قال المسيح: «اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتُم يقبلونكم في المظال الأبديــة». وهذا يــعني أننا جميعاً وكلاء على ما منحه الله لنا، ولســنا مالكين. لقد أوصانا المســيح أن نستخدم المال لخدمة الملكوت، ولخير مستقبلنا، بأن نصنع لنا أصدقاء به حتى إذا فني، أو انتهت الحياة يكون لنا قبول في البيوت الأبدية.

قــال بعض المفسرين إن المسيح سمَّى المال «مال الظلم» لأنها التسمية التي كانت تُطلَق على «غِنى العالم المادي» أو على «كنوز الشر (التي) لا تنفع» (أمثال ١٠: ٢). على أن البعض قالوا إن المســيح قصد بالتسمية أن المال كثيراً ما يُجمع ويُوزَّع بالظلم، وكثيراً ما يُستخدم في الشر لا الخير، وبه نخطئ إلى الله وإلى أولاد الله. وقد يكون مال ظلم لأنه حُصِّل بطرق لا تحتمل نار الامتحان في اليوم الأخير.. كما أنه يــظلم بعض الناس بأن يأســر قلوبهم حتى يعبدوه، فيهلكون. ولو أننا طلبنا من قطعة عملة أن تحكي تاريخ حياتها لســمعنا منها العَجَب! وقال البعض إن المقصود بمال الظلم ليس المال الحرام الذي يقتنيه الإنسان من الظلم أو من أية خطية أخرى، فهذا لا يقبله الله، لأنه يقول: «لا تُدخِل أجرة زانية إلى بيت الرب إلهك» (تثنية ١٨: ٢٣). فالله لا يقبل عمل الخير، الذي يأتي عن طريق الشر.. بل إن مال الــظلم هو العشور التي لا يدفعها صاحبها لعمل الرب، فقد أعطاه مالاً، وأمره أن يدفع عشوره. فإذا لم تــدفع العشور تكون قد ظلمت مستحقّيها، وتكون عندك «مال ظلم» إذ يقول الرب: «أيسلب الإنسان الله؟ فإنكم ســلبتموني. فقلتم: بِمَ سلبناك؟ في العشور والتقدمة» (ملاخي ٣: ٨). بل يمكن أن نصف كل مال

مكنوز عندنا بلا منفعة، بينما يحتاج إليه الفقراء، أنه «مال ظلم». ولكن عندما ندفع العشور لعمل الرب نعطي ما لله لله، وعندما نسدد ضرائبنا نعطي ما لقيصر لقيصر.

فلنكن أسـخياء في العالم الحاضر، عملاً بوصية المسيح: «بيعوا ما لكم وأعطوا صدقة. اعملوا لكم أكياسـاً لا تفنى وكنزاً لا ينفد في السـماوات، حيث لا يقرب سارق ولا يُبلي سوس» (لوقا ١٢: ٣٣). ولنسـتخدم كل ما نملك في خدمة ملكوت الله، فقد ائتمن الله المؤمنيـن على بعض غِنى العالم المادي، ويـريدهم أن ينفقوه بسـخاء وبأفضل الطرق، ليصنعوا به لهم «أصدقاء»، فإن الذي يعطي يربح الذي أخذ، فيقف الذي أخذ في صفّ الذي أعطى، ويصبح من «إخوة المسيح الأصاغر».

فلنبذل مالنا في سـبيـل الخير، ولا نعِش للعالم وغِناه، لأن كليهما إلى فناء، ولننتبه إلى أن حياتنا الأرضية لا بد سـتنتهي يوماً، كما يمكن أن أموالنا قد تضيع لسبب أو لآخَر. لذلك يجب أن نصنع لنا أصدقاء بمال الظلم فيكون لنا أجرٌ سـماوي، ونجد القبول في «المظال الأبدية» أي تكون لنا حياة أبدية فـي دار الخلود، التي مضى المسيح ليُعدَّ لنا مكاناً فيها (يوحنا ١٤: ٢). وعندما نردد قول الملك حزقيا: «مسـكني قد انقلع وانتقل عني كخيمة الراعي» (إشعياء ٣٨: ١٢) نثق أننا سـنصل إلى مكان أفضل. «لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السـماوات بناءٌ من الله، بيت غير مصنوع بيد، أبدي» (٢كورنثوس ١: ٥).

هناك عالمٌ بعد هذا العالم هو «العالم الآتي» ننال فيـه جزاء ما فعلناه في هذا العالم. وعندما نترك محل إقامتنا المؤقّت في هذه الأرض، ونترك أصدقاءنا الفانيـن، تصبح السـماء بيتنا الدائم، ولنا فيها أصدقاء باقون من فقراء أنجدناهم، وحزانى عزّيـناهم، وأطفال أسـعدناهم، يقبلوننا في المظال الأبدية. هناك «الملك ببهائه تنظر عيـناك» (إشعياء ٣٣: ١٧). ويقول الملك لنا: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الـمُلك المُعدَّ لكم منذ تأسيس العالم، لأني جعتُ فأطعمتموني.. فيجيبه الأبرار حينئذٍ قائلين: يا رب، متى رأيـناك جائعاً فأطعمناك؟.. فيـجيب الملك: بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتُم» (متى ٢٥: ٣٤-٤٠). «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم وتعب المحبة التي أظهرتموها نحو اسمه، إذ قد خدمتم القديسين، وتخدمونهم» (عبرانيين ٦: ١٠).

ثالثاً - أُهمية الأمانة

وأضاف المسـيح تعليقاً ثالثاً على المثل، فقال: «الأمين في القليل أمين أيضاً في الكثير، والظالم في القليل ظالم أيضاً في الكثير. فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم، فمن يأتمنكم على الحق؟ وإن لم تكونوا أمناء في ما هو للغير، فمن يعطيكم ما هو لكم؟». وهو درس تناوله المسـيح في عدة أمثال، منها مثل العبيد العشرة الذين أعطاهم سيدهم عشرة أمناء ليتّجروا بها ، «فإن كل من له (أمانة) يُعطى، ومن ليس له (أمانة) فالذي عنده يؤخذ منه» (لوقا ١٩: ١٧، ١٨، ٢٦).

والأمانة الحقيـقيـــة لا تفرّق بين العمل الصغير والعمل الكبير. بل إن الأمانة في الأمور الصغيرة أعظم منها في الكبيـرة، والحاجة إليـها أكبر، لأن الناس يـهتمون عادة بالأمور العظيمة لأنها ظاهرة للعيون أكثر من اهتمامهم بالأمور الصغيرة التي لا يلتفت إليها كثيرون، فيتصرف الإنســان في الأمور الصغيرة على سجيته، وهذا يُظهِر سلوكه الحقيقي.

والأمانة في الأمور الصغيــرة تجهّزنا للقيــام بالأمور الكبيــرة. لقد ائتمننا الله على الصحة والعائلة والـمواهب والوقت والعمل والمال، وهو ينتظر منا أن نستخدم هذه كلها لخدمة المحتاجين، ليحقق مقاصده الإلهيـــة، وفي قمتها أنه يريد الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبِلون (١تيموثاوس ٢: ٤). وعلى قدر أمانتنا في الأمور الوقتية يأتمننا الله على الأمور الأبدية. وبقدر أمانتنا على الزائل يأتمننا على الباقي.

رابعاً - أهمية القلب الموحَّد

وكان التعليق الرابع للمسيح على هذا المثل قوله: «لا يقدر خادمٌ أن يخدم سيدين، لأنه إمّا أن يبغض الواحد ويـحب الآخر، أو يــلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال». وفي هذا الـعالم نسمع نداء سيدين: الله السيد الحقيقي الرحيم، والمال الذي وهبه الله لنا ليكون خادمنا. وقد نتحول إلى عبيــد له ويـصيـــو هو السـيد. وليس المال بالضرورة ذهباً، لكنه قد يكون النجاح أو الوقت أو الإمكانيات أو السلطة أو العائلة أو الوظيفة.

ولا بد أن نخضع لسـيد واحد، لأننا لا نقدر أن نخدم سيدين، فلا يقدر أحدٌ أن يخدم الله والمال، لأن الله يطالبنا بالتوزيع «أعطوا تعطوا» (لوقا ٦: ٣٨) بينما المال يطالبنا باكتنازه. والله يطالبنا بالتفكير في غيرنا، بينما المال يطالبنا بالتفكير في نفوسنا. فيجب أن نختار لأنفسنا اليوم من نخدم، والحكيم هو الذي يصلي: «علِّمني يا رب طريقك، أسلك في حقك. وحِّد قلبي لخوف اسمك» (مزمور ٨٦: ١١).

عـندما استولت محبة المسيح على قلوب المسيحيين الأوَّلين باعوا كل ما عندهم وتقاسموا ثمنه، فلم يكن أحدٌ بينهم محتاجاً (أعمال ٢: ٤٤، ٤٥ و٤: ٣٤). ولم تكن تلك المشاركة المالية لمجرد دوافع إنسانية، ولا لتجتذب الفقراء للكنيســة، ولو أنها لا بد فعلت هذا. ولكنها كانت للشركة بين المؤمنين «لكي تكون في هذا الـوقت فُضالتكم لإعوازهم، كي تصير فُضالتهم لإعوازكم، حتى تحصل المساواة» (٢كورنثوس ٨: ١٤). فهكذا علَّمتنا نعمة المسيح «أنه من أجلكم افتقر وهو غني، لكي تستغنوا أنتم بفقره» (٢كورنثوس ٨: ٩).

فاصنع لك أصدقاء «بمال الظلم». أعطه للمحتاجين إليه، وســدّد به أعوازهم، يصبحوا لك أصدقاء، ويصلّوا من أجلك، ويسمع الله دعاءهم، ويباركك، فتعطي أكثر وأكثر.

سؤالان

١ - ما معنى «مال الظلم»؟

٢ - لماذا مدح المسيح الوكيل الظالم؟ وماذا نتعلم من هذا؟

(ج) الأمانة للمحتاجين

مثل الغني ولعازر

كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الأُرْجُوانَ وَالْبَزَّ، وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهاً. وَكَانَ مِسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوباً بِالْقُرُوحِ، وَيَشْتَهِي أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْفُتَاتِ السَّاقِطِ مِنْ مَائِدَةِ الْغَنِيِّ، بَلْ كَانَتِ الْكِلاَبُ تَأْتِي وَتَلْحَسُ قُرُوحَهُ. فَمَاتَ الْمِسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَمَاتَ الْغَنِيُّ أَيْضاً وَدُفِنَ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْهَاوِيَةِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ، وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ. فَنَادَى: يَا أَبِي إِبْرَاهِيمُ، ارْحَمْنِي وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيَبُلَّ طَرَفَ إِصْبَعِهِ بِمَاءٍ وَيُبَرِّدَ لِسَانِي، لأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هَذَا اللَّهِيبِ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ وَكَذَلِكَ لِعَازَرُ الْبَلاَيَا. وَالآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ. وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هَهُنَا إِلَيْكُمْ لا يَقْدِرُونَ، وَلا الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا. فَقَالَ: أَسْأَلُكَ إِذاً يَا أَبَتِ أَنْ تُرْسِلَهُ إِلَى بَيْتِ أَبِي، لأَنَّ لِي خَمْسَةَ إِخْوَةٍ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُمْ لِكَيْلا يَأْتُوا هُمْ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِ الْعَذَابِ هَذَا. قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: عِنْدَهُمْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءُ. لِيَسْمَعُوا مِنْهُمْ! فَقَالَ: لا يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، بَلْ إِذَا مَضَى إِلَيْهِمْ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يَتُوبُونَ. فَقَالَ لَهُ: إِنْ كَانُوا لا يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ، وَلا إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ (لوقا ١٦: ١٩-٣١).

مناسبة رواية المثل:

بعد أن روى المسيح مثل «الوكيل الظالم» استهزأ الفريسيون الذين كانوا يسمعونه بالمسيح، لأنهم كانوا محبين للمال، ولأنهم كانوا يبررون أنفسهم أمام الناس (لوقا ١٦: ١٤، ١٥). فأوضح المسيح لهم أن شريعة الله ثابتة إلى الأبد، وأنها تدينهم، وأن باب الملكوت قد انفتح لكل بعيد وقريب يقصده ويطلبه بكل قلبه، ويغتصب نفسه إليه بأن يشد نفسه من الخطية ومن العالم، ويُقبل إلى هذا الملكوت المفتوح له بالنعمة (لوقا ١٦: ١٦، ١٧). ثم روى مثل «الغني ولعازر» الذي يوضح أن الله رفض الغني الذي برَّر نفسه بأنه «ابن إبراهيم» وقبل لعازر المسكين وبرَّره.

لم يكن الغني (في هذا المثل) سارقاً ولا قاتلاً، ولا بذَّر ماله بعيش مسرف. لكن خطأه أنه لم يصنع له أصدقاء «بمال الظلم» وأهمل الفقير الملقى عند بابه. كان يعرف أن يعمل حسناً ولكنه لم يفعل، فصارت هذه خطيته (يعقوب ٤: ١٧). وكان الفقير صابراً و«ها نحن نطوِّب الصابرين» (يعقوب ٥: ١١). وقد أراد المسيح أن يعلّمنا أن سوء استعمال الإنسان للمال في العالم الحاضر يوقع به الضرر في العالم الآتي، وأن اهتمام الإنسان بمستقبله الأبدي أهم من اهتمامه بحاضره.

وقد هزَّ هذا المثل قلب اللاهوتي والطبيب الألماني ألبرت شوايتزر (١٨٧٥-١٩٦٥)، الحاصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت، والفلسفة، والطب، مع دكتوراه فخرية في الموسيقى. كان يملك ما يتمنى

كل إنسان أن يملكه. لكنه تأمل حاجة الفقراء، وخاف أن يكون مصيره كمصير الغني، فسافر إلى الجابون في أفريقيا عام ١٩١٣ وبنى مستشفى بيديه ليخدم المرضى والمحتاجين وينفق عليهم ويعالجهم ويعظهم.

وقد لا نكون مثل شوايتزر أغنياء في المال أو في العلم. لكننا قد نكون أغنياء في الصحة، والوقت، والرحمة، والمواهب، التي أنعم الله بها علينا. ففي حياة كل واحدٍ منا غناه الخاص، فيمكن أن نصف أنفسنا بأننا «كفقراء ونحن نغني كثيرين. كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء» (٢كورنثوس ٦: ١٠). والغنى الأعظم هو الخلاص بالفداء المجاني، والمحبة الإلهية التي انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا (رومية ٥: ٥). فيجب أن نشارك غيرنا في الخلاص والمحبة متذكرين أنه «مجاناً أخذتم، مجاناً أعطوا» (متى ١٠: ٨).

يتحدَّث هذا المثل عن أمور حدثت في هذا العالم (آيات ١٩-٢٢)، ونتائج لها حدثت في العالم الآخر (آيات ٢٣-٣١). وقد أزاح المسيح في هذا المثل الستار عن العالم الآتي.

أولاً - شخصان في هذا العالم

١ - غني يتنعَّم:

لم يذكر المسيح اسمه، فهو نموذج لكثيرين يشبهونه. إنه مشهور عند أهل الأرض، يعيش لنفسه ليُسعد نفسه. لم يلتفت إلى وجود فقير مريض أمام بابه، مع أن الشريعة أوصته: «إن كان فيك فقير، أحدٌ من إخوتك في أحد أبوابك .. فلا تقسِّ قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير، بل افتح يدك له» (تثنية ١٥: ٧، ٨). ولم يكرم الرب ولا أخاه، مع أن كتب الأنبياء قالت إن العبادة المقبولة هي «أن تكسر للجائع خبزك، وأن تُدخِل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عرياناً أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك» (إشعياء ٥٨: ٦، ٧).

والأغلب أن هذا الغني كان يظن أنه مادام له كثير فإن حياته من أمواله، ونسي أنه سيأتي يوم يطالبه فيه الله بحساب وكالته التي لم يكن أميناً عليها. مسكينٌ، تمَّ فيه القول: «يصدّون سبيل البائسين» (عاموس ٢: ٧) فصار نصيبه: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدَّة لإبليس وملائكته، لأني جعت فلم تطعموني. عطشت فلم تسقوني.. بما أنكم لم تفعلوا بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا» (متى ٢٥: ٤١-٤٦).

عاش هذا الغني متنعِّماً، فكانت ملابسه الخارجية من الأرجوان المستورد من مدينة صور، وملابسه الداخلية من البز، وهو الكتان النقي المستورد من مصر. ولم تكن هذه ملابس المناسبات، بل ملابس كل يوم. وكان مترفِّهاً بأطايب الطعام، يستخدم الخبز لتنظيف يديه من الدهون كعادة أهل زمانه من الأثرياء، ويلقي به لكلابه تحت المائدة.. ولكن خطيته لم تكن رفاهية الملابس والطعام، فإن إبراهيم وداود وسليمان ترفَّهوا، بل كانت أنه كنز لنفسه ولم يرحم أخاه المحتاج، ولم يخطر بباله يوماً أن يعطف على المسكين الممزق الثياب التي تكشف عن قروحه التي تغري الكلاب بلحسها، كأنه جثة ميتة.

٢ - فقير محتاج:

ذكر المسيح أن اسم الفقير كان «لعازر»، والاسم يدل على الشخصية، ومعنى اسمه «الرب عوني». كان فقيراً في مكان إقامته مطروحاً عند باب الغني، لعله يراه فيعطف عليه. وكان مريضاً مضروباً بالقروح التي تلحسها الكلاب. أما طعامه فكان أقل من الفتات الساقط الذي كانت الكلاب تنافسه في التهامه.

ومن نهايته المجيدة في حضن إبراهيم نستنتج أنه لا بد تضرَّع لله أكثر من مرة أن يفارقه المرض، فتجيئه الإجابة: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل» (٢كورنثوس ١٢: ٩). فعاش بالرجاء في الحياة الآتية، أما حياته على الأرض فعرف أنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل. كان فقيراً وجائعاً وعرياناً لكنه لم يشكُ من فقره ولا تذمر من جوعه وعريه، وكأنه يقول مع النبي حبقوق: «فمع أنه لا يزهر التين، ولا يكون حملٌ في الكروم، يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع طعاماً، ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذاود، فإني أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصي» (حبقوق ٣: ١٧، ١٨).

٣ - موت الفقير:

مات الفقير قبل أن يموت الغني، فلكل إنسان ميعاد ومكان حدده الله ينتقل فيه من هذا العالم إلى العالم الآتي، كما يقول المسيح: «أنا أمضي لأعدَّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يوحنا ١٤: ٢، ٣).

وحملت الملائكةُ لعازر إلى حضن إبراهيم، فهم أرواحٌ يخدمون العتيدين أن يرثوا الخلاص (عبرانيين ١: ١٤). و«الحضن» هو مكان الشرف (يوحنا ١٣: ٢٣) والقديسون يتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب (متى ٨: ١١)، فانتقل لعازر من بؤس المرض والفاقة إلى احتفال فرحٍ. ولم يذكر المسيح شيئاً عن دفنه، فالأغلب أن جسده ووري التراب في مدافن الصدقة. تُرى هل ردَّد قبل موته صلاة سمعان الشيخ: «الآن تطلق عبدك يا سيد بسلام» (لوقا ٢: ٢٩)، أو صلاة استفانوس: «أيها الرب يسوع، اقبل روحي» (أعمال ٨: ٥٩)؟ سواء ردَّد أم لم يردد، فقد كانت نفسه متعلِّقةً بإلهه.

٤ - موت الغني:

مات ودُفن باحترام من البشر، ولكن هاوية العذاب كانت تنتظره بعد أن ضيَّع كل فرصة للتوبة، مستهيناً بغنى لطف الله وإمهاله وطول أناته، غير عالم أنه كان يريد أن يقتاده إلى التوبة. لكن من أجل قساوته وقلبه غير التائب، ذخَّر لنفسه غضباً في يوم الغضب، واستعلان دينونة الله العادلة (رومية ٢: ٤، ٥). لقد تبدَّل حاله تماماً. كان إبليس قد أغواه فظنَّ أن حاضره السعيد سيستمر سعيداً، وأن نجاحه الأرضي سيستمر نجاحاً. وكان الواجب أن ينتبه لأبديته ويبني سعادته ونجاحه على الأساس الحقيقي، إذ لا يستطيع أحد أن يضع أساساً غير الذي وُضع، الذي هو ربنا يسوع المسيح (١كورنثوس ٣: ١١).

ثانياً - شخصان في العالم الآخر

١ - آخرة الغني:

(أ) **موضع العذاب:** استوفى الغني خيراته في حياته الأرضية، وحان وقت المجازاة في هاوية العذاب حيث الدود لا يموت والنار لا تُطفأ، وحيث لا ينفع أصدقاء ولا مال ولا نفوذ «لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» (متى ١٦: ٢٦).

(ب) **رجاء شخصي:** (هذه هي الطِّلبة الوحيدة المذكورة في الكتاب المقدس التي وُجِّهت إلى قديس في السماء، فقد استرحم الغني في العذاب أباه إبراهيم من أجل نفسه (آيات ٢٣-٢٦). فجأةً تذكر أن إبراهيم أبوه حسب الجسد، فتوجَّه إليه طالباً تدخُّله رحمةً به، ولكنه لم يكن ابن إيمان إبراهيم، لأن الإيمان لا يورَّث، وقد قال يوحنا المعمدان لليهود: «لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم: لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» (متى ٣: ٩). رأى إبراهيم «من بعيد» كما عاش في الأرض بعيداً روحياً عن إيمان إبراهيم، فقال له إنه معذَّب جسدياً في اللهيب، ونفسياً وهو يرى الأمجاد التي يتمتع بها لعازر ولا يقدر هو أن ينالها.

ورجاء الغني يعلِّمنا أن السماء والجحيم مكانان، تبقى ذاكرة الإنسان فيهما قوية، كما يكون منطقه فيهما سليماً، فيتذكر الإنسان ما عمله في حياته شراً كان أم خيراً، ويدرك أين هو وما حالته. لقد تعرَّف الغني في عذابه على الفقير في نعيمه مع أن هيئته تغيَّرت من القروح إلى جمال حقيقي نتيجة الوجود في محضر الله.

(ج) **جواب إبراهيم:** جاء استرحام الغني بعد فوات الأوان، فقد كان مثل العذارى الجاهلات اللواتي وصلن بعد أن أُغلق الباب. وكان كرماً من إبراهيم أن يدعوه «ابني» وهي بنوَّة الجسد التي يتمتع بها كما يتمتع بها لعازر الفقير. ولكن ملكوت السماوات يشبه «شبكة مطروحة في البحر، وجامعة من كل نوع. فلما امتلأت.. جمعوا الجياد إلى أوعية، وأما الأردياء فطرحوها خارجاً» (متى ١٣: ٤٧، ٤٨).

وذكَّر إبراهيمُ الغنيَّ بأنه استوفى خيراته في الحياة الدنيا. لقد منحه الله خيرات ليلتفت إلى المعطي الجواد ولكنه لم يلتفت، ووصلته دعواتٌ متكررة للتوبة ولكنه لم يتب، وكانت له فرص فعل الخير ولكنه لم يفعل. فلم يكن له الحق أن ينتظر بعد هذا شيئاً من البركات الإلهية، لأن زمن نوالها قد مضى. لقد زرع للجسد، فلم يبقَ له إلا أن يحصد فساداً (غلاطية ٦: ٨). وقيل له: «ويلٌ لكم أيها الأغنياء، لأنكم قد نلتم عزاءكم» (لوقا ٦: ٢٤).

وقال إبراهيم إن لعازر يتعزى، فالسماء مكان الفرح حيث المؤمنون «لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد.. لأن الحمل الذي في وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية، ويمسح الله كل دمعة من عيونهم» (رؤيا ٧: ١٦، ١٧). وهناك هوَّة تفصل الغني عن لعازر. ولا يوجد طريق بين السماء

وجهنم، فالسماء مكان سكنى الله مع الملائكة والقديسين، وجهنم معدة لإبليس وجنوده. وفرصة الخلاص قـاصرة على الحياة الدنيا، حيث تساوي رحمة الرب بين الغني والفقير، والبار والفاجر، وتقدم لجميعهم فرصة التوبة وعمل الخير.

(د) طلب عائلي: لم يـلقَ الغني اسـتجابةً لطلبه الشخصي، وعرف مصيـره المظلم، وتغيَّر تقييمه للأمور، فأراد أن تتغيَّر حياة إخوته الخمسـة الذين لا يزالون يعيشون على الأرض، حتى لا يلقوا نفس مـصيره المرعب، فاستعطف أباه إبراهيم من أجل إخوته بأن يذهب لعازر إليهم ليقدم لهم النصح (آيات ٢٧-٣١).

(هـ) جواب إبراهيـم: رفض إبراهيم الطلب لأن الإخوة الخمسـة عندهم توراة موسـى وكتابات الأنبياء، وفيها رسـالة الرب الواضحة التي تعلن لهم فكر الرب وطريق خلاصهم وربح الحياة الأبدية. وهناك أمل لكل خاطئ ينتبه للإعلان الإلهي ويطيعه، فهو يحذر من الجحيم، ويبرهن الحب الإلهي، فإن «نـاموس الرب كامل يرد النفس. شهادات الرب صادقة تصيِّر الجاهل حكيماً. خوف الرب نقي، ثابت إلـى الأبد. أحكام الـرب حقٌّ عادلـةٌ كلها» (مزمور ١٩: ٧، ٩). ولكلمة الله صوت عالٍ، ولها قوة وسـلطان يقول الرب عنها: «أليست هكذا كلمتي كنارٍ يقول الرب، وكمطرقة تحطم الصخر؟» (إرميا ٢٣: ٢٩). «لأن كلمة الله حيـة وفعالة، وأمضى من كل سـيفٍ ذي حدَّين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ، ومميِّـزة أفكار القلب ونيـاته» (عبرانيين ٤: ١٢). وهي الكلمة التي في متناول يد وأذن كل إنسان، و«من له أذنان للسمع، فليسمع» (متى ١٣: ٩).

(و) الغني يكرر طلبه: اختلف الغني وهو في الهاوية مع أبيه الجسدي، وقال: «لا يا أبي إبراهيم».. قـضى هذا الغني حياته في عصيان لإيمان إبراهيم، وهو لازال يعتقد أن فكره أصحُّ من فكر خليل الله إبراهيم، فقال إن قيامة لعازر من الموت وذهابه إلى الإخوة الخمسة واعظاً سيقنعهم بالتوبة.

(ز) جـواب إبراهيم: شرح إبراهيم لابنه الجسدي أن الوحي أقوى من المعجزة. وهو ما قاله المسيح عن سـلطة الوحي وقوته: «فتِّشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية، وهي التي تشهد لي. ولا تريـدون أن تأتوا إليّ لتكون لكم حيـاة.. لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب. يـوجد الذي يشكوكم، وهو موسـى الذي عليه رجاؤكم. لأنكم لو كنتم تصدقون موسـى لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك، فكيف تصدقون كلامي؟» (يوحنا ٥: ٣٩، ٤٠، ٤٥-٤٧).

أقام المسـيـح لعازر من قبره بعد أن مات بأربعة أيـام، فلم يؤمن رؤسـاء الكهنة ولم يتوبوا، بل تشاوروا ليـقتلوا لعازر، لأن يـهوداً كثيرين كانوا يرونه حياً بعد موته فيؤمنون بالمسـيح الذي أقامه، فأرادوا أن يلاشوا برهان المعجزة (يوحنا ١٢: ١٠، ١١)! وأظهر المسيح نفسه حياً بعد قيامته ببراهين كثيرة، ومع ذلك لم يؤمن به كثيرون (أعمال ١: ٣).

إن وســـائط النعمة التي منحها الله للناس تكفي لتنويرهم، دون حاجة إلى المعجزات، فالمعجزة تذهل ولكنها لا تغيِّر، وهي تحدث انبهاراً، لكنها لا تبكت إنســـاناً ليتوب. القوة قوية أما المحبة فغلابة، هناك قوة في المعجزة لكن هناك محبة في الصليب.

٢- آخرة الفقير:

بدأ تكريم الفقير من لحظة موته، فقد حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم «لأننا نعلم أنه إن نُقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في الســـموات بناء من الله، بيت غير مصنوع بيد، أبدي.. فنثق ونُسرّ بالأَولى أن نتغرَّب عن الجســـد ونســـتوطن عند الرب» (٢كورنثوس ٥: ١، ٨). «هوذا مسكن الله مع الناس. وهو سيسكن معهم، وهم يكونون له شعباً، والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم» (رؤيا ٢١: ٣).

وبدأت تعزيـــته لأنه انتظر الرب وصبر له، فمنحه جســـداً جديداً ممجَّداً بلا قروح ولا مرض، فهو «الذي ســـيغيِّر شكل جســـد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفســـه كل شيء» (فيلبي ٣: ٢١). ويحق للعازر أن يقول مع الرسول بولس: «جاهدتُ الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظتُ الإيمان، وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر، الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل، وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً» (٢تيموثاوس ٤: ٧، ٨).

فأين ستكون في الآخرة؟ إن باب التوبة مفتوح لك الآن. «اليوم، إن سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم» (عبرانيين ٣: ٧، ٨).

سؤالان

١ - اشرح الأسباب التي جعلت الملائكة يحملون لعازر إلى حضن إبراهيم.

٢ ماذا كانت طلبتا الغني من إبراهيم، ولماذا رفضهما إبراهيم؟

جدول بأمثال المسيح وشواهدها الكتابية

القسم الأول – **طبيعة ملكوت الله**

	متى	مرقس	لوقا
١ - الملكوت انتقال إلى حالة جديدة:			
(أ) مثلا الرقعة والزقاق	٩: ١٤-١٧	٢: ١٣-٢٢	٥: ٢٧-٣٩
(ب) مثل الكاتب المتعلم	١٣: ٥٢		
(ج) مثل الأولاد اللاعبين في السوق	١١: ١٦-١٩		٧: ٣١-٣٥
٢ - تشبيهات لملكوت الله:			
(أ) مثَل الزارع	١٣: ٣-٩	٤: ٢-٩	٨: ٤-٨
(ب) مثلا الزوان وسط الحنطة	١٣: ٢٤-٣٠		
والشبكة في البحر	١٣: ٤٧-٥٠		
(ج) مثل البذور التي تنمو سراً		٤: ٢٦-٢٩	
(د) مثلا حبة الخردل والخميرة	١٣: ٣١-٣٣	٤: ٣٠-٣٢	١٣: ١٨-٢١
(هـ) مثلا الكنز المُخفى			
واللؤلؤة الثمينة	١٣: ٤٤-٤٦		
٣ - الآب يطلب أبناء ملكوته:			
(أ) مثلا الخروف الضائع	١٨: ١٢-١٤		١٥: ١-١٠
والدرهم المفقود			
(ب) مثل الابنين الأكبر والأصغر			١٥: ١١-٣٢

القسم الثاني – امتيازات أبناء ملكوت الله

	متى	مرقس	لوقا
١- خطايا مغفورة:			
مثل المديونَيْن			٧: ٣٦-٥٠
٢- سُكنى المسيح:			
مثل البيت العامر	١٢: ٤٣-٤٥		١١: ١٤-٢٦
٣- حياة فيها تحديات:			
مثلا البرج المُكمل، والملك المستعد للحرب			١٤: ٢٥-٣٣
٤- حياة حكيمة:			
مثل البنّاء الحكيم	٧: ٢٤-٢٧		٦: ٤٦-٤٩
٥- حياة مثمرة:			
مثل شجرة التين			١٣: ١-٩
٦- حياة صلاة:			
مثلا صديق نصف الليل،			٥:١١-١٣
والأرملة الملحة			و١٨: ١-٨
٧- حياة فرح:			
مثل العشاء العظيم	٢٢: ١-١٤		١٤: ١٦-٢٤
٨- حياة لها مجازاة:			
(أ) مثل فعلة الساعات المختلفة	٢٠: ١-١٦		
(ب) مثل العذارى الحكيمات	٢٥: ١-١٣		
(ج) مثل الوزنات	٢٥: ١٤-٣٠		

القسم الثالث – مسؤوليات أبناء ملكوت الله

١ – ضرورة العمل:

(أ) مثل العبد العامل			١٧: ١-١٠
(ب) مثل السامري الصالح			١٠: ٢٥-٣٧
(ج) مثل الابنين	٢١: ٢٨-٣٢		
(د) مثل الكرامين	٢١: ٣٣-٤١	١٢: ١-٩	٢٠: ٩-١٦

٢ – ضرورة التواضع:

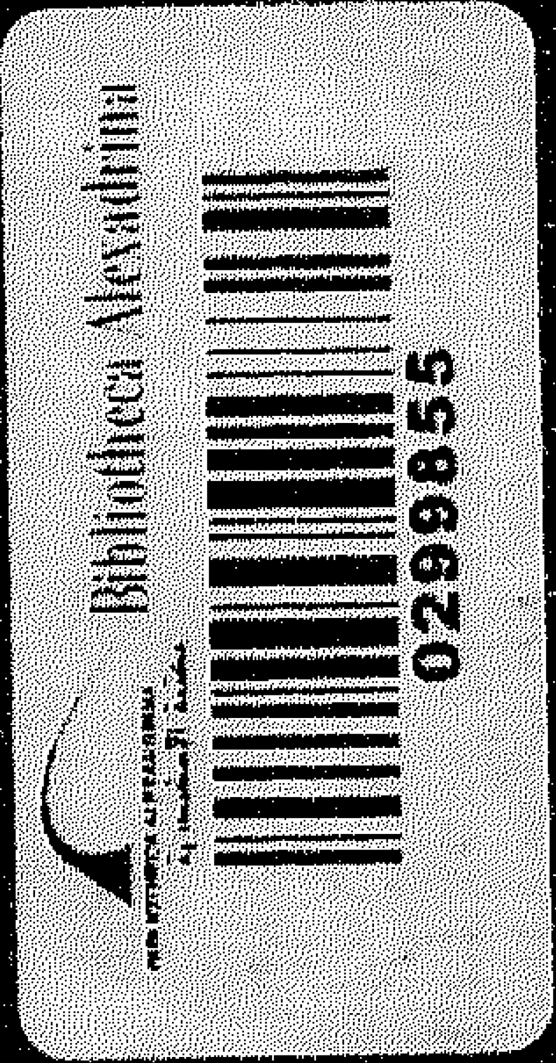
(أ) مثل الفريسي والعشار	١٨: ٩-١٤
(ب) مثل المتكأ الأخير	١٤: ٧-١١

٣ – ضرورة الغفران:

مثل العبد الذي لم يرحم	١٨: ٢١-٣٥

٤ – ضرورة الأمانة:

(أ) مثل الغني الغبي	١٢: ١٣-٢١
(ب) مثل الوكيل الظالم	١٦: ١-٩
(ج) مثل الغني ولعازر	١٦: ١٩-٣١


Biblioteca Alexandrina
0299855